مسئولية
فشل الدولة الإسلامية
في العصر الحديث
وبحوث أخرى

جمال البّنا

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

هـذه بحـوث ومقـالات يجمعها أن كل واحـدة تعـالج همًا من الهمـوم، وقرحًا من القروح، وتحديًا من التحديات التي تشغل البـال وتـنزف الـدم وتَعْـرض الخطر وتـوحي الأسى والقنـوط. ولكن المعالجة تفتح أبـواب الأمل وتحـدد معـالم السـبيل وهي تتسم بالمصــــارحة والمجابهة الــــتي تبعد بها عن المواربة واللف والــــدوران والحيف على الحقيقة لحساب المصالح المكتسبة والنظم الحاكمة والفهم التقليدي.

وقد نشــرت ثلاث أو أربع منها في صــحف معظمها أمريكية محــدودة التوزيــع. وارتؤي إثباتها هنا ليعم بها النفع ولتنجو عما يطرأ لما يكتب في الصحف من نسيان.

وبالإضـافة إلى الطريقة المتمـيزة للمعالجة الـتي تعـرض الحالة الواقعة وتكشف وجوه النقص ثم تصف طرق العلاج فإن موضوعاتها تعطي فكـرة عن الأهمية العظمى لهـا. فـأي شـيء أهم من دراسة أسـباب فشل تجربة إقامة دولة إسـلامية في العصر الحديث. وأي شيء أجـدر بالعناية من دراسة كـبرى الحركـات الإسـلامية الحديثة – أي الإخوان المسـلمين وتحديد ما يكـون من الخـير أن تقـوم به في نـداء حـار **"إخواني الإخـوان"**. وبالمثل فـإن الدراسة الثالثة عن **"غيـاب الرؤية الإسـلامية"** تكشف جانبًا من جــوانب النقص في المعالجــات الإســلامية. وتعــرض الدراسة الرابعة **"بين التقوقع والتميــع"** محنة الطـالب المغـترب والعامل المهـاجر وتقـدم حلـولاً آنية وسريعة كما تضع "استراتيجية" طويلة الأمـد. وتقـدم مثـالاً لمـذهبنا في تركـيز العناية على اللب والجوهر وليس على القشر والمظهر.

أما مقال "الإسلام خط الـدفاع الأخـير في مواجهة الإذابـة" فيتضـمن الأفكـار الرئيسـية لكتـاب عن هـذا الموضـوع نأمل أن يظهر قريبًـا. وهو يجمل أبــرز تحديات العصر وكيف يمكن مواجهتها. وهناك فكرة **"نحو إطـار لا مركـزي لحماية وحدة الأمة الإسلامية"** الـذي يـدعو لتناسي الخلافـات المذهبية في سـبيل الوحـدة وتدعيم هذه الوحدة بمشروعات تهـدف لتعزيز التواصل بين الـدول الإسـلامية وتحقيق التكامل الاقتصــادي بينهــا. وبعث الكتــاب من محاضر قضــية "عربية الجيب" 1948 **صورة لدستور إسلامي وضعه أحد المتهمين فيها** أردنا بنشـره إيضـاح الفـرق ما بين تفكـير الإسـلاميين قبل الحقبة الناصـرية وكيف أنه يخلو من التعسف والتعصب ودعاوى "الحاكمية الإلهيـة"... إلخ مما يوضح أن هـذه الأخـيرة هي ثمـرة مـرة للبـذرة الــتي غرســها عبد الناصر في ســجونه ونماها حكمه المتســلط وسياســاته الفردية المتعسفة.

وثمة بحث موجز عن **"الإخوان والعمل النقابي"** الذي أصـبح سـاحة للوجـود الإخـواني في المجتمع المصـري. أفلتت من قيـود الحظر المسـلطة عليهم وهو وجـود يمكن أن يتضــمن خــيرًا للإخــوان وللحركة النقابية بشــرط أن يتخلى الإخــوان عن "النفسية البرجوازية" التي تسيطر عليهم.

والبحث التاسع هو عن بعض العوامل الــتي تحكم ظــاهرة الصــحوة الإســلامية، ولفظ القوة والضعف فيها.

ويختم الكتاب **بوثيقة هامة ومجهولة تبرز رأي الإخـوان المسـلمين في الوحــدة العربية بتفصــيل،** قــدمت منذ خمســين عامًا وهي توضح أن الإخــوان

يناصرون هذه الفكرة بقوة ولا يرون فيها ما يخالف الأصول الإسلامية.

وقد يلمس القـارئ تكـرارًا لبعض المعـاني وهو ما يعـود إلى أن كل موضـوع من موضوعات الكتاب كتب على حدة، وفي فـترات زمنية متباعـدة فضـلاً عن أن التكـرار يغتفر للداعيـة، إذ لا منـاص منه لتركـيز وتثـبيت المفـاهيم حـتى لا يـذهب بها النسـيان والمشاغل الأخرى.

إننا رغم ما انحدر إليه المسـلمون من ضـعف، وما يتبجح به الطغـاة من قـوة، لم نفقد الأمل، ولم يتطـرق إلينا اليـأس وكيف نيـأس ونحن نقـرأ قوله تعـالى: **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْـرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَـاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** يوسف 110.

جمال البنا

القاهرة
رجب الفرد 1415
ديسمبر 1994

-1-

مسئولية فشل تجربة الدولة الإسلامية في العصر الحديث[1]

لابد أن نعـترف – والأسى يعتصـرنا – بـأن محـاولات إقامة الدولة الإسـلامية في العصر الحـديث قد فشـلت[2]، رغم تـوفر بعض مقومـات النجـاح، مما يؤكد أنه لابد من توفر ما هو أكثر منها. وسنستبعد من أسباب الفشل التآمر الخارجي عليها، رغم تأثيره الكبير، وأنه هو الـذي تعلق عليه أسـباب الفشل لأننا نـؤمن بـأن التـآمر الخـارجي إنما يحقق غرضه عنـدما لا يكـون هنـاك شـعبية مؤمنة حقًا ومشـاركة فعلاً. وهو ما حـدث لتجربتي محمد علي وعبد الناصر في مصر، ومن أجل هـذا نجح التـآمر الـدولي عليهما في "نافارين" و"حرب الأيام الستة".

والمفارقة أن هذا السـبب لفشل مشـروعي محمد علي وعبد الناصـر، انتفى من مشــروع الدولة الإســلامية في العصر الحــديث. فهو في معظم الحــالات يقــوم على قاعـدة مؤمنة ومشـاركة، ولكنه فشل لأن إيمـان ومشـاركة القاعـدة وإن كـان يحمي المشــروع من التـآمر الخـارجي إلا أنه لا يكفل بالضـرورة النجـاح للمشـروع. لأن من المحتمل أن لا يكون هذا الإيمـان سـليمًا رشـيدًا. وهـذا هو ما حـدث لمعظم محـاولات إقامة الدولة الإسلامية في العصر الحديث، وكان من أبرز أسباب فشلها.

أصولية الدولة الإسلامية.

لقد طعن بعض الكتاب في "أصـولية الدولة الإسـلامية" لعل أبـرزهم الشـيخ علي عبد الرازق الذي رزق بسبب كتابه "أصول الحكم في الإسـلام" شـهرة كبـيرة ومع أن هذه النقطة ليست من صلب الموضوع إلا أنها ترتبط به وتمثل شبهة كبيرة في أذهـان لفيف من المثقفين ويكون من الخير الفصل فيها.

لقد بنى الطاعنون طعنهم على الأسباب الآتية:

أن القرآن الكريم حصر دور ومهمة الرسـول في التبليغ وصـرح بأنه ليس له على النــاس أي سـلطان وأنه ليس مسـئولاً عن إيمــانهم لأن هــذا ليس مما يملكه ولكنه مسئول عن التبليغ، وأنه ليس وكيلاً عنهم أو جبارًا عليهم.

1- لم ترد كلمة "دولة" بالمعنى السياسي الشائع في القرآن ولكن "أمه" والفـرق بين الدولة والأمة كبير وهو يميل لتأييد وجهة نظرهم.

ما يتطـرق إلى أذهـان البعض من تعـارض بين الرسـالة النبوية الـتي تقـوم على التبليغ وتتسم بالحكمة والموعظة الحسنة والإيمـان القلـبي، وسـلطة الحكم وما يتسم به من قهر [سجون، بوليس، جيش...].

ولكن يرد على هذه الاعتراضات.

أن القرآن الكريم أصلاً كتـاب هداية إلى العقيـدة. وإذا عـالج شـيئًا آخر غيرها من تاريخ أو علوم أو جغرافية فمن باب الاستدلال وإعمال الذهن، وليس من الضروري أن ينص القرآن على الدولة الإسلامية.

أن بعض أركـان العقيـدة نفسـها كالزكـاة تتطلب سـلطة تتسـلح بـالإكراه عند الضـرورة فضـلاً عن نصـوص أخـرى عن أمـور تتـدخل في إطـار الدولة كموادعة أهل

---

[1] (?) نشر القسم الأول من البحث في جريدة "القدس" اليومية التي تصدر في لنـدن العـدد 1689 في 25 نوفمبر سنة 1944.

[2] (?) قد لا يصدق هذا الحكم تمامًا على تجربة السودان. التي تكافح في ظروف قاسية وغامضة.

الكتاب ومقاتلة الباغين...إلخ.

أن التبليغ يــدخل فيه الإيضــاح والتبــيين – خاصة وأن القــرآن الكــريم يغفل ذكر التفاصيل حتى في أخطر ما يتعلق بالعقيدة كالصلاة والزكاة، والصوم... إلخ. ففي هذه كلها لم يضع القرآن سوى التوجيه العام بدون التفصيل الخاص وقامت "السـنة" بـذلك ولا يعد هذا افتئاتًا على القرآن، بأي وجه وعندما نصف أمرًا ما بأنه "إسلامي فـإن هـذا يختلف عن أنه "قرآني" لأن الإسلام يضم القرآن والسنة أو "الله والرسول".

وما يمكن أن ننتهي إليه هو أن مبدأ أصولية الدولة الإسلامية، أو أن الدولة تــدخل في إطار الإسلام أمر لا نـرى أنه محل جـدل ويمكن أن يسـتخلص من القـرآن نفسـه، وإن كانت الدولة الإسلامية الأولى من إنشاء الرسول **وما يجوز الاجتهاد فيه ليس هو أصــولية الدولة الإســلامية، ولكن تفاصــيل وطريقة ونظــام الدولة الإسلامية، لأن معظم هذا من إنشاء الرسـول، ولم يختلف أئمة الفقهـاء في أن ما يقـوم به الرسـول بصـفته الإمـام أو الحـاكم ليس له إلـزام ما يقوم بتبليغه كرسول عن العقيدة.**

وهـذا ما يضـيق الشـقة بين وجهـتي النظر وإنما احتـدم الخلاف لجهل فريق بـأن نظام الدولة الإسلامية اجتهـادي وإن كـان مبـدؤها أصـوليًا، وشـدة تعصب وضـيق أفق فريق آخر يريد أن يجعل تفاصيلها أصولية لا اجتهاد فيها.

الدولة الإسلامية تاريخيًا:

ونحن نـرى أن الدولة الإســلامية ظهـرت بالفعل مع بداية وصــول الرســول إلى المدينة. وبدأت على يدي الرسول نفسه عندما أشرف على بناء المسجد، وشارك فيه. والمسجد في الإسـلام هو ملتقى المسـلمين كما هو مكـان عبـادتهم، إذ لم يكن هنـاك مكان عام آخر غيره للاجتماع واتخاذ القرارات العامة ومناقشتها.

وبعد إقامة المسجد مارس الرسول برضا وتسليم كل المؤمنين: مهاجرين وأنصار مسئوليات رئيس الدولة فقـاد الجيـوش في المعـارك وأبـرم المعاهـدات وتـولى توزيع الزكاة والمالية العامة... إلخ. وهذه كلها من صـميم اختصاصـات رئيس الدولة بحيث **لا يمكن القــول إنه كــان نبيًا فحسب أو أنه أوجد "أمــة"، لقد أقــام أمة ودولة.. وكان رئيس دولة قدر ما كان رسول دعوة.**

وظهر أثر ذلك في أنه عندما توفي لم يعد العرب إلى ما كانوا عليه قبل الإسـلام. وعندما أراد البعض ذلك اعتبروا مرتـدين وأعلنت عليهم الحـرب وكـان لابد من الإبقـاء على الدولة التي أقامها محمد حتى لو اختلفت شيئًا ما لان أحـدًا ما كـان يمكن أن يملأ مكان محمد بملكاته ومواهبه وقدراتـه، فضـلاً عن خصوصـيته الفريـدة كرسـول ونـبي وهكذا وجدنا أنفسنا في "السقيفة" وتمت بعد بعض المناوشات بيعة أبي بكر.

وعنــدما أحس أبو بكر بمــرض المــوت، أهمه أمر الطريقة الــتي يــأتي بها من سيخلفه، كانت بيعة أبي بكر "فلتـة" بتعبـير عمر بن الخطـاب وكـان أبو بكر يعلم هـذا وأراد أن يحمي المسلمين من "فلتة" أخـرى غـير مأمونة والعهد حـديث ولم يمض في الحكم سوى عامين. ولهذا أباح لنفسه أن يختار أفضل المرشحين، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن قام بعملية "شورى" طويلة أكدت له صواب ترشـيحه وقبـول المسـلمين له وهكذا ولي عمر.

ونحن لا نعــرض الطريقة الــتي بويع بها عمر كإحــدى الطــرق الــتي يمكن أن تستخدمها الدولة الإسلامية في العصر الحديث ولكن لإيضاح ملابسـاتها. وقد كـان عمر هو المؤهل لوضع نظام "منهجي" لإدارة الدولة. وربما لو اختار في حياته ستين، وليس بعد موته ستة لوضع بذرة أقرب النظم إلى الإسلام.

ولكن الملابسـات لم تكن تتطلب ذلك ضـرورة. كـان النظـام القـائم يـؤدي دوره

ويكفي، ولو اقترح أحد أن تكون ولاية الخليفة محددة المدة لرفض، لا على أسـاس أن هذا يخالف نصًا أو يعـارض أصـلاً. ولكن لأنه لم يكن له ضـرورة وكـان من المحتمل أن ينطـوي على مخـاطر القلقلة في وقت بنـاء الدولة الجديـدة. ولعل هـذه الأسـباب هي التي حالت دون أن ترد فكرة تحديد مدة الحاكم.

فكل نظام سياسي هو ابن ملابساته وموقعه وتاريخه. ومن ثم يفـترض أن تختلف النظم. وما حـدث في خلافة أبي بكر وعمر كـان ثمـرة واقعية للملابسـات والأحـداث. وقد كان من أسباب قـوة الإمبراطورية الرومانية – في فـترة ما – أن بعض القياصـرة كانوا يتبنون أفضل الشخصيات ويرشحونها للحكم أو يدفعون بها لممارسة المسئوليات الكبـيرة بحيث يكـون تـوليهم للحكم أمـرًا تلقائيًـا. وقد تصـور جـورج برنـارد شو في مسرحية "ميجـور بربـارا" مؤسسة رأسـمالية لأصـحابها مثل هـذه العقلية فهم يتبنـون أفضل العناصر في الشركة ويدفعون بها لإدارتها.

***

المهم في هذا أن دولة النبوة التي أقامها الرسـول وانتهت بوفاتـه، أعقبتها "دولة الخلافة" التي بـدأت بـأبي بكر وانتهت بعلي بن أبي طـالب وقـدمت خلال ذلك نموذجًا ثانيًا للدولة الإسلامية حتى جاء النموذج الثـالث الـذي وإن انطلق من الإسـلام فإنه بـدأ الانحراف عن المبادئ والمثل التي قامت عليها الدولة الإسلامية، ومن أجل هـذا أطلق عليه دولة **"الملك العضوض"**.

ومع أن الانحراف عن المبادئ والقيم الإسلامية بدأ مع معاوية إلا أن الموجة الـتي أثارها الإسـلام كـانت من القـوة والعرامة بحيث جـاوزت كل ما أوجـده الانحـراف، وسمحت بوجود قادة أكفاء وحملت الإسلام إلى إيران والصين والهند وأسـبانيا. وظلت الدولة الإسـلامية مزدهـرة كدولة تـآكلت فيها معظم مقومـات الدولة الإسـلامية ولكن الباقي كان يكفي لاسـتمرار الدولـة. حـتى دخلها الـترك في أيـام المعتصم وأوتيت من الداخل. ولكنها واصلت البقاء حتى هاجمها هولاكو وأسقط الخلافة العباسية عـام 656 – 1258.

ومع هذا فإن فكرة دولة الإسـلام كـانت قد تأصـلت بحيث أنها عنـدما قضي عليها في بغـداد وجـدت ملاذًا أخر في مصر الـتي نهضت بهـا، ومكنتها من أن تحـرز أعظم انتصاراتها: الانتصار على المغول والتتار في عين جالوت. والانتصار على الصليبيين في حطين والمنصـورة. وكـان انتصـار المنصـورة آخر عهد الدولة الإسـلامية في الشـرق بالانتصـار. ولما جـاء نـابليون بعد ثلاثة قـرون لم يجد من يقف أمامه كما وقف بيـبرس وقطز وصلاح الدين.

حقًا رفع الأتـراك اللـواء الإسـلامي وأوصـلوه حـتى أعمـاق البلقـان وأسـوار فيينا وحكموا اليونان، ولكن الإسلام في سلطنة آل عثمان كان رمزًا أكثر مما كان حقيقة.

وفي الوقت الذي كان أبو عبد الله آخر سلالة بـني الأحمر يسـلم مفـاتيح غرناطة لفرديناند وايزابيلا ليطـوي آخر صـفحة من حكم الإسـلام في أسـبانيا، كـان كولـومبس يبحر ليكتشف عالمًا جديدًا وكان التجار المغـامرون يمخـرون بسـفنهم البحـار السـبعة ليبدءوا العهد الأوروبي وينهوا العهد الإسلامي – حتى وإن جاءت النهاية الرسمية لإلغـاء الخلافة سنة 1924 ولم يكن في الخلافة وقتئذ من الإسلام إلا الاسم.

من هذا العـرض يتضح أن الدولة الإسـلامية حقًا لم تـدم سـوى أربعين عامًـا. عشر منها دولة النبوة وثلاثون دولة الخلافة، ولكن هذه المدة القصيرة كـانت من القـوة بحيث وضعت تقاليد وأرست أسسًـا وبنت نموذجًا لألف عـام. بنسب متفاوتـة، وظلت تتآكل مع

الزمن حتى انعدمت كلية في العقود الأولى للقرن العشرين وكان إلغاء الخلافة الرسمي تحصيل حاصل.

وفي الــوقت نفسه – فإنه يثبت أن الــذين يظنــون أن ليس في الإســلام دولــة، ويفصلون بين الإسلام وفكرة الدولة يخطئون في الواقع، وفي الــواجب: في الواقع لأن الرســول أقــام دولة نسج على منوالها الخلفــاء الراشــدون وهــذه حقيقة وواقــع، وفي الواجب، لأن هذه التجربة قدمت إضافة ثمينة إلى عــالم النظم السياســية، وكـان يمكن لو ألم بها الأوروبيــون أن تــثري تجــاربهم. كما أنها تمثل ذكــرى عميقة في قلــوب المســلمين هي محل زهــو، وفخــر، وإعــزاز المســلمين جميعًــا، لأنها بــدأت على يــدي الرسول نفسه واشـترك فيها صـحابته الـذين يتمتعـون بكل الحب والتقـدير، وأنها تمثل تجربة الإسلام لوضع نظام حكم لا يقوم على الغلبة أو القوة، أو الثراء أو الأرستقراطية ومحاولته إبـداع حلـول إنسـانية لإصـلاح السـلطة الـتي هي مفسـدة بطبيعتهـا. ونجحت التجربة في ذلك، وإن لم تستمر سوى أربعين عامًا.

دعوة وتجارب الدولة الإسلامية في العصر الحديث:

في أشد ســاعات الليل الطويل الــذي أطبق على العهد الأخــير للخلافــة، انبثق شهاب كان يؤذن بالفجر. كان هذا هو "جمال الأفغاني" الـذي دق الدقة الأولى لإيقــاظ المجتمع الإسلامي الغارق في سباته. وأراد جمال الأفغاني "دولة" أو "كومنولث" يقوم على أسس إسلامية ويسـتلهم قيمًا إسـلامية وكـانت وسـيلته لـذلك إثـارة النخبة الـتي يكون عليها أن تصل إلى الحكم بمختلف الوسائل، بما في ذلك الثورة.

لم يعش جمال الدين لـيرى صـدى صـيحته المدويـة. ولكن الصـيحة كـان لها آثـار أشهرها ما انتقل إلى محمد عبــده. ولكن أهمها – فيما نحن بصــدده – هو ما وصل إلى حسن البنا ومجموعة أخرى من المفكرين والدعاة الإسلاميين وقتئذ في معظم الــدول الإسلامية، وكانت قد سبقته – كما لحقته – محاولات لتكوين دولة إسلامية.

***

ففي الحجاز ظهر في وقت متقدم داعية إسلامي إصلاحي أراد إنقـاذ الإسـلام من الخرافات والخزعبلات التي كانت حشو أردية الشيوخ والفقهاء وقتئـذ. وتعـاون مع أحد الحكام بحيث كفل للدعوة الإصلاحية السيف الحـاكم وظهـرت الدولة الوهابية في نجد أولاً ثم في الحجـاز ثانيًا ولكن مضـمون الإصـلاح في فكر محمد بن عبد الوهـاب كـان سـاذجًا، فقد ارتبط بتخليص العقيـدة معًا اعتـبره شـركًا، يتمثل في التوسل والشـفاعة والقباب وإقامة المقابر... إلخ.

أما بالنســبة للدولة الإســلامية على وجه التعــيين فلم يكن لديه شــيئًا أو لم يعنه باعتبـار أن ذلك هو اختصـاص الحـاكم أما هو – الفقيه – فقد عـني بتجريد العقيـدة من شبهات الشرك.

إننا لم نكن لنطلب من محمد بن عبد الوهــــاب أن يقــــرأ تــــاريخ الإمبراطورية الرومانية أو الثورة الفرنسية أو يعرف ما قدمه مونتسكيو أو جان جـاك روسـو. إنه لم يكن محتاجًا لهذا ولا كانت رمال صحراء نجد تحتمله. ومع هـذا فما كـان متصـورًا حـتى في أشد النظم سذاجة وبساطة أن تبنى دولة بهدم القباب! كـان المطلـوب من محمد بن عبد الوهاب أن يجري توازنًا بين تخليص العقيدة من أدران الشـرك وتخليص الحكم من لوثات الظلم.

***

في الهند وفي أعقــاب الحــرب العالمية الثانية كـان المســرح يتهيأ لظهــور دولة إسلامية جديدة تختلف ظروفها وملابساتها اختلافًا كبيرًا عن الدولة السعودية.

فعنـدما وعـدت بريطانيا الهند بالاسـتقلال، تبـدت لمسـلمي شـبه القـارة الهندية مشكلة نظام الدولة القادمة التي كان المسلمون فيها قرابة الثلث أو أكثر عددًا وكــان لــدى الأغلبية الهندوســية نزعة عدوانية تجــاه المســلمين، أججها الحكم الاســتعماري البريطاني الذي أراد أن يفرق وحدة الهند، وإن ينتقم من المسلمين الـذين كـانوا أكـبر عناصر الثورة عليهم. فقربـوا إليهم الهنـدوس وقلـدوهم المناصب وأحيـوا فيهم ذكـرى الحكم المغولي للهند وغزوات المسـلمين القديمة لهـا، فتـوجس المسـلمون خيفة من أن يحكم الهند حكومة تكون الأغلبية فيها للهندوس المتعصبين.

وكـــان في الهند وقتئذ عـــدد من أفضل المثقفين الإســـلاميين مثل "أحمد خـــان" مؤسس جامعة عليكره، وسيد علي مؤلف كتاب "روح الإســلام"، ومولانا أبو الكلام آزاد الذي كان يعد أكبر شخصية إسلامية سياسية يأتي في حزب المؤتمر بعد غانـدي ونهـرو مباشـرة. وكـانت اتجاهـات هـذه المجموعة إصـلاحية. ولم يكن العيب فيهم الفجاجة أو الجهالة أو ضــــيق الأفق أو غلبة التعصب فقد كــــانوا جميعًا من قمة "الانتليجنســــيا" الإسلامية الملمة بالثقافة الحديثة، ولكن الذي كـان ينقصـهم هو وقـدة الحماسة الثورية ونظرية "الدولة الإسلامية" وهذا النقص هو ما اسـتدركه ظهـور عـدد آخر من القيـادات كان أبرزهم "محمد إقبال" المثقف الشاعر – السياسي الذي كان لديه نبع لا ينضب من العاطفة الإســلامية يكفي لــري الدولة الإســلامية المنشــودة. ومثل السياسي المنــاور محمد علي جنّه رئيس الرابطة الإسـلامية الـذي اسـتطاع أن يسـتخلص "باكسـتان" من قبضة الهنـود والمسـلمين التـابعين للمـؤتمر، ومثل العلامة المـودودي الـذي تعمق في الدراسة الفقهية بحيث استخلص أفضل ما تجود بـه. وكـان هـؤلاء جميعًا مكـونين تكوينًا سياسيًا، وكان أفضلهم هو إقبال الذي توفر له قوة الحماسة وسعة الأفق، ولكنه تــوفي في الســنوات الأولى للدولة فلم يتسع له المجــال ليــؤدي رســالته، وعلى نقيض ذلك أنفسح المجال للمودودي ليقدم نظريته عن الدولة الإسلامية التي كانت أفضل ما يمكن أن يخرج به مفكر سلفي.

أما جِنّه فقد كان سياسـيًا مطبوعًـا، كـان الإسـلام بالنسـبة إليه قومية للمسـلمين تميزهم عن الهندوس وكانت مهمة الدولة الإسلامية هي الحيلولة دون تحكم الهنــدوس في المسلمين. فميزتها العظمى سلبية – وكان يكفي أن تقوم الدولة وتضــفي حمايتها على المسلمين وتكفل لهم حرية الاعتقاد لتقوم بدورها، ولم يكن لــيرفض بعد ذلك أن تكون أوروبية الهوى. وقد كان هو نفسه "باريسـتر" بريطـاني، أقـرب إلى البريطـانيين منظرًا، ومزاجًا منه إلى شعب الباكستان.

وظهر وقتئذ مفكر التحق بخدمة باكســـتان هو النمســـاوي اليهـــودي محمد أسد [سابقًا ليوبولد فايس] الذي آمن بالإسلام عن اقتنـاع، ووصل إلى لب وجـوهر الإسـلام وأصدر مجلة "عرفات" وأخذ يدعو لفكرته عن الدولة الإسـلامية – كما يجب أن تكـون. واكتشف نفاق السياسيين الباكستانيين تجـاه الإسـلام. ولو اسـتلهمت باكسـتان إقبـال ومحمد أسد لكانت أقرب إلى الدولة الإسلامية المنشودة. ولكنها استلهمت المــودودي من ناحيــة، وجنه من ناحية أخــرى فــوقفت بين الســلفيين التقليــديين والسياســيين الانتهازيين.

وكما قلنا آنفًـا، فـإن المـودودي اسـتطاع أن يقـدم رؤية سـلفية للدولة الإسـلامية بأسلوب سهل سائغ، مدعم بالآيات والأحاديث، مسـلح بالأمثلة الـتي تعين عامة النـاس على الفهم.

ولكن هذا الفكر كان ساذجًا، يفترض أن في النصوص وحـدها قـوة تهـزم الطبيعة البشـرية، وكـان يتجاهل التعقيد الاجتمـاعي، وما يطرحه العصر من مشـكلات وقضـايا جديدة بالمرة لا يمكن للقياس السلفي معالجتها.

كانت قوة فكر المودودي أنه فكر سلفي يتسلح بأقوال الفقهاء وكان ضعفه أنه أيضًا – سلفي – يتخلف عن التطور.

ولعل باكستان أقدر من أي دول إسلامية أخرى على حل أزمتها، لأن هذا لا يتطلب منها سوى أن تطوى كتب المودودي وتفتح كتب إقبال وأسد. وأولهما بطل من أبطال باكستان لا يقل عن "القائد الأعظم" جِنّه نفسه والثاني مفكر إسلامي وهب زهرة عمره لخدمة باكستان وقدم أفضل تصور للدولة الإسلامية.

ولكن يظل أمام باكستان – كما يظل أمام الدول الإسلامية الأخرى – ظهور القيادة النابغة، وهذا ما لا يمكن أن تأتي به الكتب – وإن كان من الممكن أن تصقلها – ولكن يأتي بها الله تعالى.

***

وهذا ما يصلنا بإيران، لأن الله تعالى أنعم على إيران بهذا العنصر الثمين، ويسر لها قائدًا تبلورت فيه الدعوة للدولة الإسلامية.

ولو أن نهضات الأمم تقاس بحماستها لقائدها، وطاعتها له، لحازت إيران الخميني قصب السبق.

إن إيران تقدم لنا صورة ثالثة لتجربة الدولة الإسلامية توفر لها العديد من مقومات النجاح، ولكنها مع هذا لم تنجح!

فها هي ذي دولة تتوفر لها كل مقومات النجاح كدولة، إن لم تكن كبرى فوسطى، لديها ثروة بترولية تجعلها الثانية في العالم، ولديها أراضي فسيحة صالحة للزراعة ومعادن ومناجم عديدة وشعب ذكي عريق يحق له أن يفخر – كمهيار – بحضارة الفرس ودين العرب.

وكانت هذه الدولة محل أطماع الدول الاستعمارية في العصر الحديث، وبوجه خاص روسيا المتاخمة لها وبريطانيا الطامعة في ثرواتها، وحاولا اقتسامها وانتهابها، فعمدت روسيا إلى استلحاق المناطق المتاخمة لها، بينما حاولت بريطانيا استنزاف ثرواتها بالاتفاقيات التجارية وكان من هذه الاتفاقيات اتفاقية احتكرت بمقتضاها شركة بريطانية إنتاج وتوزيع "التمباك" وهي المناسبة التي استصرخ فيها جمال الأفغاني المجتهد الأعظم "الشيرازي" الذي أصدر فتوى حرم بها استعمال التمباك فأضرب الناس جميعًا عنه وقيل إن الشاه عندما طلب نارجيلته، قالوا له لقد حرمها الشيرازي. وكادت الشركة تفلس حتى عوضها الشاه.

وانتهى الملك في هذه الدولة إلى قائد عسكري اغتصب الحكم حتى جاء عليه الدور عندما عزله الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وولوا ابنه. وكان هذا الابن – شاه رضا بهلوى – شخصًا مجردًا من الموهبة مزهوًا سطحيًا اغتر بثروات بلاده الطائلة فأخذ ينفق منها بسفه أعاد إلى الأذهان سفه الخديوي إسماعيل في أيامه. وكان هو وأسرته دور السلطة، وبؤرة الفساد الذي أخذ يستشري ويلتهم ثروات البلاد، وكان همّ الشاه الوحيد هو أن يوجد لنفسه ولي عهد! كأن إيران بدونه ستفلس! وطلق زوجاته في هذا السبيل حتى جاءت آخر زوجاته بولي العهد الذي عندما ظهر كان قد فقد العرش، وأصبح ولي العهد مشردًا طريدًا، كولي عهد فاروق من قبل.

وكان الشاه عازفًا عن الإسلام يستند في حكمه على أسنة الرماح، وعلى حماية "السافاك" وعلى تأييد أمريكا التي جعلته "شرطي" الخليج وحاول أن يقوم بثورة بيضاء فشلت فشلاً ذريعًا لغلبة الفساد والبيروقراطية.

وكان في إيران "انتلجنيسيا" إسلامية، مكيفة تكييفًا سياسيًا بالنسبة للاتجاه السياسي للمذهب الشيعي الذي يرى في الإمامة ركنًا من أركان العقيدة، مثل علي

شريعتي وبني صدر وبازرجـان وغـيرهم من الـذين ألمـوا بالثقافة العصـرية واحتفظـوا بالأسـاس الشـيعي/ الإسـلامي ولكن الشـاه ما كـان يسـمح لهم بـالظهور أو يسـمح لأفكارهم بالانتشار.

في هذه الملابسات ظهر على الساحة آية الله خوميني الذي كان الشاه قد لاحقه بالاضطهاد ثم نفاه، فمكنه بذلك من حرية العمل.

وتجمعت في آية الله خوميني الصفات التي تكون القائد الرمـز، وتجعل الجمـاهير تعطيه حبها أو حتى هوسها بحيث قدر له أن يكون رمز الثورة التي حان حينهـا. وما أن غادر منفاه في فرنسا إلى إيران، حتى تهاوى النظام الإمبراطوري الشاهنشاهي كـبيت من ورق فهـرب الشـاه وهـرب ضـباط السـافاك القسـاة. واستسـلمت المؤسسة العسكرية التي كانت أكبر قوة عسكرية في المنطقة تضم جنرالات الجيش وأمـيرالات البحر ونسـور الجـو، وكلهم من الضباط المحـترفين الـذين تمرسـوا بالضـبط والربط العسـكري وتلقـوا تـدريباتهم في الولايـات المتحـدة. وغصت طهـران بالجمـاهير الـتي جاءت من كل حدب وصوب للترحيب بهذا الشيخ العجوز..

لقد قارن كاتب أوروبي استقبال الروس للينين عندما عاد من منفاه في سويسرا عام 1917 باستقبال إيران للخوميـني، ولكن هيهـات هيهـات، فالـذين اسـتقبلوا لـينين على المحطة كـــانوا عشـــرين أو ثلاثين ألف نصـــفهم من أنصـــاره، ونصـــفهم من المعسكرات الأخرى، أما عنـدما جـاء خوميـني، فـإن الشـعب الإيـراني بقضه وقضيضه كان في انتظاره.

وبدأ عهد جديد.

وتوفر لهذا العهد معظم مقومات النجاح.

فهي دولة غنية قوية يسكنها شعب مؤمن وثمة نظرية للإمامة وهناك زعيم يحرك الجماهير.

من أجل هذا بدا وكأن تجربة إيران أقرب تجربة إسلامية إلى النجاح.

ومع هذا فقد كان مقضيًا عليها أن لا تبلغه.

إن القوى الأوروبية لمست قوة هذا النجم الصاعد في سـماء الإسـلام. فـزجت به في حرب لمدة ثماني سنوات، استنزفت فيها كل ثروات إيران والعراق، وجـزءًا كبـيرًا من ثروات العرب.

صحيح أن الأمام الخوميني أحسن عنـدما أنقذ الفكر الشـيعي من آثـار فكـرة "غيبة الأمام" وأنه في هذه الغيبة، لا جـدوى من أي عمـل. لقد قضى على هـذه الفكـرة الـتي كانت تعطي الكفاح أجازة مفتوحة وتعفي أصحابه من العمـل، ولكنه لم يسـتطع التحديد السليم في فكرة "ولاية الفقيه" بين موروثات المذهب وضرورات العصر. حتى وإن بدت الفكرة "ولاية الفقيه" لازمة مادامت الثورة قد قامت على نظرية فقهية إسلامية.

وكان علي شريعتي – أنبه مفكري الشـيعة – قد وضع حلاً للفكر الشـيعي يخلصه من أزمته، عندما أوجد فاصلاً بين التشيع العلـوي الـذي يعـود إلى علي بن أبي طـالب والتشـيع الصـفوي الـذي يعـود إلى الدولة الصـفوية الـتي حكمت إيـران في القـرنين الخامس عشر والسادس عشر، واستبعد شريعتي كل التشـيع الصـفوي باعتبـاره غريبًا على التشيع العلوي وأنه تأثر بالعداوة المريرة والحـروب الطاحنة بين الدولة الصـفوية والدولة العثمانية التي كانت تمثل السنة.

ويبـدو أن هـذا كـان أكـبر مما يمكن أن يحتمله آيـات الله لأنه كـان يتطلب عملية جراحية في المذهب تودي بأجزاء اعتبرت من صلبه وهو ما لم يستطعه خوميني، ومن هم بعده، ممن كانوا أضعف من أن يقوموا بهذا التجديد الجذري.

ولا نستطيع أن نحدد نسبة "إسلامية" الدولة القائمة في إيران اليوم، وهذا في حد ذاته دليل على غموض هويتها وتميعها.

في الأفغان نجد تجربة رابعة لحكم إسلامي، بدأ كمقاومة إسلامية للاحتلال السوفيتي، وانتهى بأن أصبح محورًا لحرب أهلية بدلاً من أن يكون قاعدة لسلام اجتماعي.

هذه البلاد الجبلية الشاهقة التي أهدت للعالم الإسلامي الثوري الأعظم جمال الدين، والتي هزت كل من أراد أن يدخلها بما في ذلك الإنجليز – تعرضت لاكتساح سوفيتي نتيجة للخيانة من الداخل وتواطؤ الحزب الشيوعي.

أيقظ هذا الحدث الحاسة الإسلامية وتبلورت فيها روح المقاومة وارتفع اسم المجاهدين وانهالت المساعدات عليهم من العالم الإسلامي، بينما هرعت مجموعات عديدة من الشباب المسلم للمشاركة في الجهاد.

وقد عُلم الآن أن ما قدمته الولايات المتحدة كيدًا في الاتحاد السوفيتي، وليس حبًا في الأفغان قد يفوق ما قدمه العالم الإسلامي، وربما كان العامل الذي كفل للمقاومة الإسلامية النجاح.

وهذا لا يضائل من أثر العنصر الإسلامي في المقاومة، فلو لم يكن موجودًا وعميقًا في الشعب الأفغاني لما ظلت المقاومة، ولما انتصرت في النهاية. على أن انتصار المقاومة وطرد المحتل الأجنبي أسفر عن مأساة. إن الفصائل التي قادت الجهاد، بدلاً من أن تعكف على بناء الدولة التي أحالتها الحرب إلى أنقاض أخذت تحارب بعضًا للاستيلاء على السلطة وتجهز على البقية الباقية من البلاد.

أين هنا الوعي الإسلامي؟ لقد كان قويًا عندما كان الأمر محاربة الشيوعيين... الكفرة... الأجانب.

ولكنه لم يظهر ليحول دون أن تقاتل الفصائل المجاهدة بعضها بعضًا.

وأقل ما يقال فيه أنه وعي ناقص.

***

هذه أربع تجارب لإقامة دولة إسلامية، توفر لها بعض مقومات النجاح [3].

فيها جميعًا وجد شعب مسلم يريد من كل قلبه الدولة الإسلامية.

وفي دولتين – السعودية، وإيران – لم يكن العامل الاقتصادي حائلاً أو معوقًا. لأنهما يتمتعان بثروات كبيرة.

لماذا أذن فشلت تجربة الدولة الإسلامية؟

أسباب فشل تجربة الدولة الإسلامية:

كان السبب الرئيسي الذي أدى إلى فشل تجربة الدولة الإسلامية في العصر الحديث هو **عدم تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية التي تميزها عن غيرها وتتضمن مقومات النجاح.** مثل هذه الرؤية تكون نتيجة انصهار العناصر العديدة المكونة لها في بوتقة العقيدة بحيث تخرج سبيكة أصيلة بعيدة عن التلفيق في

---

3 [?] لم نتحدث عن تجربة السودان التي تكافح بقوة – ولعلها أفضل التجارب – لعدم توفر المواد التي تبني عليها الأحكام. كما لم نتحدث عن مصر لأن دعوة إقامة دولة إسلامية أصيبت بضربة قاضية اغتيال الأمام الشهيد حسن البنا ولا يمكن أن تنهض منها إلا عندما يظهر بنا ثانٍ يبدأ حيث انتهى الأول.

الأهداف أو التنافر في الوسائل، فوسائلها تؤدي إلى أهدافها، وأهدافها ثمـرة وسـائلها، وهذا وذاك محل رضا وقبول الذين قدمت إليهم.

وبـديهي أن الشـرط الأول لنجـاح أي تجربة جديـدة في عـالم النظم هو سـلامة النظرية أو العقيدة التي تقوم عليها التجربة، فلا تجربة بـدون نظريـة، لأن النظرية هي محور العمل فهي التي تحدد الوسائل والغايات، وتعيّن الأولويات وتحصن أصـحابها من الانزلاق أو الانحـراف، فالنظرية الماركسـية بـدت سـليمة منذ أن وضـعها مـاركس في منتصف القرن التاسع عشر، وعلى أساسها قـامت تجربة "الاتحـاد السـوفيتي" وكـانت تجربة مثيرة، وحققت إنجازات ضخمة، ولكن ظهر في سنواتها الأخيرة النقص الكـامن فيها الذي لم يتنبه إليه دعاتها حتى استشرى وأدى إلى تهاويها.

ويعـود العجز عن تقـديم الرؤية السـليمة للدولة الإسـلامية إلى أن صـورة الدولة الإسـلامية الـتي أقامها الرسـول، ونسج على منوالها الخلفـاء الراشـدون كـانت قد طمست في الفكر السياسي الإسـلامي، أو اعتـبرت مما لا يمكن تكـراره، وأنها أقـرب إلى النبوة التي لا تتكرر منها إلى الملك الذي تدور عليه الأمـور. وهـذه الفكـرة نجـدها في بعض كتابـات المتقـدمين مثل الجاحظ في "التـاج" والطبطبـائي في "الفخـري"، ولعلهم وجدوا في قصر مدتها وسمو مثالياتها ما يشـفع لهم في هـذا الحكم. وإلا لكـان عليهم الإقرار بأن كل ما تلاها – من عهد معاوية حـتى عصـورهم – كـان ملكًا عضوضًـا يختلف عن الخلافة الراشـدة، وما كـان يمكنهم أن يقـروا بـذلك وأحكـام هـذا الملك مبسوطة وسيوفه مصلتة.

وقد حاول الأئمة في الأيام الأولى للعهد الأموي والعباسي الثورة على نظم الملك العضـوض واشـترك في هـذه الثـورة الأئمة الأربعـة: مالك وأبو حنيفة والشـافعي وابن حنبل، وتعرضوا لأشد صور الاضطهاد. وفشلت الثـورات الـتي قـام بها بعض الطـالبيين لأن رجال الملك العضوض كانوا أدرى بفنون القتال ولديهم الجيوش والأمـوال. وكـانت النتيجة أن نفض الأئمة اليدين من موضوع الدولة، وركزوا جهدهم في العبادات الـتي لا دخل للحكام فيها، وشيئًا فشيئًا زحف النسيان على القيم التي كانت هي سر قوة دولة الإسـلام، ولم تبق إلا الممارسـات الظالمة للحكـام. وأصـبح أقصى آمـال الفقهـاء أن تتمسك الدولة "بحفظ الـدين" باعتبـاره المقصد الأول من مقاصد الشـريعة أي أنهم **عـالجوا الدولة من المنظـور الفقهي**، وليس من المنظـور السياسـي. وهو ما يتفق مع ما اضـطروا إليه من إطـراح معالجة الدولة معالجة سياسـية بعد أن هزمـوا أمـام الحكـام واقتصـروا على الفقه والعبـادات. ولعلهم أرضـوا ضـميرهم بـأن "حفظ الدين" يتضمن فيما يتضمنه الثورة على الظلم، والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، ولكنهم لم يصرحوا بذلك لأن المجال ما كان يسـمح لهم بـذلك. والتبس الأمر على من جاء بعدهم خاصة وأن المجتمع الإسلامي كان يتدهور بحيث أصبح مفهـوم حفظ الـدين هو إقامة الشعائر الدينية والمحافظة على ظواهر الفضيلة.

وظل هذا الفهم يتدحرج حتى وصل إلى الـدعاة الإسـلاميين الـذين إما أنهم كـانوا فقهاء بالفعل أو أنهم استمدوا أفكارهم من الفقه التقليدي ومن ثم كـان الفهم السـائد في الدعوات الإسلامية المعاصـرة للدولة الإسـلامية، أنها الدولة الـتي تقيم الصـلوات، وتقاوم الإلحاد والبدع التي يدخل فيها تبرج النساء وشيوع الفنون.

***

وهذا خطأ بالغ تاريخيًا، وأصوليًا وعمليًا، أما تاريخيًا، فلا خلاف أن المسلمين الأول ما أقـاموا دولتهم وسـيروا جيوشـهم لحمل النـاس على الصـلاة وحجب النسـاء في البيوت. لقد كان الجديد الذي تميزوا به عن أقرانهم العـرب، وعن الفـرس والرومـان،

أن الإسلام زودهم بالقيم الحضارية التي لم يكن لها حساب عند الآخرين فعرفهم على العـدل والمسـاواة والحريـة، والخـير والعمل الصـالح، والإيثـار والإنفـاق، وكـرههم في الظلم والاستغلال والأثرة والبخل والاستعباد للشـهوات. وكلل هـذا كله بالإيمـان باللـه، أصل هذه القيم، ومبدعها الذي كفل لها القداسة التي تصل للإيمان، والموضوعية التي تحـول دون التلاعب. وقد لا نجد في كتابـاتهم وأقـوالهم الـتي وصـلت إلينا شـيئًا بهـذا الأسلوب، لأن الأساليب تتبع العهود، ولكن مضمون ما فهموه هو ما قلنـاه وهـذا هو ما يخرج به أي واحد يقـرأ القـرآن مجـردًا فلا ريب أن قلبه سـينخلع مما وضـعه من وعيد للظلم والجـبروت واسـتعباد النـاس، وأن نفسه ستستبشر لما وعد به المؤمـنين من نعيم لقاء البذل والتضحية والإنفاق والعـدل والإيثـار وسـيتيقظ ذهنه من رواسب الآبـاء والأجداد والتقاليد والأوضاع وسيسير في الأرض لتتكشف له العوالم وآثار الأقدمين.

ولا يمس هــذا أن تلجأ النصــوص في بعض الحــالات إلى تجريد مثل "في ســبيل الله" أو "وجه الله" أو "لتكون كلمة الله هي العليـا" لأن هـذا في النهاية هو ما جـاء به الإسلام من فعل الخيرات وتجنب الموبقات. والمقصود بالتجرد ليس هو الفعل، لأننا لا يمكن أن نقــدم لله تعــالى ما ينفعه بالطاعة أو ما يضــره بالمعصــية، وإنما يمكن أن نتقرب إليه بطاعة أوامـره. والمقصـود بالتجريد هو خلـوص النية في العمل وأن يكـون صـادقًا فلا يبتغي به الكسب الشخصي أو الريـاء أو النفـاق أو الزهو لأن هـذه بـالطبع سـتكون لها انعكاسـاتها على سـلامة العمـل. ومع أننا قد لا نجد الصـيحات الانتهاضـية الشعبية الثورية على طريقتنا الخاصة في هـذا الزمـان، فـإن من يراجع كلام جعفر بن أبي طـالب أمـام النجاشي عنـدما سـأله عن الإسـلام، ومن يقـرأ كلام قـادة الجيش الإسلامي قبيل القادسية للقائد رستم، يلمس تمامًا إنهم فهموا الإسلام هـذا الفهم: أنه أمرهم بمكارم الأخلاق ونهاهم عن سفسـافها، وأنقـذهم من عبـادة الأوثـان إلى عبـادة الرحمن ومن جور الأديـان إلى عـدل الإسـلام، من عبـادة الحكـام إلى عبـادة الله وإن الإسـلام "يحِّسن الحسن ويقَّبح القـبيح"[4]. وأن المسـلمين كالجسد بعضـهم من بعض يجـير أدنـاهم على أعلاهم [5]. وهـذه الكلمـات المنقولة بنصـها تـبرز الوجه الاجتمـاعي والإنساني لدولة الإسلام، وأنه هو الذي يمثل امتيازها.

***

يتضح لنا إذن – من الناحية التاريخية – أن صـــورة الدولة في أذهــان المســلمين الأول، وكما وصفها القرآن الكـريم وطبقها الرسـول كـانت شـيئًا مختلفًا بـالمرة عمما تركته لنا كتب الفقه الإســلامي عن مضـــمون "حفظ الـــدين" وأنه إقامة الشـــعائر، ومحاربة البدع.. إلخ.

---

4 (?) وكما لاحظنا في مكان آخر، فإن النعمان بن مقرن عندما قال ذلك ببساطة "أنه يحسن الحسن ويقبح القبيح" حل مشكلة المعتزلة بأهون الأسباب وبأفضل الصور.

5 (?) هذا ما قاله ربعي بن عامر لرستم عندما سأله "أسـيدهم أنت؟"، فقـال "كلا، ولكن المسـلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم".

وأن عنصر القوة فيها لم يكن فيما جاء به الإسلام من صلاة أو صيام، فهمًا في كل الأديان. ولكن في القيم التي أبـدعت نمطًا جديـدًا من الدولة لم يكن للبشـرية عهد بهـا، وكانت هذه القيم هي التي كفلت للدولة الإسلامية الانتصار والازدهار.

***

ومن الناحية الأصولية فـالمفروض أن "حفظ الـدين" لا يـدخل في الشـريعة، ولكن في العقيدة، لأن الشـريعة إنما تخص المجـالات السياسـية والاجتماعية والاقتصـادية وما يتصل بالناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض. أما ما يتصل بالله فهو إلى العقيدة أقرب وأمس، وأمور العقيدة من صلاة أو صـوم أو حج والإيمـان بالله والرسـول واليـوم الآخـر.. إلخ – تقوم على الإيمـان إلى يعتمد على الحكمة والموعظة الحسـنة، ولا يمكن أن يـدخل فيه قسر. ولما كـانت خصيصة الدولة الممـيزة لها عن غيرها من التنظيمـات أنها هيئة قمـع، وأن في يدها الجيوش والسـجون والمحـاكم والبـوليس، فـإن هـذه الخصيصة لا قيمة لها في مجال العقيدة، بل إن أي زج بها في مجال العقيدة سـيلوث العقيـدة. فهـذه القـوى، قـوى القمـع، لا تغـرس فضـيلة أو تنمي أيمانًا أو تقتلع شـهوة فالشـهوات في أعمـاق النفوس تجري من الإنسان مجرى الدم، وإذا أغلقتها الدولة فسيلجأ الناس إلى التحايـل، وفي بعض الدول الإسلامية "المغلقة" يسافر الكثيرون إلى أوروبا شهرًا أو أثنين كل عام ليرتوا من شهواتها ويعبوا ما يكفيهم جفاف بلدهم من العام إلى العـام. ومن لم يسـتطع السفر فإن التليفزيون يقدم ما يشبعه.

ومن الناحية العملية، فإن الدولة هي أعجز الهيئات والمنظمات في مجال العقيدة والفضيلة. فما قامت العقائد بالسيف ولا تبقى بالسـيف، وإنما تقـوم بالإيمـان، وتزدهر في منـاخ الحرية وتبقى وتتأصل في النفـوس بحكم صـلاحيتها الموضـوعية، وأنها تمثل قيم الحب والخـير والجمـال والعـدل والحريـة، وقد انتشر الإسـلام في بلاد لم تطأها خيول الجيـوش الإسـلامية، ولكن ارتفعت فيها أعلام الصـوفية، أو المعـاملات السـمحة لتجار.. أكثر مما دخلها بالغزو. وقد انحسر الإسـلام عن أسـبانيا الـتي فتحها طـارق بن زياد وموسى. بن نصير، ولكنه ظل في الملايو وأندونسيا التي لم تـدخلها الجيـوش، بل يمكن أن نعـــود إلى الأيـــام الأولى للبعثة النبوية فنقـــول مع عائشة "فتحت المدينة بالقرآن" وكان هذا هو الفتح الأعظم، ولم يكن بالسيف، ولكن بالقرآن.

وقد يـذكر هنا أن مما ضـلل بعض الـدعوات الإسـلامية سـوء فهم الأثر "يـزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن" وحملهم له على غير محمله والفهم السليم للإسـلام يضع الأثر موضعه ويجعله مخصوصًا بفئـات شـاذة، شـاردة، منحرفـة، يكـون على الدولة أن تتعامل معهم بوسائلها.

***

ومن الأسباب التي أدت إلى العجز عن تقديم الرؤية المنشـودة للدولة الإسـلامية أن بعض الـذين قـدموا هـذه الرؤية كـانوا من الفقهـاء الـذين لم يكن أمـامهم مفر من الالـتزام بالتصـور الفقهي. فهكـذا تعلمـوا وعلى هـذا شـبوا. وكـان البعض الآخر من الضـباط والعسـكريين الـذين هم بحكم تـربيتهم العسـكرية آخر من يصـلح لوضع رؤية الدولة الإسـلامية إلا إذا جعلنا الـوطن ثكنـة، والشـعب جيشًـا. وفي دول قبلية كـانت الوسـيلة لتـدعيم الدولة الناشـئة هي أن يصـهر رئيسـها إلى القبائل بحيث يوجد نسـبًا ويضمن ولاء.

***

أين المفكرون والمثقفون:

لعل جمال الأفغاني كان أقدر الجميع على تقديم الرؤية المثلى، ولكنه – ربما لطبيعته النفسية الثائرة على الظلم – رأى أن عليه أن يهدم قبل أن يبني فشغل نفسه بهدم معاقل الحكم المطلق والاستبداد في مصر، وفارس ورزق حظًا من النجاح، ولكن هذا شغله عن قضية بناء الدولة، ولم يضع تصوره عن الدولة، ولكن يمكن أن نستخلص أفكاره الرئيسية من كتاباته، فهو على نقيض ما ادعى المستشرقون لم يكن يهدف إلى "جامعة إسلامية" أو "خلافة إسلامية" أخرى ولكنه كان يدعو إلى "كومنولث إسلامي" أو حتى غرس الحكم الإسلامي في دولة واحدة تكون البداية وتصور أن السبيل إلى ذلك هي الثورة الشعبية التي تقودها النخبة المؤمنة، وليس ما يقدمه الحكام. وبالنسبة للحكام، فإنه أراد "تاجًا بدون رأس، أو رأسًا بدون تاج" أي ملكًا دستوريًا يملك ولا يحكم أو رئيس جمهورية لا يدعي الملك أو التاج.

أما محمد عبده فقد تحول من الثورية إلى الإصلاحية في أعقاب فشل ثورة عرابي ولم يدع يشغل نفسه ببناء الدولة، ولكنه بإصلاح الدولة، وربما شغل عن هذه أيضًا بتنقية العقيدة من الغشاوات التي زحفت عليها.

وقدم لنا "الكواكبي" صورة لملتقى شعبي للمسلمين في مختلف دول العالم "مؤتمر أم القرى" استعرض وجوه النقض، وكيف يمكن إصلاحها وكان قد ندد في كتابه الأول "طبائع الاستبداد" بالحكم الاستبدادي المطلق، ولكن لم يضع لنا تصورًا محددًا للدولة الإسلامية.

وأعاد حسن البنا الفكرة الجهادية إلى الدولة الإسلامية بعد أن كادت إصلاحية محمد عبده أن تنسيها وأراد صيغة تجمع بين النهج الديمقراطي والطبيعة الجهادية للدولة الإسلامية. والقضية في حسن البنا هي أن اغتياله المبكر – وبدون انتظار – وهو في قمة العطاء، حال دون أن يقدم إضافته كاملة.

وتوفر للدكتور حسن الترابي عناصر لم تتوفر لغيره فهو أصلاً ابن الإخوان المسلمين، على يديهم تدرب وفي مدرستهم نشأ. فألم بخبراتهم ثم سار حيث وقفوا ورُزق ملكات شخصية، ومواهب ومستوى ثقافي إسلامي وعصري. ولعله يكون أقرب الزعماء الإسلاميين إلى التصور الأمثل للدولة الإسلامية.

وخلال دراستنا للدعوات الإسلامية اكتشفنا أن زعماء الدعوات الإسلامية الذين يتبعهم الجماهير يصبحون هم أنفسهم أتباع الجماهير! بمعنى أن الزعيم الذي يتوصل بحكم الدراسة والتأمل وسعة الإطلاع والمقارنة إلى فكر أكثر تقدمًا من المستوى الذي عليه الجماهير أو الحالة النفسية التي تسمح لهم باستيعابه، يتردد في إعلانه لأن إعلانه سيكون على حساب الطاعة العمياء والتسليم، وقد يفسح مجالاً لأعدائه للكيد والنقد. وقد عزل عمر بن الخطاب بعض ولاته لأنه على ما قال – "كرهت أن أحمل الناس على فضل عقله". وهذا ما يؤدي بنا إلى نتيجة قد تثير الدهشة، **هي أن زعماء الهيئات والدعوات الإسلامية قد لا يكونون أقدر الناس على إعلان الصورة المثلى للدولة الإسلامية لارتباطهم بمستوى جماهيرهم وفهمها التقليدي، وأن الذي يمكن أن يقوم بذلك هم المفكرون. ومرة** أخرى أننا قد نجد المفكرين ولكنا نجد لدى معظمهم وشائج تربطهم بالنظام الحاكم أو الهيئات القائمة أو غيرها من الالتزامات التي تحد من حريتهم. **وتصل المأساة إلى قمتها. فعندما نجد أخيرًا المفكر الحر نجد أنه لا يستطيع توصيل فكرته إلى**

الـرأي العـام لأنه مـادام حـرًا فيغلب أن تعـزف عنه الهيئـات والمؤسسـات القائمة، ومن ثم تقيم حوله سدًا من التعتيم، ولا يستطيع فكره أن يصل إلى النـاس أو أن يمهد الطريق أمـام زعمـاء الهيئـات ليجـددوا. ونحن من سـنة 46 نقـول "لا تؤمنـوا بالإيمـــان. ولكن آمنـــوا بالإنســـان"[6] أو "الإســـلام يريد الإنســـان بينما يريد الفقهـــاء الإســـلام"[7] دون أن نجد صـــدى في حين أن هـــذه هي أهم مفـــاتيح التجديد في فهم الإسلام.

لابد من نظرية:

استعرضنا حتى الآن تجـارب الـدول الإسـلامية في العصر الحـديث، ورأينا أن من أبرز أسباب فشلها العجز عن تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية للملابسـات الـتي أحاطت بقياداتها. فإذا أردنا أن ننتقل من هذا الشق السلبي إلى شق إيجابي، فإن أول خطوة – ولعلها أهم خطوة- هي إرساء نظرية إسلامية عن الدولة.

وقد أشرنا إشـارة عـابرة في فقـرة سـابقة إلى أهمية النظريـة: والأمر يتطلب – فيما نرى – مزيدًا من الإيضاح.

فالنظرية هي مجموعة المبادئ والقواعد والتوجيهات الـتي تنبثق من أصل واحـد. ويتـــوفر لها بحكم هـــذا الأصل الواحد التناسق والانســـجام، ويســـتبعد منها التضـــارب والتضاد والتلفيق، وعادة ما تكون من إبداع عبقـري يـرى مـالا يـراه معاصـروه، ويصل إلى ما لم يصلوا إليه، ويسـتطيع أن يجمع السـابقين عليه والمعاصـرين له في صـياغة واحدة محكمة، ثم يضاف إليه – مع الزمن – أرتال من المفكرين.

خذ مثلاً النظرية الاشتراكية على اختلاف أطيافها – فقد كان لها دعـاة مع بـدايات القـــرن التاسع عشـــر، مثل روبـــرت أوين وبـــرودون وفوريه وبلانكيـــه.. إلخ، ثم ظهر ماركس وانجلز وعاصره في ألمانيا لاسال ولينبخت وبيبل وكاوتسكي وبرنشـتين وجـاء بعـدهم روزا لوكسـمبرج وكلارازاتكن، وظهر في روسـيا القصـية بليخـانوف – أول من نقل أعمال ماركس إلى الروسية، وأكسلرود، ثم مارتوف ولينين وتروتسكي – وقبلهما – باكونين وكروبتكين وبعدهما بخارين ومـدام كولونتـاي. وفي انجلـترا ظهر كيرهـاردي ووليم مورس ومعهم سيدني وبياترس وب وكـول. وفي فرنسا ظهر جـوريس وجـيزده وفي إيطاليا تـــوراني وانجليكا بالابنوفا وفي بلجيكا والنمسا فاندروفيلد وادلـــر، وفي الولايات المتحدة دانيل دي ليون..

وكل واحد من هؤلاء الذين ذكرناهم من بـاب المثـال لا من بـاب الحصـر، مفكـر، ومؤلف ومجتهد أو قل هو شـيخ مدرسة داخل الإطـار العـريض للاشـتراكية وله العديد من المؤلفات والمراجع والعديد من الدعاة والمريـدين، ولا يقتصر الأمر على هـؤلاء إذ يوجد بجـانبهم كتيبة من الفنـانين والأدبـاء والشـعراء الـذين غطـوا السـاحة الأوروبية

6 [?] انظر فصل "فهم جديد للدين" من كتاب ديمقراطية جديدة للكاتب وقد صـدر سـنة 1946 ص 52.

7 [?] انظر باب "عندما تتصافح اليدان" من كتاب "كلا ثم كلا" للمؤلف – 1994 ص 249.

والأمريكية بالكتابات الاشتراكية بحيث تأثر المجتمع الحديث كله بدرجات متفاوتة بفكر اشتراكي.

وجـاوزت الاشــتراكية الحــدود الأوروبية حــتى وصــلت إلى آســيا وأفريقية فظهر مــاوتس تــونج ونهرووهوشي منه وقضت على المشــاعر "الشــوفونية" فعنــدما كــانت الحرب مشتعلة ما بين اليابان وروسيا (1904/ـ 1905) وقف كاثـامي منـدوب اليابـان يصافح بليخانوف مندوب روسـيا على منصة مـؤتمر الدولية الثانية (امســتردام 1904) .[8]

وخذ الرأسـمالية. ففي فرنسا كـان لها كينـاي، ثم ظهر آدم سـميث وعرضـها في كتاب ثروة الأمم 1766 عرضًا سائغًا دلل فيه على حسنات حرية العمل، وسـوءات أي تقييد أو تدخل، وأبرز آليات السـوق وكيف تعمل ثم تنـاول الرأسـمالية ريكـاردو، وميل وبنثام وغيرهم في بريطانيـا، وعشـرات أو قل مئـات الكُتـاب والاقتصـاديين في ألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة إلخ.

وجاء السياسيون، فأقاموا الديمقراطية على الأسس الرأسمالية نفسها "الحربـة" ونقلوها من المجال الاقتصـادي إلى المجـال السياسي حيث يحل "الحكم" محل "وازع الربح" والأحزاب محل الشركات... إلخ.

فإذا أريد قيام دولة إسـلامية، فلابد من نظرية إسـلامية تقـوم عليها الدولة وتعمل باستلهامها وفي ضوءها.

إننا لا نكـاد نعـثر – فيما بين يـدينا – على تنظـير بمعـنى الكلمـة، وإنما نجد تلفيقًا يجمع بين أفضل ما في الرأســمالية والاشــتراكية ويوظف أصــحابه عــددًا من الآيــات والأحاديث لمساندتهم.

التلفيق لا يجدي، ومحكوم عليه بالفشل، لأنه محاولة للجمع بين الأضداد.

والمبادئ المجردة أيضًا لا تجدي. فمثلاً ما معنى "إقامة ديمقراطية سليمة" الــتي جاءت ضمن المبادئ الستة لحركة 23 يوليو سنة 52 في مصر. كيف يمكن إقامة هذه الديمقراطية وما هي هـذه الديمقراطيـة. هل هي الديمقراطية الشـعبية الـتي تـدعيها النظم الاشتراكية أو هي الديمقراطية البرلمانية التي توجد في الـدول الرأسـمالية وما هو الموقف من الأحــزاب. ومن طريقة الانتخابــات وســلطة المجلس.. إلخ. إن جملة "إقامة ديمقراطية سليمة" لا تهدينا في هذا كله، ويمكن أن تقـوم المعـارك حولها وأن يدعيها أهل اليسار وأهل اليمين معًا.. لأنه مبدأ مجرد.

ما يمكن أن يسمح به هو أن نظرية إسلامية لابد وأن تختلف عن نظرية ماركسـية أو رأسـمالية إلخ.. ليس فحسب في اتجاهاتها ولكن في بنيانها نفسـه. فكل النظريـات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وضـعتها أوروبـا، وضـعتها بتجاهل "اللـه"، وفي ظل هــذا التجاهل أخــذت تمــرح وترتع وأخذ الفكر ينطلق يمينًا ويســارًا، يقيم الأبنية ويفـرض الفـروض ويتقصى الوقـائع ويربط بين الأسـباب والمسـببات.. إلخ، مقيمًا كل شيء على الواقـع، مسـتبعدًا تمامًا كل ما تثـيره القيم والمثـل. فـإذا أريد إقامة نظرية إسلامية. فيفترض أن يختلف الأمـر. وكما أن منظـري الاشـتراكية يستشـهدون بـأقوال مــاركس وإنجلز ولا يعــاب عليهم هــذا، فــإن النظرية الإســلامية لابد وأن تعتمد على شواهد من القرآن والحديث، ولابد أن يكون "الإيمان باللـه" في عمقها وصـدارتها، وإلا فإنها لا تكون "إسـلامية" ولا ينفي هـذا أن تسـتخدم النظر العقلي والبحث العلمي في الإطار الواسع للإيمان الإسلامي. ومن واجب الباحث المسلم أن يرفض تمامًا أي مبـدأ

---

8 [?] انظر كتابنا لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة ص 20.

أو حكم يخالف العقل مخالفة صريحة، لأن الإسلام نفسه يأمر بذلك.

ولا يعيب النظرية الإسلامية أن تكون إسلامية أو أن ترصع فصولها بآيات وأحـاديث فالإسـلام لا يقل عن الاشـتراكية أو غيرها وما يعيب النظرية الإسـلامية هو أن تكـون مهوشة أو تقـوم على مفـاهيم تراثيـة، لأن النظرية الإسـلامية يفـترض أن ترتكز على القرآن نفسه، وأن يكون القرآن – وليس السـنة – هو الأسـاس، وإنما أوتي المفكـرون الإسـلاميون من ناحية أنهم اعتمـدوا على السـنة بالدرجة الأولى، ثم على الأحكـام السلفية التي خضعت لمناخ عصرها.

وأصـطحب التعلق بفكر الأسـلاف والجـري وراء حكم أحد الأئمة بـالعزوف عن الثقافات الحديثة بفكرة أنها ليست "إسلامية" وفات المفكرين الإسلاميين المعاصـرين أن القرآن والحـديث يـأمران بالتمـاس الحكمة حيثما كـانت، وطلبها "ولو في الصـين" والمفروض مع هذا الأمر أن يحرص المفكر المسلم – وهو يضع نظرية إسـلامية للدولة – أن يلم بكل النظم السياسـية، بـدءًا من قـدماء المصـريين حـتى النظم السياسـية المعاصرة. وعليه أن يعلم أنه وهو يقوم بذلك إنما يطبق التزامًا إسلاميًا وعنـدما يقـول القرآن "إن الدين عند الله الإسلام" فـذاك لأن الإسـلام يسـتوعب كل الأديـان وعنـدما نؤمن بأن الرسـول هو آخر الرسـل، فإننا نحتـوي كل الرسل السـابقين بل لعلنا نكـون أقـرب إلى بعضـهم من أتباعه مصـداق ما قـال الرسـول عن موسى "نحن أولى به منهم".

فهذا الفهم الذي يتفق مع أصول الإسلام وأوامره هو الـذي يكفل لنا الإلمـام – أو قل الإحكام – بكافة النظم السياسية وأبعادها وقضاياها، وهو الذي يخلصنا من المـأزق الـذي وقع فيه بعض المفكـرين الإسـلاميين الـذين لم يفهمـوا "العلم قـال الله قـال رسـوله.."[9]. فـإن الله والرسـول أمـرا وأكـدا السـعي وراء الحكمة والحـرص على المعرفة والسير في الأرض وتعرف أخبار السابقين.

يفترض أذن في النظرية الإسلامية عن الدولة أن تقـوم على نصـوص من القـرآن الكريم بالدرجة الأولى، وأن يتوفر لها إحكام البنيان النظـري، بمعـنى أن لا تكـون ذات طـابع تلفيقي أو تـراكمي، وأنها وإن اختلفت في البنيـان والاسـتدلال عن النظرية الأوروبية، فإنها لا تتناقض معها ضرورة. لأن قاسمًا مشـتركًا يجمع بينهما هو العقلانيـة. والاختلاف هو أن عقلانية الإسـلام تمتد إلى ما بعد الحيـاة الـدنيا، بينما تقف العقلانية الأوروبية عند الحيـاة الـدنيا، وأن العقلانية الإسـلامية ذات صـيغة خـيرة في حين أن العقلانية الأوروبية محايـدة، ليس لها لـون وقد تسـتخدم في الخـير، كما تسـتخدم في الشر.

وهناك بالطبع كتابات عديـدة عن الدولة الإسـلامية وبعضـها ثمين ونفيس، سـواء كانت هذه الكتابات تأريخًا أو عرضًا أو نقدًا.

ولكننا قد لا نجد "نظرية إسلامية للدولة".

9 [?] شعار السلفيين ونظرتهم إلى العلم.

في كتابنا "رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامي"[10]. عرضنا نظرية دعوة العمل الإسلامي التي تقدم رؤية الإسلام للحياة – ومن ثم للدولة والمجتمع الإسلامي – آخذة نقطة الانطلاق من الاستخلاف الإلهي للإنسان، كما جاءت به آيات سورة البقرة (30 – 37) وغيرها، فقد شاء الله تعالى أن يجعل آدم خليفة في الأرض وهذه الواقعة تتضمن مبدأين: الأول كرامة الإنسان، فما كان الله تعالى يضفي على الإنسان كرامة أعظم من أن يجعله خليفته على الأرض، وعلى هذا فيفترض في الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي أن تكون كرامة الإنسان بارزة ومحققة في كافة المجالات وهذا أمر لا نكاد نجد له أثرًا في تجارب الدولة الإسلامية في العصر الحديث التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذا البحث. والمبدأ الثاني الذي تتضمنه واقعة استخلاف آدم هو العمل، لأن مضمون الاستخلاف هو استعمار الأرض وأحياء مواتها واستخدام موادها.. إلخ. وتوضح الآيات السبب الذي جعل الله تعالى يستخلف آدم. وليس الملائكة. إن السبب هو أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها أي أعطاه مفاتيح المعرفة والعلوم ولم يفعل ذلك للملائكة فأصبح آدم يعلم مالا يعلمون، وأمر الله تعالى الملائكة بأن يسجدوا لآدم لهذا السبب. هذه الواقعة تدل على قداسة العلم والمعرفة وأن رفعة الإنسان ترتبط بها، وكأن سجود الملائكة لما علم آدم وجهلوه تصوير لاستسلام قوى الطبيعة، وطاقاتها لعلم الإنسان. وفي سياق متصل ومباشر تظهر الآية رفض إبليس السجود لآدم لظنه أنه أفضل من آدم "خلقتني من نار وخلقته من طين" وأن الله تعالى عاقبه بالطرد فطرد من الجنة ونزل إلى الأرض مع آدم ليكون عدوًا لهو يظهر كقوة تمثل الشر. وقد سمح الله تعالى بوجوده، بل وباستخدامه لقواه العديدة: لإغواء الإنسان، ولكن الله تعالى سلح الإنسان بالعقل وبالدين. وأصبحت الحياة صراعًا بين الخير والشر، بين الأديان والشيطان. ولا يكون لهذا الصراع من معنى إلا عند توفر حرية الإختيار للإنسان، ﴿**نَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس 7-10] ﴿**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ**﴾ [البلد 8-10] **.**

وقد يسخر مفكر "علماني" من فكرة الاستخلاف ويرى أنها فرض لا أصل له، لأنه لا يـؤمن بـالوحي، ونحن نقـول له إن مضـمون الاسـتخلاف يتفق مع مضـمون التطـور والانتخاب الطبيعي الذي جـاء به داروين والصـراع الجـدلي الـذي قـام عليه فكر هيجل وماركس لأنهما معًا (فكرة الاسـتخلاف وفكـرة التطـور والصـراع) ينتهيـان إلى سـيادة الإنسـان بحكم ملكاته ومواهبـه، واسـتطاعته تسـخير طاقـات الطبيعـة، وهو ما يقوله القـرآن بلغة الخطـاب الـديني الـذي يختلف عن لغة الخطـاب العلمي ولكنه ينتهي إلى النتيجة نفسها. وقد تختلف أدوات البحث في الـدين عنها في العلم ولكنها لا تنتهي إلى نتائج تضاد ما يمكن أن يصل إليه العلم اليقيني.

وقد يسأل سائل، ولماذا هذا كله؟ والـرد لكيلا تكـون الحيـاة تجربة بلهـاء، وليوجد بين الملائكة التي تمثل الـبراءة، والشـيطان الـذي يمثل الشر كائنًا يسـتطيع أن يختـار طريقة وأن يؤثر الخير على الشر، ويقاوم الأغراء ويصمد للإرهـاب.. إلخ. وبهـذا يصـبح لحياته مبرر، كما يوجد معنى للحياة نفسها.

وما يعنينا فيما نحن بصدده هو الحرية، وإنها مقوم من مقومـات الحيـاة والمجتمع والدولة في التصوير الإسلامي.

وبهذا نخلص إلى دولة قائمة على الاستخلاف الإلهي للإنسـان، ومنبثقة من طبيعة التصـوير القـرآني للحيـاة الإنسـانية، ومقوماتها هي كرامة الإنسـان والعمل والعلم والحرية ينظمها وينسق بينها العدل.

---

10 [(?)] أصدرته للمؤلف دار الفكر الإسلامي بالقاهرة – 1992.

وقد يوجه نقد كثير لهذه النظريـة، ولكنه لا يـدخل فيه أن هـذه المقومـات ليست من الإسـلام، إنها منقولة نقلاً عن الآيـات القرآنيـة، وما قـدمناه هو تفسـير لهـا. كما لا يمس أي نقد أنها في مجموعها أصلح ما يمكن أن تقوم عليه دولة، وأنها قامت بالفعل في دولة النبوة ودولة الخلافة.

تحديات أمام الدولة الإسلامية:

إذا رفض تصور دعوة العمل الإسلامي الذي قدمنا آنفًا فسيكون على دعاة الدولة الإسلامية مجابهة هذه التحديات:

1- كرامة الإنسان:

هذه قضية أنسـيت تمامًا في معظم الكتابـات عن الدولة الإسـلامية، وأحل محلها "العبودية للــه" كما أنســيت عمليًا في تجــارب الــدول الإســلامية الحديثة فــالمواطن المسلم يكاد يكون "شيئًا" بل ويكـاد يكـون أرخص الأشـياء. ولا داعي للمماحكة فهـذه هي الحقيقة المؤلمة الواقعـة. ولابد أن تتغـير هـذه الصـورة، فتقـوم الدولة الإسـلامية على أساس كرامة الإنسان التي قررها الإسلام عندما جعل الله تعالى الإنســان خليفته على الأرض، ولابد أن يتم هذا عمليًا، وأن يضم "جسم" الإنســان الــذي يجب أن يحفظ من الأذى و "نفس" الإنسان وفكره وضميره [11].

ويمكن للدولة الإسلامية أن تسترشد بتطبيقات هذا المقوم في الـدول الأوروبيـة. والنقص الرئيسي في هــذه التطبيقــات هو أنها ليست "موضــوعية" بحيث تنطبق على الجميع إذ يغلب أن يتمتع بها تمامًا مواطنو الدولة، وتنتقص بالنسبة للآخرين.

2- قضية الحرية:

لا نجد في الكتابات الإسلامية تأصيلاً لمفهوم الحرية. ولما كان الفهم – السلفي – التقليدي – هو السائد فمن الطبيعي أن يكون هناك عزوف عن الحرية، وأنها باب البدع والأهواء. وما يتردد في الكتابات الإسـلامية الحديثة عن الحرية يجب أن يؤخذ بحـذر، إذ أغلب الظن أن المقصـــــود به "حـــــريتهم" وليس حرية الآخـــــرين. وقد امتحن الفكر الإسلامي في قضية الردة، كرمز لحرية الاعتقاد فسقط سقوطًا شـنيعًا، وكـرر ما قاله السلف..

ومن المعلوم ضرورة جحد...

من ديننا يقتل كفرًا، ليس حد!!

ولعل الوحيد الذي يمكن اسـتثناؤه من هـذا هو "الغنوشــي" الـذي نجد في كتاباته إيمانًا بالحرية بالدرجة المطلوبة. وقد تساورنا الشكوك في مدى صـدقها الموضـوعي. لأن بعض مواقف كاتبها قد تتعارض مع مضمونها. ولكن من حقه أن نذكر له ما سـجله عن الحرية.

لقد آن للمفكرين الإسلاميين أن يعلموا أن أفكــارهم عن تقييد حرية الفكر – كائنة ما كـانت – تخـالف – فيما نـرى – مخالفة تامة صـريح القـرآن. وأنهم إذا تمسـكوا بها فسيجنون على الدولة الإسلامية المنشودة، لأن أي نظام يراد له البقــاء، لابد وأن يتقبل

---

11 [?] لقـد عالجنـا مضـمون كرامـة الإنسـان في كتابنـا رسـالة إلى الـدعوات الإسـلامية، بشـيء من التفصيل [ص 264 – ص 270]. وطبع في رسالة خاصة حملت اسم "ركائز الأصولية الإسلامية".

الحرية. وقد كان نقص الحرية هو السبب الرئيسي لانهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان لديه كل شيء – إلا ها.

ويدخل في مضمون الحرية، حرية الفكر والاعتقاد وطبع الكتب وإصدار الصحف وتأليف الأحزاب والنقابات والجمعيات والنوادي وحرية الاجتماعات العامة والمعارضة السياسية. ويجب أن لا يفتات القانون بحجة التنظيم على جوهر هذه الحريات.

3- العدل:

إن ضمور الإحساس بالعدل وضحالته في الفكر السياسي الإسلامي، وفي تطبيق تجارب الدولة الإسلامية – هو من الظواهر التي تستلفت الانتباه. لأن العدل هو رمز الإسلام، والمفروض أن يكون المسلمون هم أول الدعاة للعدل. وقد نهض الإسلام أول مرة بفضل إيمان "المستضعفين" ولا نرى مبررًا لا نتقاص دور العدل – أو حتى إغفاله – في الدولة الإسلامية إلا الطبيعة البرجوازية لمعظم الدعاة الإسلاميين التي تنأى بهم عن قضية العدل.

ويفترض أن يكون العدل أصلاً في قيام الدولة ووضع القوانين والفصل بين فئات الشعب بحيث يحمي الضعفاء والفقراء والمحكومين من عدوان الأقوياء والأغنياء والحاكمين، وأي قرار أو حكم يجافي العدل، يعد هذا طعنًا في "أصوليته" يستوجب نقضه.

4- المرأة:

ما من مجال تحكمت فيه التقاليد باسم الإسلام، كالمرأة. فقد استغلت بعض التوجهات العامة عن الزي والآداب والزينة لإقامة سجن للنساء ولإبعادهن عن الحياة العامة وحرمانهن من التعليم والعمل، فضلاً عن الاختلاط بالرجال. وامتزجت التقاليد الموروثة – بالميول "الرجالية".

ولا جدال في أن المرأة في الدعوات الإسلامية المعاصرة تتخلف عما كانت عليه أيام الرسول فهي لا تغشى المساجد لأداء الصلوات والأعياد، ولا تشترك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – كما أراد لها الله. ولا تظهر زينتها للفئات الاثنى عشرة التي عددها القرآن، وقد لا تُمنح نصيبها الشرعي من الميراث. وقد حضرنا ندوات في الولايات المتحدة، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وسويسرا عزل فيها النساء عن الرجال، أو أقصين إلى مكان بعيد تصلهن بالمحاضرة دوائر تليفزيونية. وقد كان النساء يشهدن الصلوات في المسجد، ويتحدثن إلى الرسول، ويتحدث إليهن الرسول وكانت المرأة ترد على عمر بن الخطاب فلا يملك إلا التسليم لها.

ولكن شيئًا من هذا لا يرد في الممارسات الحديثة للدعوة الإسلامية. وقد تحكمت عوامل "سيكلوجية" وتقليدية بحيث أصبحت قضية المرأة إحدى "عقد" الدعوات الإسلامية، وأصبح الحجاب رمزًا للإسلام!

لقد تحدث القرآن عن الآداب العامة حديثًا يعم الرجال والنساء ونهى النساء أن يكشفن عن صدروهن أو أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وهي توجيهات توحي الحشمة، قدر ما توحي بأنها قدمت لزي معين وعادات معينة. ومعلوم أن قضايا الزي والأكل والشرب والعادات في العلاقات الاجتماعية.. إلخ. لا تدخل في باب العقيدة، وإنما تخضع لمضمون "العرف" الذي اعترف به القرآن عندما نص على "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

فدائرة الزي تخضع للعرف الذي يتغير بطبيعته مع تغير الأذواق والمفاهيم. أما دائرة الحقوق والواجبات فقد سوى فيها القرآن بين الرجال والنساء بآية صادعة

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ [البقرة 28] ومعروف أن هذه الدرجة هي درجة القوامة المنزلية التي لا علاقة لها بالحقوق والواجبات العامة التي تحكمها آية المساواة.

ولا يخالجنا شك في أن هذا الحديث المتكرر عن الحجاب والأهمية المزعومة التي تعطي له [(12)] هي من باب الطفولية الفكرية والتشنج الذهني وأنها من أكبر عوامل تخلف المجتمع الإسلامي وتشويه صورته.

5- الفنون والآداب:

لم يستطع الفكر الإسلامي أن يحدد موقف الدولة الإسلامية من الفنون والآداب. فقد سبق إلى الأذهان أن هذه الفنون والآداب [سينما – مسرح – تليفزيون.. إلخ] تفتح الباب أمام إشاعة الفحشاء والمنكر واستثارة الشهوات. وارتؤي أن الموقف "الطبيعي" هو إغلاق هذا الباب ومن ذا يمكن أن يدافع عن إباحة الفحشاء في دول إسلامية؟؟.

الأمر أكثر تعقيدًا، وله من الأبعاد والجوانب ما يصبح معه التصور السابق تصورًا ناقصًا.. فحتى عندما نسلم بأن بعض الفنون والآداب قد تثير الشهوات، فإن هذا لا يتطلب بالضرورة إغلاق باب هذه الفنون، لأن هذا الإغلاق قد يؤدي إلى مفاسد أكبر مما كانت موجودة قبله.

وقد يمكن للمفكرين الإسلاميين أن يستلهموا الصورة التي عرضها القرآن الكريم، وأشرنا إليها للإبقاء على إبليس والإذن له في فتنة الإنسان وإغوائه حتى يوم الدين – ليعرفوا أن المجتمع الإنساني ليس هو الذي تنتفي منه أسباب الغواية، ولكنه الذي تنتصر فيه الهداية على الغواية، الإرادة على الهوى، ولكي يتحقق هذا يصبح وجود هذه الغواية أمرًا لازمًا.

كما سيجدون الحل في الوسيلة التي وضعها القرآن وهي "المقاصة" "واتبع السيئة الحسنة تمحها" "إن الحسنات يذهبن السيئات" وعفو الله تعالى عن "اللمم" على اختلاف في التفسير تفسح مجالاً كبيرًا للتأويل، والقاعدة التي وضعها الرسول.. "ساعة... وساعة".

وهذه كلها "مؤشرات" تفترض وجود أسباب الغواية الصريحة – إن لم تتطلبها – وتحدد الموقف تجاهها، وليس هو المنع، ولكن المجاهدة "ليميز الله الخبيث من الطيب" فالأمر أذن أهون مما يتصورون.

وعلى كل حال فيمكن للدولة أن تكل كل ما يتعلق بالفنون والآداب التي يظن أنها من أسباب الغواية والشهوات إلى الهيئات المدنية (مجلس محلي – بلدية.. إلخ) بحيث تنفض اليدين منه، وهو أسلوب موجود في كثير من الدول حيث نجد الإذاعة والتليفزيون إما في يد شركات تجارية أو هيئات مدنية. وأهمية هذا التحول من الزاوية الإسلامية أن الشريعة تفرق بين ما يحدث بين الناس، وما يرفع إلى السلطان. والحديث معروف "تعافوا الحدود فما بلغني فقد وجب". وهناك شواهد أخرى عديدة تدع الحكم على التصرفات بين الناس إما إليهم، وإما إلى الله تعالى، ما لم ترفع للحكومة.

أما فكرة مصادرة الفنون بحجة إثارتها للشهوات، أو حتى البحث عن فنون بديلة لا يوجد فيها عنصر الإثارة، فأمور غير مجدية. ففي حال المصادرة سيبحث الناس عن

---

12 [(?)] في بعض الحالات – كما في كفاح الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي – أخذ الحجاب صفة رمزية وأصبح كما لو كان علامة من علامات الكفاح. ويفترض بالطبع أن تنتهي هذه الصفة مع انتهاء معركة التحرير.

وسائل بديلة. وفي حالة الفنون التي تخلو من عناصر الإثارة، فإن الناس ببساطة ستتجاهلها لأنهم يستطيعون أن يجدوها أفضل في الكتب. ولديهم القرآن الكريم الذي يمثل قمة الإعجاز الفني والأدبي، ولكن البشرية لا تعيش على طعام واحد ولا هي تخلص من تجاذب الشهوات "وخلق الإنسان ضعيفًا".

تطبيق الشريعة:

تطبيق الشريعة من التحديات التي رزقت شهرة كبيرة حتى أصبحت كأنها رمز الدولة الإسلامية. والشريعة – كما نراها – هي جماع القانون فيدخل فيها القانون الدستوري وما يتفرع عنه من نظم الحكم والسلطة والسياسة، ويدخل فيها القانون الاقتصادي الذي ينظم المعاملات المالية والاقتصادية والإنتاجية ويدخل فيها القانون المدني الذي ينظم التصرفات المدنية على اختلافها ويدخل فيها أخيرًا القانون الجنائي. والقانون الجنائي في الشريعة الإسلامية ينقسم إلى قسمين؛ القسم الأعظم يطلق عليه "التعزير" وهي عقوبات ترك للقاضي حرية التوصل إليها. والقسم الأصغر وهو عقوبات نص عليها بالفعل في القرآن الكريم، وفي بعض الحالات، في السنة ومن ثم يطلق عليها "الحدود" أو العقوبات المقدرة.

فالشريعة مجال كبير لا يمثل القانون الجنائي إلا جزءًا صغيرًا منه ولا تمثل الحدود إلا جزءًا صغيرًا من هذا الجزء الصغير، ومن ثم فإن هذا الدوِّي الذي تثيره الحدود لا يتناسب مع حقيقتها، وقد أخذ، مع المرأة والفنون، طابعًا نفسيًا مزاجيًا تعصبيًا تجعلها "شعارات" أكثر منها حقائق، ويعطيها طابع "التشيؤ" أن لم يكن "التوثن".

وداخل الحدود نفسها هناك اجتهاد، فقد يرى البعض أن ليس لشرب الخمر حد، فلا يوجد في القرآن أو السنة ذلك. وقد وضع الحد في عهد عمر والحدود كما قلنا "مقدرة"، وقد استبعدنا كل ما قاله الفقهاء عن "حد الردة" إذا أريد بها ردة فكرية لأنها تتعارض مع الآيات العديدة التي تؤكد حرية الاعتقاد في القرآن الكريم.

أما عقوبة الزنا، فإن الرجم مطبق بمقتضى السنة على أن اشتراط رؤية أربعة للفعل بصورة صريحة بحيث إذا لم يتحقق هذا لدى واحد من الأربعة عوقب الثلاثة بعقوبة القذف، ومحاولة المحقق ثني المعترف عن اعترافه بكل الطرق (وهذا شيء لم يسمع به في أي قانون أو تشريع قبل الإسلام) من ناحية أخرى – هذان يجعلان هذا الحد شبه معطل، لا يطبق إلا على مثل ماعز الذي يأبى إلا أن يطهره الحد، ويرفض كل محاولات ثنيه عن ذلك. ولعل هذا هو السبب في أنهم ينالون الجنة.

النص الحقيقي الذي يعد أكثر النصوص ثبوتًا وصراحة هو نص السرقة. وقد جاء النص في القرآن بتعبير "والسارق والسارقة" ولاحظ بعض المعاصرين أن هذا التعبير قد لا يطلق على من يسرق مرة، وإنما يطلق عادة على من ألف السرقة حتى أصبح سارقًا [13]. وهو اجتهاد سائغ فيما نرى وأن لم يطرأ للسابقين ولا حتى للرسول نفسه. ولكن هذه الحقيقة لا تطعن في السلامة الموضوعية لهذه الشبهة، وإنما هي تثبت شيئًا من أعجاز القرآن، وأن استخدامه على وجه التعيين – لصيغة ما إنما يعود لاحتمال قبول هذه الصيغة لتأويل آخر قد تمس إليه الحاجة في وقت ما، أو في ظرف ما. والذي أؤمن به واعتقد أنه يتفق مع روح الإسلام هو أن لا يطبق هذا الحد على كل سرقة أولى، وإنما ينظر فإذا كان فيها ملابسات تدعو إلى التغليظ فيمكن تطبيقه وإلا فيمكن درئه بشبهة التعبير. على أساس تطبيقه إذا انتفت الشبهة، بأن عاد إلى السرقة وأصبح سارقًا.

ونحن نؤمن أن فلسفة العقوبة في الإسلام أفضل من فلسفتها في القوانين الوضعية من كافة النواحي فهي شخصية، بمعنى أنها توقع على شخص الجاني، وهي

[13] (?) ويقاس على النص تعبير القرآن: والزانية والزاني.

رادعة بمعـنى أنها تـردع الآخـرين وهي نـاجزة ومباشـرة. ولئن مست كرامة الفـرد فالبـادئ أظلم أما قسـوتها فلعلها أرحم من السـجن الطويل وتقييد الحرية وتعطيل الغريزة.. إلخ.

ويمكن إنشاء محاكم صلح تطبق مبدأ تعافوا الحدود فيما بين الناس قبل أن تصل إلى السلطان.

وكما قلنا في مستهل الفصل، فإن الشريعة مجال كبير جـدًا، ومن الظلم الشـديد أن يرمز لها "بالحـدود" كما أن من الظلم للحـدود أن ينظر إليها النظـرة السـلفية التقليدية الضيقة. ولو طبقت الشريعة حقًا لما كان هناك حاجة للحدود [إلا على سـبيل الاسـتثناء وبالنسـبة لحـالات فردية وشـاذة] لأن قـوام الشـريعة هو العـدل. وإذا تحقق العدل انحسمت إلى حد كبير شأفة الجريمة..

كلمة أخيرة:

إن فشل تجارب إقامة دولة إسلامية في العصر الحـديث يثبت أن موضـوع الدولة أعظم بكثير مما تصور معظم المفكرين الإسـلاميين وأن من الخطأ الفـاحش الظن أن تعبيرات مثل "الحاكمية الإلهية" أو "الجهـاد"... إلخ، تحل المشـكلة إنها يمكن أن توجد حكومة لقبيلة بدائية تسلط السيف على المخالف وتبقر بطن زوجته بحجة " لا حكم إلا الله"! كما لا يكفي مطلقًا ما جاء به ابن تيمية في السياسة الشـرعية. والمـاوردي في "الأحكام السلطانية" فهذه كلها إنما تمثل رؤية لمناخ معين انتهى وطويت صفحته وقد نجد فيها بعض اللمحات، ولكنها كما قلنا لا تصلح أساسًا ولا تكون كافية.

إن الدولة في العصر الحديث تنظيم معقد جدًا وصـعب للغايـة، وعلى من يتصـدى له أن يلم تمامًا بكافة أبعاده وأن يستفيد في هذا الموضـوع بعلـوم الاجتمـاع والسياسة التي تعالج "السنن" الـتي يقـوم عليها المجتمع الإنسـاني وأن يـدرس النظم السياسـية القديمة من قدماء المصريين حـتى الدسـتور الأمـريكي. وأهم من هـذا كله فهم "روح" الإسلام وقيمه الأساسية..

إن الأهمية الخاصة للدولة الإسلامية متأتية من أنها الدولة التي تستلهم قيمتها من الله والرسول، وبالتالي يفترض أن تحقق الحب والخير والعدل والجمـال وأن تـبرأ من كل لوثات حكم الطغاة الذين استعبدوا الناس واستحلوا الحرمات وفي الـوقت نفسـه، فإنها كدولة لا تستطيع أن تحقق هـذا كدولة قمـع، وسـلطة، ولكن كدولة رعاية وتوجيه تحمل "الكتـاب والمـيزان" أي الـدعوة بالحكمة والموعظة الحسـنة من ناحية وتحقيق العدالة من ناحية أخرى.

وعندما تظهر الدولة التي تحقق العدل في الاقتصاد، والحرية في الفكر، والإيمـان بالله كأصل للقِّيم العظمى التي تضبط السلوك، والعلم كوسيلة للتعرف على الحقيقة، وتكـون علاقة الحـاكم فيها بالأمة كعلاقة العامل بالمؤسسة الـتي يعمل بها – وتنتفي منها كل صور الطغيان والاستغلال، ويحس الشعب بالعزة والكرامة [14].

عندئذ نقول: "ها هي الدولة الإسلامية".

وإلا فلا...

***

[14] [(?)] نوجه الأنظار إلى أن هذا كله من صـميم القـرآن والسـنة، وليس مسـتعارًا من الفكـر الأوروبي الحديث، وأن كان الفكر الأوروبي قد جلاه بما أوتي من قدرات. وعلى كـل حـال فلسـنا مصـابين بدونِّية تجعلنا نتقوقع، أو نعادي كل فكر آخر. فالأصل أن الحقيقة واحدة والأديان واحدة.

-2-
إخواني – الإخوان...

وجدت نفسي منساقًا لأن أكتب هذه الكلمات...

هل السبب هو الغبار الكثيف الذي يثيره البعض حول الإخوان لإخفاء حقيقتهم؟ أو تلك الحملة الضارية، والتيار المتدفق من الادعاءات الباطلة من أفراد وضعوا في زمن "حزمني يا بابا" و"تكسب يا خيشة"! على مقاعد الإعلام العالية، وأخذوا يسودون السطور، ويعلنون الأكاذيب، ويكررون الزيوف والشبهات، وينقلون إلى الناس رؤيتهم عن التاريخ التي أخذوها من مسلسلات جعلت الراقصات بطلات، والكباريهات ساحات كفاح، وغرست في المجتمع المصري صورًا وشخصيات لم يكن له بها عهد كالقوة التي تكون مابين "الغرزة" والكباريه والمعلم والمعلمة واللعوب التي تعمل لخداع الأزواج وخراب بيوتهم.. ناهيك بمناظر الشراب وسخريتهم بالمأذون، وإمام المسجد..

هل السبب هو أن هذه الهيئة الشعبية الكبيرة العريقة، لا تجد وسيلة تدافع بها عن نفسها، بينما تدق الطبول وتتعالى الأبواق وتدوي وسائل الإعلام بكلام حزب دَعِّي لقيط لا يضم إلا أصحاب المصالح وأبناء الأكابر، وليس له من كفاح إلا كفاح "الهبر" واستغلال النفوذ ووضع الأيدي على الأراضي، واستقضاء العمولات واستيراد الأغذية الفاسدة، وتمرير القوانين التي تكبل الشعب من قانون الطوارئ حتى قانون تعيين العمد وعمداء الكليات وقوانين النقابات والضرائب والتمغات؟

هل السبب هو تلك العلاقة الشخصية بيني وبين الإخوان منذ أن نشأت الإخوان وأمضت سنواتها الأولى في بيت الأسرة، فتعرفت على الرعيل الأول ونشأت علاقات شخصية اقترن بها قدر من التحفظ.. كنت أصارح به الأمام الشهيد رحمه الله، كما كنت أكتب به إلى من عرفت ممن تولوا منصب الإرشاد – كالشيخ الباقوري والأستاذ عمر التلمساني رحمهما الله، والأستاذ أبو النصر متعه الله بالصحة والعافية وكانوا جميعًا يتلقون هذه الملاحظات بتقدير، حتى وإن لم يعملوا بها...

قد يكون هذا كله من الأسباب التي دفعتني للكتابة عن الإخوان، وشبح محنة جديدة تظللهم، ولكن أهم منها جميعًا، أنني استكشفت أخيرًا، وخلال دراساتي السياسية قسمة جديدة للإخوان تجعل لهم أهمية خاصة بين الهيئات، لم تحظ بالمعرفة، حتى من الإخوان أنفسهم، ومن ثم يتعين إعلانها..

***

سواء رضينا، أو كرهنا، فإن هيئة الإخوان المسلمين تمثل ظاهرة في المجتمع المصري نادرة المثال... فبقدر ما يهال عليها من ادعاءات، وبقدر ما تحاول الحكومات – من فاروق حتى مبارك - الحجر عليها وتحريمها، وبقدر ما أوقعه عبد الناصر بأعضائها في سجونه ومعتقلاته من أهوال تنفطر لها القلوب وتجعل الشبان شيبًا، بقدر ما تزداد قوة.. وفي سجون عبد الناصر نفسه تحول "جيل الثورة" إلى جيل الإخوان!

وقد بدأت الصحف أخيرًا ترفق ذكر الإخوان بوصف "المحظورة! فأعادت إلى الأذهان ذكر "المزعومة" التي كانت الصحف تقرنها دائمًا بإسرائيل طوال الأربعينيات...

كيف تكون الإخوان محظورة، وقائد حركة يوليو أفرج عن أعضائها، ثم ذهب يزور

مرشدها في بيته ويلتمس تأييده؟!

كيف تكون محظورة وقد كان لها في مجلس الشعب أكثر من ثلاثين نائبًا... ولـولا التزوير لوصل عددهم في المجلس إلى المائة؟

كيف تكـون محظـورة وهي تهيمن على النقابـات المهنيـة، ونـوادي أسـاتذة الجامعات، والأئمة في المسـاجد... وقد عجـزت الحكومة – بكل هيلمانها – عن أن تحد من نفوذها وتأثيرها؟

لماذا لا نكون واقعيين ونطرح المغالطة والمكابرة...

من وجهة النظر الشـعبية، ومن واقع إرادة الجمـاهير.. فـإن الإخـوان موجـودة وليست محظورة.. والأجهزة التي تدعي حظرها هي المفروضة على الشعب.

***

ولو سـألت الإخـوان عن سر صـمودهم لقـالوا إنه الإيمـان باللـه، والتجـرد وتقبل التضحية وقلما يزيدون على ذلك لأنهم " لا يزكون على الله أحدًا".

وهو تعليل لا نرفضه، ونرى بالفعل أنه أحد أسـرار قـوة الإخـوان، ولكنه لا يكشف عن كل جوانب الموضوع.

وزهد الإخوان في الحـديث عن أنفسـهم، أو التغـني ببطـولاتهم، إلى درجة يخشى بعضـهم الحـديث عن بطـولات شـهداء فلسـطين حـتى لا يحبط عملهم أو يـؤثر على خلـوص نيتهم، هـذا المسـلك جعلهم يهملـون التـأريخ لحـركتهم أو تسـجيل مواقفها ووضعهم في المأزق الذي وجدت الحركة النقابية نفسها فيه عندما كـانت – وهي أكـبر الحركـات الجماهيرية وأكثرها حيوية – لا تجد من يعـترف بها جنبًا إلى جنب الحركـات الدستورية والنظريات السياسية التي يعـني بها الأكـاديميون وتـدرس في الجامعـات... في الحالين: حالة الإخوان وحالة النقابـات العماليـة، نجد الإغفـال من ذوي السـلطان، والتعتيم ممن لـديهم الأضـواء.. في حين أن هـاتين الكتلـتين هما أكـبر تكتلات الشـعب وأكثرها تمـثيلاً لـه، وقد كـانت هـذه الواقعة هي المفتـاح الـذي أدى إلى استكشـاف القسمة الشعبية للإخوان المسلمين.

وعندما ندرس تـاريخ ظهـور الأحـزاب المصـرية، فسـنجد أنها قـامت على أكتـاف مجموعـات صـغيرة من "النخبـة" و"الصـفوة" أو "البرجوازية الصـاعدة"... وهو أمر طبيعي لأن هذه الفئات هي التي في يدها الثقافة، والمـال، والمناصـب، والمهن.. فهي المؤهلة للعمل، وهي التي تملك مقومات نجاح هذا العمـل.. أما دور الشـعب، فإما أنه كان محل تجاهل – كما في حزب الأمة أو الأحرار الدستوريين – وكلاهم كان يمثل كبار ملاك الأراضي وبعض أصحاب الأعمال، أو حزب الاتحـاد الـذي كَونه نشـأت باشا رئيس الديوان الملكي بإيعاز من الملك فؤاد، أو حزب الشعب الـذي أسسه صـدقي باشا في الثلاثينيات.. بالنسبة لهذه الأحزاب لم يكن للشعب حساب مطلقًا.. أما بالنسبة لحـزب الوفد، أو الحزب الوطني، فإن الشعب – ونعني به الأغلبية الساحقة عددًا والمسـحوقة وضعًا – من فلاحين يعملون في الأرض، أو عمال يشـتغلون في المصـانع، أو مـوظفين صـغار تطحنهم آلة المدينة وأجهزتهـا.. هـؤلاء لم يكن لهم مشـاركة فعلية في قيـادة الحزب، بمعنى أن لم يمثل في مجلس إدارة الحزب عامل أو فلاح أو موظف صغير!..

وقد اعتـبر وجـود "أفنـدي" "الغـرابلي" بين شخصـيات الوفد البـارزة أمـرًا إدّا، ومنح الباشوية بمجرد تقلده الوزارة.. فقيادات الأحزاب- بما فيهم الوفد – كانت من الفئـات البارزة في المجتمع حتى وإن كانت جذورها شعبية كسعد زغلول، أو حافظ عفيفي، أو إبراهيم الهلباوي.. إلخ فإن الشُقة الـتي تفصل ما بين "سـعد اللـه" القـروي بن جـامع وصيف، وبين سعد بك عضو صـالون البرنسيسة نـازلي فاضـل، وصـهر دولة مصـطفى باشا فهمي، شُقة بعيـدة جـدًا طمست كل الوشـائج القرويـة.. وقل مثل هـذا عن أخيه "فتحي زغلـول"، أو عن إبـراهيم الهلبـاوي الـذي تـزوج من إحـدى شركسـيات القصر الخديوي، (وكانت العادة أن يخصص لها 500 فدان).. وترافع ضد فلاحي دنشــواي.. أو حافظ عفيفي الذي بدأ حياته طـبيب أطفـال وعضـوًا في الحـزب الوطـني ليكـون في النهاية مـديرًا للـديوان الملكي، وأحد أسـاطين الرأسـمالية المصـرية.. فهـؤلاء جميعًا نشـأوا من صـميم الشـعب، ولكن طمـوحهم سـار بهم بعيـدًا، ثم جـاءت الزيجـات والمناصـب، فعـزلتهم تمامًا عن أصـولهم.. ونحن نعلم أن نسـبة كبـيرة من المـديرين اليوم هم أبناء فلاحين، ضحى آباؤهم بكل شيء في سبيل تعليم أبنائهم، وقد تؤدي بهم الدراسة إلى الخارج والتزوج من فرنسية أو إنجليزية أو أمريكية.. وعندما يعـود متأبطًا ذراعها ليزور القرية فقد يجد أباه حافي القدمين وسط الطين!.

وهكذا، فإن أبناء الفلاحين لم يؤسسوا الأحزاب إلا بعد أن اندمجوا في البرجوازية الصاعدة وعاشوها، وانقطعت الوشائج القديمة التي كانت تـربطهم بالقريـة، وأصـبحوا رموزًا للبرجوازية، ومن ثم فلم يكن هناك داع لا عملي، ولا سيكولوجي لتمثيل الشعب في قيادة الحزب.. وكل ما تريده الأحزاب من الشـعب هو "التأييـد"ـ وقد قنع الشـعب وقتئذ بهذا فأيد الوفـد، وصـفق عاليًا لسـعد زغلـول، وأطاعه طاعة عميـاء خاصة خلال مقاطعة "لجنة ملنر"ـ وسار في جنازته باكيًا.. **كل هذا دون أن يكون له مشـاركة حقيقية في وضع السياسة أو اتخاذ القرار!**

وسعد زغلول نفسه كان سعيدًا بـأن يكـون زعيم حـزب "الرعـاع". ولكنه ما كـان ليقبل أن يكون أحد الرعاع زميلاً له في مجلس إدارة الحزب.

حتى العمال أنفسهم عندما كونـوا حزبًـا، لم تـواتهم الشـجاعة لأن يضـعوا عـاملاً رئيسًا له، واختاروا البرنس عباس حليم رئيسًا لحزب العمال!

كان هذا هو الدأب المقرر والمألـــوف

حتى جاء الإخوان فغيروا ذلك تغييرًا جذريًا

كان رئيسهم معلمًا في المدارس الابتدائيـة، وظل معلمًا حـتى اسـتقال بعد خدمة قرابة عشرين عامًا دون أن ترقيـة! وأطلقت عليه صـحف الوفد "معلم خـط" وقـامت الهيئة التأسيسية، ومكتب الإرشاد، على عناصر شـعبية خالصة من مـزارعين أو صـغار المهنيين والموظفين، ولم يكن فيهم "بك" أو "باشا"!

وقد استغرب الضابط "جمال سالم" قاضي محكمة "الثورة" التي حاكمت زعمـاء النظـام الخـاص في أعقـاب المحاولة الملفقة لاغتيـال عبد الناصر بميـدان المنشـية 1954 أن يكون رئيس النظام الخاص – وهو يوسف طلعت – نجارًا.. وسأله: أنت نجار وتحت يديك مهندسـين ومحـامين أزاي؟ فقـال له يوسف طلعت: إن سـيدنا نـوح كـان

نجارًا...

وهي محاولة تمثل المنطق الطبقي والمنطق الديني...

وأعتقد أن الذنب الكبير الذي لم يغتفره المجتمع السياسي المصري للإخــوان هو أنهم وضــعوا نجــارين وفلاحين ومعلمي إلــزامي وصــغار مــوظفين في مناصب قيادية للعمل العــام[15] وأرادوا لهم أن ينافســوا باشوات مصر.. أعضاء كلـوب محمد علي وصـالونات الأرسـتقراطية حيث تسوي الأمـور بين "الأكسلانسـات" من صـاحب سـعادة أو صـاحب دولـة، وبك أو باشـــــا، ومالك الأراضي أو رجل الأعمـــــال، وحيث يوجد من المتمصــرين ما يعـادل المصــريين، أو يفــوق، ويجــري الحــديث بالعربية والفرنسية!

وقد كـانت هـذه الطبيعة الطبقية جـديرة بدراسة المـؤرخين الاجتمـاعيين، وبوجه خاص الماركسيين أنصار "الطبقات الكادحة" و"الديمقراطية الشـعبية"... إلخ لـولا أنها ارتبطت بالإسلام.

وهذه – أي الارتباط بالإسـلام – قسـمة أخـرى، لم تبعد الإخـوان عن الشـيوعيين، الذين يسبتعدون الدين من بين القوى المؤثرة في المجتمع، فحسب، بل أبعدتهم أيضًـا عن البرجوازية (أو العلمانيــة) الــتي ارتبطت بها الأحــزاب المصــرية، وكـانت تريد أن تفسح المجال أمام الرأسمالية والليبرالية، أي الحرية، سواء كانت اقتصادية أو فكريـة، ووجــدت أن الإســلام ســيكون قيــدًا على الحرية فركنته في ركن قصي من أركــان المجتمع، ونجحت في هذا عندما هيمنت على ثورة 1919، ووجـدت في سـعد زغلـول رجلها القوي الذي أعلن شعار "الدين لله والوطن للجميع" وسادت الليبرالية/ العلمانية المجتمع المصـري خلال العشـرينات والثلاثينـات، حـتى جـاء الإخـوان في الأربعينيـات فاســتنقذوا الإســلام من ركنه القصــي: الزوايا والجوامــع، الطــرق الصــوفية، وزارة الأوقاف والوعاظ، والأزهر، ودفعوا به إلى صميم الحيـاة ووسط المدينة والجامعـات... إلخ وجعلوه منهج حياة.

وهذا هو الذنب الثاني للإخوان الذي جمع عليهم عداوة الــبرجوازيين والشيوعيين معًا، وما أقل ما يمكن أن يتفق عليه هؤلاء.

والـذي فـات الإخـوان أنفسـهم – حـتى الآن – أنهم عنـدما جعلـوا الإسـلام محـور دعـوتهم، فـإنهم كـانوا يصـدرون عن إيمـان موضـوعي بالإسـلام من ناحيـة، وعن دافع وطــني لا شــعوري عميق ينبثق عن الطبيعة الإيمانية لمصــر، ويتفق – بالتــالي- مع طبيعتهم الطبقية الشعبية، فهم كانوا أكثر إخلاصًا للشعب واتسـاقًا مع طبيعة مصر من البرجوازيين الذين أرادوا فرض مصالحهم على المجتمع المصري أو الشـيوعيين الـذين أرادوا فرض فكر غريب مستورد على مصر.

هذان هما الـذنبان الكبـيران للإخـوان.. ومن وجهة النظر البرجوازية الأرسـتقراطية، فليس هنـاك ما هو أشد خطـورة عليهم منهمـا.. فكيف يسـمح لأصـحاب الجلاليب الزرقـاء من الفلاحين، أو الأيـدي الخشـنة من العمال أو صـغار المـوظفين المعـذبين بهمـوم الحيـاة المدنيـة، بمنافسة الباشوات وأصحاب المصالح الحقيقية (كما قـال صـدقي باشـا!).. وكيف يمكن السماح بأن يعود الإسلام محورًا للحياة فيلزم الاقتصــاد والسياسة

---

15 [(?)] قد يلحـظ البعض أن عـددًا محـدودًا من "البرجوازيـة" اتصـل بـالإخوان بعـد أن ذاعت شـهرتهم واكتسبوا قوة ونفوذًا، وكانت سياسة الإمام الشهيد حسن البنا أن يحتويهم شخصـيًا ويحـول بينهم وبين قيادة الحركة من ناحيـة وشـعبها وجمهورهـا من ناحيـة أخـرى، وقـد أسـاء البعض فهم هـذه السياسة أو تصور أنها تكريم خاص، أو تقريب لهم.

قيمًا وواجبًا تعد قيدًا على حرية عملها، أو قل استحوازها واستغلالها؟

وكيف يؤمن الماركسيون الذين شابهوا البرجوازيين في أنهم أصحاب اشتراكية الصالونات والكراسي الوثيرة، وأبناء الباشوات وبنات الطائفة الإسرائيلية، بهؤلاء الأجلاف المسلمين؟!

هذان هما ذنبا الإخوان، ومن أجلهما أصلتت عليهم السيوف، واشتهرت الأقلام، وزوج بهم في السجون.

أما ما يدعونه من اتهامات، فهي محض هراء..

خذ مثلاً الإرهاب!

إنهم لا يفتأون يتحدثون عن الإرهاب والنظام الخاص الذي وضعه الإمام الشهيد حسن البنا في الثلاثينيات.. والحقيقة أن الإمام الشهيد رحمه الله شاهد الجيش المصري الذي أراده الإنجليز جيش تشريفات، وشاهد الميوعة وهي تزحف على الشباب، فأراد لهم قدرًا من الرجولة والصلابة والإيمان، وتحمل المشاق والتضحيات، والتربية تربية رياضية/ عسكرية.. وكان يضع نصب عينيه أمرين:

الأمر الأول – وجود 80 ألف عسكري إنجليزي في البلاد من قصر النيل والقلعة حتى الصعيد ومناطق القنال التي كانت "معسكرًا" بريطانيًا خالصًا، وأنه لابد من أن يأتي يوم لمناجزة هذا الجيش.

الأمر الثاني – الذي كان نصب عيني الأمام الشهيد وهو يؤسس النظام الخاص، ظهور الصهيونيين وزحفهم على فلسطين والسياسة البريطانية التي كانت تمالئهم وتمكن له... **وفي هذه النقطة كان الوعي الإيماني أهدى سبيلاً من الوعي السياسي الذي لم يكن ليتبين بالضرورة الأبعاد الخطرة لمثل هذه القضية**، مما جعل أحد رؤساء الوزارات المصرية يقول وهو يهز كتفيه "إنني رئيس لوزارة مصر وليس لوزارة فلسطين!".. وجعلت رئيسًا آخر يرفض شراء عدد من الدبابات أراد الإنجليز التخلص منها بأبخس الأثمان.. ومعروف أن الإسرائيليين كان لهم وجود مكثف في المجتمع المصري خلال فترة الأربعينيات وظهر منهم وصيفة الملكة، ووزير المالية، وكان كبيرهم عضوًا في المجمع اللغوي، وكان لهم جمعيات تجمع الإعانات للمهاجرين اليهود إلى فلسطين، وكانت شركة الإعلانات الشرقية في يدهم، فضلاً عن سلسلة من المحال الكبرى (شيكوريل/ بنزايون) "وصحتها بن صهيون" إلخ.

كانت هاتان الحقيقتان المصيريتان: وجود الجيش البريطاني في قلب مصر، وزحف الصهيونيين على حدود البلاد، في ذهن حسن البنا عندما أسس النظام الخاص، وأخذ له أقرب صور التنظيم إلى الرياضة والعسكرية وهو "الجوالة"، ومن خلاصة الجوالة بدأت نواة النظام الخاص.

وقبل أن يستشهد الأمام، بدأت المعركة في فلسطين، وأفسح الاحتلال البريطاني، بل وقيادة الجيوش العربية التي كان يرأسها الملك عبد الله وقائده الجنرال جلوب، لليهود، ومكنتهم من مواقع ليهزموا جيش مصر، وكانت القوة البارزة في هذه المعركة هم الإخوان المسلمون الذين هزموا الإسرائيليين في كل موقعة حتى صدرت أوامر النقراشي باشا رئيس الوزراء المصري! بسحبهم من ميدان القتال إلى معسكر الاعتقال!! وانفسح المجال لليهود، فتصور جريمة السياسي المصري الذي أمر بذلك، ومكن لليهود، وما ترتب على هذا الإجراء الخاطئ – أو الخائن – من تطورات بعيدة المدى على مستقبل البلاد.

وكان من بين الذين أشرفوا على تدريب "النظام الخاص" عدد من الضـباط منهم "جمال عبد الناصر نفسه" وقد ردوا له هذا الجميل عندما استنقذوه من أسر الفالوجا.

ثم جـاء دور الكفـاح الوطـني في منطقة القنـال، وحمل الإخـوان عبـأه وأسـماء المنيسي وشاهين وغيرهما من شهداء الإخوان شاهدة على ذلك.

يقولون الاغتيالات...

ويذكرون أولاً اغتيـال الخازنـدار ثم اغتيـال النقراشي وما تلي ذلك من تفجـيرات الشركات اليهودية.. إلخ.

أما اغتيال الخازندار فقد كان اجتهادًا خاطئًا وعملاً غير مسـئول.. وغضب له الإمـام البنا أشد الغضب.. وحاولت دوائر النظام الخـاص علاج هـذا الخطأ بطريقتها الخاصة مما لا يتسع المجـال هنا لشـرحها.. وقد يكـون في الإخـوان عيـوب عديـدة، ولكن ليس منها الكذب والخداع، وقد اعترفوا بخطئهم.

أما اغتيال النقراشي، فـإن النقراشي نفسه كـان – بـالتعبيرات السـائدة – إرهابيًا كبيرًا وعضوًا مسـئولاً، إن لم يكن رئيسًـا، في عمليـات اغتيـال الضـباط الإنجلـيز خلال ثورة 1919، وفي أعقابها.. وقد صدرت عليه أحكام من محاكم إنجليزية!

قد يقولون إن اغتيـال الإنجلـيزي بطولـة، أما اغتيـال المصـريين فهو نذالـة. وهـذا منطق عنصـري بحت، لأن المعـول عليه عند إصـدار الأحكـام هو العمـل، فـإذا كـان المصري ظالمًا أو خائنًا، فإن مصريته لا تشفع لـه.. وإذا كان الإنجليزي أمينًا وعادلاً فإن إنجليزيته لا تضـره، ولا يمكن أن نسـمح للعاطفة الوطنيـة، دون أن نضـبطها بالعقل والمنطق، بإصدار الأحكام!

وكـان النقراشي شخصـيًا عنيـدًا[16] ضـيق الأفـق، ينظر إلى الـوزارة كما لو كـانت مدرسة هو ناظرها والحـاكم بـأمره فيهـا. وتحـدى إرادة الشـعب عنـدما حل أكـبر هيئة شعبية لها عضو في كل قرية، وكل حارة، وأعمت العـداوة السياسـية ومنصب الحـاكم العسكري عينيه عن معـان واعتبـارات كـبرى، وسن سـنة الاعتقـال الجمـاعي، ورفض مساعي الصلح، وفضلاً عن هذا كله مكن اليهود من الاسـتحواذ على فلسـطين عنـدما أصدر أوامره بسحب القوة التي كان يمكن أن تصـدهم، وهـذه كلها تصـرفات يجب أن توضع في الحسبان عند الحكم على قضية اغتيالـه، ولعلها يمكن أن تنهض عـذرًا لقاتل النقراشي على أساس أن الشعب عندما يستبد به حكامه، ويغلقون أبـواب أي مسـعى لتصالح أو حوار، فلا يكون أمامه سوى اللواذ بصـور من العنف أو القـوة لا تعد سـليمة

16 (?) عندما كان النقراشي وزيرًا في وزارة الوفد سنة 36 شكا النحاس باشا مر الشكوى من عناده وإصراره على فرض ما يرى دون نظر إلى بقية زملائه، وهدد أكثر من مرة بالاستقالة ما لم يؤخذ برأيه وسكت عليه النحاس حينًا، ولكنه عندما تمسـك بعـدم تعـيين أحـد الوطنـيين من زملائـه في عمليات اغتيال الضـباط الإنجلـيز وأمضـى في السـجن ثمـان سـنوات، ورفض عشـرة آلاف جنيـه مكافـأة لمن يعـترف على النقراشـي نقـول إن النحـاس تملكـه الغضـب إزاء جحـود النقراشـي، وضرب برفضه عرض الحائط، بعد أن اتخذ مجلس الوزراء قراره بالإجماع – فيما عـدا النقراشـي – بتعيين هذا الوطني النبيل (انظر مـذكرات النحـاس باشـا في العـدد الصـادر في 15/11/1994 من جريدة الشرق الأوسط اليومية).

وعندما ذهب النقراشي لا يمثل الأمة ولا يحق له الحديث باسمها، وكان جزاء الإخوان لتأييدهم له هو حله لهم واعتقالهم فكرر سـنة 48 العقـوق الـذي أبـداه سـنة 36 وأشـرنا إليـه آنفًـا. على أن سياسة النقراشي كانت المسمار الأخير في نعش السعديين. ولم تقم لهم قائمة واسـتحقوا لقب "السعديين الأشقياء الذي أطلقناه عليهم.

من ناحية المبدأ، ولكن قد تعد ضرورية بحكم الظـروف والأوضـاع العمليـة، وقد توضح ذلك كلمة الأسـتاذ عبد العزيز الشـوربجي نقيب المحـامين عنـدما قـال "ألا يوجد في مصر رجل، رجل واحد، يخلصها ويخلصنا جميعًا من هذا الفرعون!"[17].. فـإذا كـان مثل هذا القانون الضليع يقول هذا عن السـادات الـذي حـاز نصر رمضـان وفتح المعتقلات، فقد يكـون لعبد المجيد حسن عـذر في ارتكـاب جريمتـه، وهو بعد لم يقم بها ابتغـاء مغنم، أو كان في ذهنه الفرار.. إنه إنما قام بها محتسبًا دماءه في سبيل الله والوطن.

فإذا تعاظم ذلك بعض الكتاب، فأرجوا أن يقرأوا تاريخ حركة 23 يوليو ليعلمـوا أن عبد الناصر، وكما الدين حسين، وخالد محيي الدين، كانوا في خلية واحـدة في النظـام الخـاص وبـايعوا نـائب المرشد العـام، وليقـرأوا كـذلك "قصة الثـورة"، وكيف دبر عبد الناصر اغتيال حسين سري عامر، واشترك هو وكمال الدين رفعت في ذلـك.. لـولا أن الرصاصات قد طاشت.. وليقرأوا كذلك كتاب عبد اللطيف البغدادي ليعلموا أن الحركة كادت أن تصبح حركة اغتيالات كبرى لو توفر عدد العربات المطلوب!! [18].

أما الذي لا يمكن الاعتذار عنه، أو تقبله بـأي صـورة، وما يلصق بـأي حكومة سُـبة ليس هنـاك ما هو أسـوأ منهـا.. فهو أن تقـوم الحكومة بكل أجهزتها باغتيـال معـارض أعـزل في جنح الليل مسـتخدمة الضـباط الـذين يفـترض أنهم هم الـذين يحمـون المواطنين تطبيقًا لمؤامرة على أعلى المستويات لاغتيال حسن البنا، بعلم من القصر، وبأمر صادر من رئيس الوزراء في ذلك الـوقت إبـراهيم عبد الهـادي إلى اللـواء محمد وصفي، كما جاء في كتاب "خريف الغضب" للأستاذ محمد حسـنين هيكـل، وقد حـوكم إبـراهيم عبد الهـادي على تهم كـان منها هـذه التهمـة، وحكمت عليه محكمة الثـورة بالإعدام، ثم خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

هذه هي صور "الإرهاب والاغتيالات" التي نسبت إلى الإخوان.. أما بعد 23 يوليـو، فالقضية التي يعيـدون فيها ويزيـدون هي محاولة اغتيـال عبد الناصر بميـدان المنشـية بالإسكندرية سنة 1954.

وأنا لن أتكلم، وإنما سأدع اثنين من أقسى نقاد الإخـوان هما الـدكتور فـؤاد زكريا والدكتور عبد العظيم رمضان، فإنهما عندما عرضا لهذه القضية حكما بوجـود تواطؤ ما مابين السلطة وبعض دوائر النظام الخاص، وأنه أمكن استدراج محمـود عبد اللطيـف، بعد اتخـاذ الضـمانات اللازمـة، وأنها في حقيقتها كـانت مـؤامرة من عبد الناصر على الإخوان أكثر مما كانت مؤامرة من الإخوان على عبد الناصر! [19].

وقد نفى الإخوان، وما عهدنا عليهم كذبًا، أي علاقة لهم بهذه القضية.

أما عملية 1965 فإنها تلفيق من مكتب المشـير أراد به رجاله ضـرب عصـفورين

---

17 (?) محاكمة فرعون: خبايا محاكمة قتلة السادات، تأليف الأستاذ شوقي خالد المحامي، ص 13 و 14، وقد حضر الأستاذ الشوربجي أحدى جلسات محاكمة خالد الإسلام بولي وعانقه!

18 (?) في 22 يونيو 1953 أشار عبد الناصـر تحت عنـوان قصـة الثـورة إلى معرفـة القصـر الملكي بأسماء الضباط الأحرار، ثم قـال: "فاجتمعنـا وقررنـا أن نتخـذ إجـراءًا مضـادًا، وفي أقـرب وقت، وكانت أمامنا خطتـان: الأولى أن يقـوم الجهـاز الخـاص (وقـد اسـتخدم عبـد الناصـر هـذا التعبـير الإخواني لأنه كان حديث عهد بهم) – باغتيال جميع الخونة المصريين.
والخطة الثانية هي أن يقوم جميع الضباط الأحرار بالعمل لتغيير النظام بأجمعه.
وقررنا يوم 18 يوليو تنفيذ الخطة الأولى، بل لقد وضعت الخطة فعلاً وصدرت الأوامر بتنفيذها في القاهرة والإسكندرية يوم 20 يوليو.
ولكننا اجتمعنا يوم 19 يوليو ووجدنا أننا بذلك نقضـي على حركـة الضـباط جميعًـا، إذ أن النظـام سيبقى مهما قتل أنصاره، وستكون النتيجة حملة من الإرهاب..".

19 (?) انظر تفصيل ذلك في كتابنا "الإسلام هو الحل" الصفحات من 163 إلى 168.

بحجر واحد، ضرب الإخـوان من ناحيـة، واسـتحوازهم على السـلطة والنفـوذ من ناحية أخرى.. وقد تحقق هذا، وتغؤل مركز المشير وضباط مكتبه الفاسدين. ولكن الله كـان لهم بالمرصاد.. أن هزيمة 1967 كانت إلى حد ما نتيجة مؤامرة 1965 على الإخـوان، لأنها وضـعت زمـام الأمـور في يد زمـرة فاسـدة مرتشـية من الضـباط مشـغولة دائمًا بمشكلاتهم النسائية!

هذه هي قضية الإرهاب والاغتيالات أشرنا إليها بقدر ما يسمح السـياق وهي تـدين المسئولين عن الحكم في الحقبة الملكية والناصـرية، أكـثر مما تـدين الإخـوان.. لغلبة الفساد والرشاوى والاعتبارات الحزبية الضيقة في الحقبة الملكية، وللديكتاتورية وكبت الحريات والاعتقالات والتعذيب، وأي إرهـاب لأي هيئة شـعبية يمكن أن يقـارن بإرهـاب صـلاح نصر وحمـزة البسـيوني؟ إرهـاب وصل إلى حد القتل والاغتيـال للعشـرات من المسجونين ودفنهم في رمال مدينة نصر!

***

ومن الاتهامـات الـتي تقـدم ضد الإخـوان، **أنهم يريـدون الاسـتحواز على السلطة والوصول إلى الحكم وتأليف حزب إسلامي...**

وقد "غلب" الإخوان من القول مـرارًا وتكـرارًا إنهم ليسـوا حزبًا كبـاقي الأحـزاب التي تقوم واضعة نصب أعينها الوصـول إلى الحكم، وأن هـدفهم ليس الاسـتحواز على السـلطة لأن السـلطة والحكم – في أفضل الحـالات – وسـائل وليست غايـات.. ولكن هدفهم وغايتهم إشـاعة الفهم الإسـلامي بين النـاس، ووسـيلة ذلك – بالدرجة الأولى – إقناع الناس – آحاد وجماعات – بأفضلية الإسلام بالحكمة، والأدلة، والموعظة الحسنة، فقد أرسل الله تعالى رسله دعاة وهداة.. ولم يرسلهم حكامًا أو ضباطًا أو سلاطين!

وأكد الإخوان – مرارًا – أنهم لا يسعون للحكم، ولكن الحكم قد يسعى إليهم يومًا، عندما تؤمن أغلبية الشعب بدعوتهم ويطلبون إليهم عبر صـناديق الانتخـاب الحر ذلـك، عندئذ لا يمكنهم النكـوص عن هـذا الـواجب الـذي هو في حقيقته ابتلاء ثقيل وتكليف لا تشريف.

لقد قال الإخوان ذلك مرارًا وتكرارًا من الأربعينيات حتى آخر حديث صحفي أدلى به المستشار مأمون الهضيبي لمجلة روز اليوسف حديثًا.

ولكن، حتى لو فرضنا أنهم يسعون إلى الحكم.. فما العيب في هــذا، هل "الكعكة في يد اليـتيم عجبـة"!! كما يقولـون... إن الإخـوان مصـريون كغـيرهم ولهم حقـوق المواطنة كاملـة.. فـإذا أرادوا تكـوين حـزب لهم فهـذا حق دسـتوري ديمقـراطي لهم، ولكل المصريين..

أما القول إن حزبهم يرفع الرمز الإسلامي، والشعب كله مسلم، وهذا يـوحي بـأن الإخوان وحـدهم هم المسـلمون، فهـذا منطق عجيب لا يمكن أن يقبل فهل لو تسـمى حزب بالحزب المسيحي الديمقراطي، كما في ألمانيا، فإن هـذا يعـني أن هـذا الحـزب يحتكر "المسيحية الديمقراطية" وأن غيره لا يكونون مسيحيين ديمقراطيين؟!!.

لم يدع الإخوان في يوم من الأيام أنهم المسلمون دون الناس، أو أنهم يحتكـرون الدعوة إلى الله.. فبـاب الـدعوة مفتـوح للجميـع، ويمكن لمن يشـاء أن يؤسس أحزابًا إسلامية ولا يملك له الإخوان شيئًا.

أما أنه لا يجـوز تكـون حـزب إسـلامي حـتى لا تثـأر النعـرة الدينيـة، وتقـوم الفتنة الطائفية، ويتكرر في مصر ما حدث في لبنان، أو تقوم دولة في أسـيوط إلى آخر هـذا الهراء.. فهذه تخاريف حشاشين لا تستحق ردًا... وإذا أراد الأقباط أن يكوَّنوا حزبًا فهذا من حقهم، ولن تحدث مذابح، وإنما سيحدث "الحوار الإسلامي المسـيحي" وقد عـاش

أقباط هذه البلاد سعداء تحت حكم الإسلام أكـثر من ألف عـام، ولن يجـدوا أفضل من شعار: "لهم مالنا، وعليهم ما علينا"، فهو كسب خـالص لهم، وهم أذكى من أن يضـحوا به!!

ولا أستطيع أن أغالب الخيال والافتراضات، التي تبدأ ب "لو" وهي للأسف حــرف امتناع، فلو أن الإخوان، أو غير الإخوان، أرادوا القيام بثورة فإن هذا عمل مبرر سـليم، وإنما ظهر الحكم الحــالي بفضل انقلاب 23 يوليو وتحــرك الجيش نفسه لما ظهر من فساد، وقد عشش الفساد وباض وفرّ!خ وأصـبح دولة داخل الدولـة، وما من أحد يـدين الثورة على الفساد، إلا إذا كان هو نفسه فاسدًا...

***

ولكن ليس معنى كل ما قدمنا أن الإخوان برؤوا من النقص، وخلوا من الأخطاء...

ويحس الإنســان أن وجــوه النقص هــذه هي الــتي حــالت دون أن تقــوم أعــرف الهيئات الشعبية المصرية، وأكثرها تواصـلاً حقيقيًـا، رغم تحـريم القـانون، بـدور أكـبر، حتى عندما نضع في حسـباننا المقاومة الـتي تعرضت لهـا.. لأن الهيئـات "الإيمانيـة" لا يمكن أن تؤتي من الخارج قدر ما يمكن أن تؤتي من الداخل نتيجة لنقص في الفهم أو الإيمان، وبدون ذلك كان يفترض أن يغير الإخوان وجه المجتمع المصري، فما من هيئة رزقت إيمانًا، وجمهورًا، ووجودًا متصلاً، مثل الإخوان...

وقد يكون من المفارقات أنهم هم آخر الناس إحساسًا بمـيزة طـبيعتهم الطبقيـة، لغلبة المعنى الإسلامي الذي يتنافى مع الطبقيات ويجعل المعيار هو التقوى.

وليس هنـاك تعـارض في الحقيقـة، ولكنها جناية التبسـيط أو قل "التسـطيح" في معالجة الأمــور، وعــدم محاولة التعمق فيها لأن من المســلم به من ناحية التــاريخ، والطبقية أيضًا، أن عامة الشعب أقرب إلى التقوى من الفئات الـتي تشـغلهم الأمـوال والمطامع وتقيدهم المصالح والمناصب وأنهم كـانوا هم جمهـور الأديـان مسـيحيين، أو مسلمين.. وهم الذين ناصروا الرسول عندما تجهم له تجار مكة وأثرياء قريش.

وقد يصور ضحالة "النبض الشـعبي" لـدى الإخـوان أنهم نجحـوا عمليًا في اقتحـام النقابات المهنية، ولكنهم لم يـدخلوا النقابـات العمالية لا عجـزًا، ولكن عزوفًـا، وبتـأثير النفسية والمزاج، وهذا لا يمنع من أنهم هم القطاع الشعبي حقًـا، ولكن "العين لا تـرى نفسها"!.

وقبل أن أتحدث عن الدور الـواجب للإخـوان المسـلمين في هـذه المرحلة أشـير إلى أمرين: **الأولى** أن الإسلام دين الحرية، ودين اليسر، "يسروا ولا تعسروا، وبشروا لا تنفروا"... ويفترض أن يكون الإخوان هم فرسان هذا المجال فلا مزايدة عليهم...

والأمر الثاني أن رسالة الإخوان في حقيقتها كانت تجديد الفهم الإسلامي، وقد ضخت الدماء الجديدة في الدعوة فكرًا، وجمهورًا، فنقلته من طقوس عبـادة إلى منهج حياة، ومن وظيفة يقوم بها الوعاظ وأئمة المساجد إلى إيمان ينتظم شباب الجامعـات وصميم المجتمع المدني.

ولا جــدال أن دعــوة الإخــوان قضت في أيامها الأولى على المذهبية الــتي كـانت فاشية، وطوت الخلافات الفقهية الـتي كـانت تسـتأثر بالأهمية وتغـرق المسـلمين، وأنها غرست بذور فهم جديد للإسلام أريد له أن لا يكون سـلفيًا تقليـديًا، وإلا فـإن الأزهر في مصر، وإدارة الدعوة والبحـوث... إلخ في السـعودية أقـدر على تقـديم "السـلفية"، وما يؤكد هذا المعنى أن الإمام الشهيد رحمه الله كان مرنا إلى أقصى درجة، مسـتعدًا دائمًا للتنازل عن كل الشكليات في سبيل الإبقاء على الجوهر، ومن كانت هذه طبيعتــه، فإنه جــدير بــأن يقــدم صــورة جديــدة للإســلام، صــورة تكــون الأولوية فيها للجــوهر، وليس

للمظهر.

وسأنقل للقراء مثالين يبرزان مدى مرونة الأمام الشهيد رحمه الله...

المثال الأول: جاء في المذكرات التي كان يكتبها الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله وينشـــرها في "المســـلمون"، العـــدد 36 في 28 المحـــرم 1406 – 18/10/1985، ونقلها الأخ عبــاس السيسي في كــتيب له بعنــوان "حكايــات عن الإخــوان"، وفي الموضــوع المستشــهد به ذكر الشــيخ الصــواف عزمه مع اثــنين من إخوانه، تكوين هيئة إسلامية، قبل أن يعلموا بوجود الإخوان، وعندما علموا أراد أحــدهم أن تحمل هيئتهم اسم "جمعية الإخوان المسلمين" في الموصل...

يقول الشيخ الصواف:

"ورفضت أن تكــون التســمية مقلــدة لاسم في بلد آخــر، وأصر الأخ أن تحمل الجمعية الاسم نفسه، أي "جمعية الإخوان المسلمين" فقلت لإخــواني لما رأيت بــوادر الخلاف بينهم إن الأســماء لاتهمنــا، نحن نريد أن نحمل فكــرة.. وبعد ذلك شــاء الله أن أسافر مع هذا الأخ الذي كان يصر على أن نجعلها باسم الإخــوان المســلمين إلى مصر لعمل، والتقينا في مصر بالإمام الشهيد رحمه الله وسألناه في الأمر فقال "ســيروا مع الشيخ الصــواف فهــذا هو الصــحيح، لأننا لاتهمنا الأســماء وإنما تهمنا الــدعوة الإســلامية ويهمنا الإسلام نفسه بأي اسم كان وبأي ثوب خرج...".

والمثال الثاني رواه الأخ أحمد البس في كتابه "الإخــوان المســلمون في ريف مصــر" عن شــخص كتب إلى الإمــام الشــهيد يســتنكر هتــاف الإخــوان (الله غايتنــا، والرسول زعيمنا، والقرآن دســتورنا، والجهــاد ســبيلنا، والمــوت في ســبيل الله أســمى أمانينــا).. ويقــول إنها لا تليــق.. فكيف تقولــون عن محمد أنه زعيم... فكتب فضــيلة المرشد متلطفًا يقــول: "إذا كــان النــاس عنــدكم لا يستســيغون ذلك فيمكن أن يكــون الهتاف (الله ربنا، ومحمد رسولنا، والقرآن كتابنا) فهي تؤدي المعنى نفسه..".

فانظر إلى المرونة في موضوعين من المواضيع التي تعد من "المقدسات" الــتي لا مساس بها: الاسم والشعار.

ولو قـــدر للأســـتاذ البنا رحمه الله أن يعيش ليتم عملـــه، وليخلص من مرحلة "الحشد" إلى مرحلة "الفرز" ومن مرحلة التعميم إلى التخصــيص.. فيغلب علي الظن أنه كان سيقوم بتقديم الإضافة المطلوبة، ولكنهم اغتــالوه وهو في ريعــان العمر وقمة النضج والعطاء، وكان يجب على الإخوان أن يبــدأوا حيث انتهى، ولكن الــذي حــدث هو أنهم تراجعوا عما وصل إليه حسن البنا حتى أصبح البعض يتهمهم بالســلفية والوهابيــة، والتقوقع وغير ذلك...

ونحن نقدر الظروف التي مرت بالإخوان وجعلتهم مثخنين بالجراح.. وحــالت دون أن ينطلقوا، ولكننا رغم كل شيء نــؤمن أن قــوة الإخــوان وإيمــانهم وصــمودهم أعظم من أن تقوقعهم، أو تجمدهم، أو تشلهم الضربات.. فإذا كانت هذه الضــربات متلاحقــة، فهناك أيضًا أمداد متلاحقة من الشباب يدخلون الإخوان أفواجًا.

وأعتقد أن للإخوان دورًا حيويًا، وهامًا يفرضه عليهم واجبهم نحــوم دعــوتهم، ونحو وطنهم، ونحو الإســلام، لأن إغفــالهم له أدى إلى هــذه الصــورة من الركــود والخمــول والسلبية التي تؤدي إلى التآكل والتواكل.. وبالنسبة لوطنهم فإن هذه السلبية ســمحت بتفشي الفساد، ولو قاموا بدور عملي لكبحوا جماحه.. وأخيرًا فإن ســلبيتهم جنت على الفكرة الإسلامية وسمحت بظهور هذه الجماعات المراهقة، المتشنجة، الشاردة الــتي ضلت طريقها وسط التيه والضياع.

وأتصــور أن هــذا الــدور ينقسم إلى شــقين: الأول يتعلق بمفهــوم

الإسلام كمنهجٍ حياة، والثاني يتعلق بتجديد الفكر الإسلامي: عقيدة وشريعة وسلوكًا.

بالنسبة للشق الأول، فإن على الإخوان أن يوضحوا دلالات مفهوم الإسلام كمنهج حياة لتحديد الحلول الإسلامية للمشكلات التي تكشف حياة الناس، وبالقيام – بقدر استطاعتهم – (ويمكن أن تكون كبيرة) في حلها عمليًا.

من أبرز هذه المشكلات الإسكان وضرورة تيسير شقة لكل شاب يريد الزواج، وبهذا ننقذه من العذاب النفسي/ العاطفي، ومن أن يضحي في أسواق النخاسة العربية أو الأوروبية بخمس أو ست سنوات من زهرة شبابه.. ويمكن الاستعانة في هذا بالبنوك الإسلامية وتقريعها على عدم تفهم واجبها الإسلامي الذي يملي عليها بناء مثل هذه الشقق، وليست عمارات التصييف والإسكان الفاخر.. أنها بهذا المسلك الأخير تضع نفسها في خندق واحد مع البنوك "الربوية" وتقوم بخدمة رأس المال والعجل الذهبي، وليس الله والرسول.

من هذه المشكلات البطالة ووضع مشروعات تعاونية أو فردية صغيرة في "ورش" أو في المنازل، وتيسير المهارات المطلوب (الكومبيوتر/ اللاسلكي/ الكهرباء.. إلخ) بمعاهد تدريب مهني سريعة.. ويمكن الاستعانة في هذا بنقابة المهندسين ومواردها المالية والفنية.

من هذه المشكلات أيضًا مشكلة العلاج الذي أصبح تجارة وخضع لأسوأ صور الاستغلال والانتهازية، ولابد أن تقف نقابة الأطباء موقفًا حازمًا، موقفًا إسلاميًا لا تخشى فيه لومة لائم، ولا تخاف سطوة المنتفعين بالطب والعلاج، وأن يكون دورها في هذا أعظم، أو على الأقل مماثل لدورها في عرض السلع المعمرة وتقديم الخدمات والمصايف للأعضاء.

وفي الأربعينات كنت أقول إن هناك هيئة واحدة يمكنها أن تقضي على الأمية في مصر، وتوقف تواطؤ الحكومات على إبقائها!، هذه الهيئة هي الإخوان. وقد لا تكون اليوم بمثل ما كانت في الأربعينات عندما كان هناك خمسمائة شعبة على الأقل كخليات نحل، ومع هذا فلا يزال القول (إيجابًا وسلبًا – أي قدرة الإخوان في مواجهة تواطؤ الحكومات) صحيحًا.

ويمكن للإخوان أن يتبنوا مشكلة بناء بيوت للمسنين من الآباء والأمهات بعد أن ضاق التكوين الجديد للأسرة المصرية عن إيوائهم وفي توجيه القرآن للبر بالآباء والأمهات ما يملي على الإخوان القيام بدور نحو هذا التوجيه القرآني..

ويمكن للإخوان تكوين جمعية باسم "جمعية الإمام الشهيد حسن البنا للتبرع بالدم" خاصة في يوم استشهاده (12/2/1949) وبذلك يقومون بواجب إنساني مقدس ويحيون ذكرى إمامهم الشهيد الذي لو أجرى له نقل الدم اللازم لكان من المحتمل أن يعيش...

ويمكن للإخوان دراسة واقتراح تكوين "محاكم صلح" أهلية، شعبية في كل حي تحمل عن المحاكم عبء القضايا "المتلتلة" والمتراكمة، وتحقق الصلح والعفو

والتسوية بالحسنى وهي كلها من أهم توجيهات الإسلام التي وصلت إلى الدرجة التي يمكن معها عدم إعمال الحدود..، مادامت لم تصل إلى السلطان...

هذه كلها وعشرات أخرى مما يمكن للإخوان أن يقوموا بها مساهمة في جعل الإسلام منهج حياة.

ونعلم أن أصحاب الدعوات المصمتة المغلقة كالماركسيين في أوروبا والرافضة الحديثة في المجتمعات الإسلامية. (ممن يطلق عليهم الجماعات الإسلامية) يضيقون بفكرة "الإصلاح الاجتماعي" ويرون فيها تمييعًا لدور الدعوة الوحيد وهو تقلد الحكم وتطبيق النظرية أو العقيدة. نرى هذا جليًا في الكتابات الماركسية نحو الحركة النقابية. وفي كتابات حزب التحرير، والفريضة الغائبة نحو مشروعات الإصلاح الاجتماعي. ولكن هذا خطأ خالص فإن أفضل المشروعات هي ما يقوم على أساس شعبي وبوازع القرآن وليس بوازع السلطان. وهذه المشروعات كلها خطوات على طريق الإصلاح ولبنات في تكوين المجتمع.

نعم إن الإخوان ليست دولة داخل الدولة، ولا تسمح مواردها بكل هذا النشاط، بل إنها "محظورة" كما يقولون.. ولكننا جميعًا نعلم أنها لو آمنت بما قدمنا، فلن تعجز عن أن تتوصل إلى الموارد البشرية والمادية التي يمكنها من القيام بدورها.

أما الشق الثاني، الخاص بتجديد المفاهيم الإسلامية، فإن مفتاحه الرئيسي هو – في ثلاث كلمات – (العودة إلى القرآن)، لأن المذهبيات، والفقهيات، والتراثيات، أصبحت سدًا عاليًا يفصل ما بيننا وبين المنبع، ويفسد بطريقته طريقة القرآن، فكائنًا ما كان الإعزاز لهذا التراث وأئمته فالله أولى، والقرآن أحق. ومن العجز وكلال الهمة، وصدء العقل أن نظن أننا لا نفهم القرآن إلا في ضوء التفاسير وما وضعه الإسلام.. فهذه مخالفة صريحة لنهي القرآن الناس عن أن يتبعوا كلام آبائهم وأجدادهم وأن يأخذوا بما أنزل الله.. وأنا مؤمن تمامًا أن الخطأ والقصور فيما وضعه الآباء والأجداد أكثر من الصواب فيها. وأنها تعجز عن أن تجابه تحديات العصر، أو أن تسامي النص القرآن الذي يمكن استلهامه في مواجهة هذه التحديات.

في ضوء هذا المفتاح، يكون علينا الإيمان بالله، كما صوره القرآن، وليس كما صوره علم الكلام الركيك وما يحفل به من مماحكات وافتراضات تناقض أسلوب وطريقة القرآن.

في ضوء هذا المفتاح، تكون القيم الإسلامية العظمى هي مصادر الفقه الإسلامي، وأولها العدل: العدل في الاقتصاد، والعدل في السياسة، والعدل في الاجتماع... ويكون العقل هو ميزان الفكر في كل شيء – باستثناء – ذات الله تعالى التي تعرف بالوحي.

في ضوء هذا المفتاح، نتفهم حرية القرآن، بلا حدود، في مجال الاعتقاد إيمانًا وكفرًا...

في ضوء هذا المفتاح نضع المرأة الوضع الذي أراده القرآن ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة: 228] وواضح أن هذه الدرجة هي درجة القوامة المنزلية، وليست المنزلة أو المكانة في الحياة، التي يجب أن تتبع قاعدة المساواة التي وضعها القرآن، مما يخرج عن إطار

القوامة المنزلية.

ولا أريد أن أطيل، ولكن قد يكون من المفيد الإشارة إلى أننا قد فتحنا الباب بما قدمناه من كتابات عديدة لفهم إسلامي رشيد وتحديد للموقف الإسلامي في العقيدة، والشريعة، والسلوك[20].

وللإخوان أن يأخذوا أو يدعوا.. ينقصوا أو يضيفوا.. ولكنهم في جميع الحالات سيجدون أمامهم اجتهادات ومحاولات.

ولكن لا يجوز لقيادة هيئة – كائنة ما كانت – أن تنصب لأعضائها "محكمة بابوية" تحد ما يجوز أو مالا يجوز من القراءات. فهذا تعطيل وإهدار لحرية الفكر ومسئولية الفرد عن نفسه التي قررها القرآن، ونوع كريه من الوصاية على عقول الأعضاء كأنهم قُصَّر لا يدركون مصلحتهم. وبأي حق يجوز لفئة أن تدعي القوامة أو تحتكر المعرفة.. أأخذوا من الله موثقًا؟

هذا أمر مرفوض، مرفوض، مرفوض.

إخواني الإخوان..

لعلي أكون قد عبرت عن إعزازي لكم، وتقديري لجوانب في دعوتكم لم تستكشفوها، أو لم تعطوها الأهمية.. وعندما أنتقد السلبية، فأنا مقدر أن هيئة الإخوان هي أكبر هيئة قدمت شهداء، وتعرضت لتضحيات وتحملت اضطهادات.. ولكن ثقتي في قوتكم أعظم من ثقتي في قوة أعدائكم والمتربصين بكم.

وإذا قلت لكم يسروا، ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا.. فإنما أكرر توجيه الرسول.

وإذا قلت لكم لا تتبعوا الآباء والأجداد، وإنما ما أنزل الله، فإنما أكرر ما جاء به القرآن الكريم.

وإذا أوصيت بالمرونة، فقد ضربت لكم الأمثال من سياسات الإمام الشهيد حسن البنا.

وقد كتبت لكم على صفحات هذا الكتاب، لأن شعرة معاوية التي تربطني بقيادتكم الحالية لا تصلح قناة في هذا الأمر الخطير.

***

20 (?) من الكتب التي أصدرناها وتعين القارئ على الفهم الإسلامي المنشود.ـ الأصلان العظيمان: الكتاب والسنة، العودة إلى القرآن، قضية الحرية في الإسلام، حرية الاعتقاد في الإسلام، الإسلام والعقلانية، البرنامج الإسلامي، الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشرعة، الربا، الإسلام والحركة النقابية، تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي. بيان رمضان. الأسس الفكرية للدولة الإسلامية، الإسلام هو الحل، رسالة إلى الدعوات الإسلامية، ركائز الأصولية الإسلامية.. الدعوات الإسلامية المعاصرة، لا حرج .. إلخ (انظر قائمة الكتب أخر الكتاب) وتتفاوت صفحات هذه الكتب ما بين 96 صفحة و813 صفحة...

-3-

غياب الرؤية الإسلامية [21]

من الخير أن نقدم لهذا المقال ببعض الإيضاحات لما قد يلتبس بذهن القارئ أو لإلقاء ضوء على فكرتنا عن الموضوع...

فالمقال هو عن "الرؤية الإسلامية" وليس عن الإسلام نفسه، وهناك فارق كبير، ولكن قد يروق لبعض الناس أن لا يفرق بينهما، كما قد تدق على آخرين هذه التفرقة – لذا لزم التنويه!

نحن نعطي الموضوع أهمية كبرى لأنه يعالج قضية تتصل بالإسلام، وأي شيء يمس الإسلام، لابد وأن يكتسب أهمية خاصة.. فالإسلام هو اختيارنا الحضاري، وهو أصل القيم والآداب، ونحن نؤمن به، ونعتز به، كما لا نؤمن أو نعتز بأي شيء آخر.

بالإضافة إلى هذا الجانب الذاتي، فهناك مالا يقل عنه أهمية، وهو الجانب الموضوعي.. فبالنسبة لمصر، فإن الدين كان دائمًا محور المجتمع، وضمير الشعب، وهذه الحقيقة هي أبرز "خصوصيات" مصر على مر العهود، من أزيس حتى المسيحية فالإسلام، فقضية الإسلام بالنسبة لمصر قضية محورية أصيلة تمس صميم كيان المجتمع المصري، ومع أن مصر ارتبطت بالثقافة الأوروبية (العلمانية كما يقولون) منذ 1805 بدء ولاية محمد علي، وأراد لها إسماعيل باشا أن تكون "قطعة من أوروبا"، ثم جاء الاحتلال البريطاني فحاول طمس أبرز مقومات الشعب، ألا وهو الإسلام السياسي (كما يقولون أيضًا)، وختم هذا كله بثورة 1919 البرجوازية التي أبعدت الإسلام من صدارة المجتمع إلى ركن قصي فيه لا يظهر إلا في المناسبات والموالد والحفلات وعند طلب الفتوى أو رؤية الهلال!!

ومع أن نظم الحكم تصدت للدعوة الإسلامية منذ البداية، فجمد محمد علي عمل السيد عمر مكرم ونفى توفيق باشا جمال الدين الأفغاني.. واغتالت ملكية فاروق حسن البنا.. ثم حلت الهيئة الإسلامية الأم (الإخوان المسلمين)، حتى وضع عبد الناصر سياسة "استهدفت تدمير رجال الإخوان، و"تعهير" نساء الإخوان!!" وفتح السجون والمعتقلات التي مورست فيها أشنع صور التعذيب المقيت..

ومع أن وسائل الإعلام والثقافة والصحافة والفنون وضعت كلها في أيدي أفراد تشربوا الثقافة الأوروبية بصورة قطعت كل الوشائج ما بينهم وبين مجتمعهم، وجعلتهم يعملون لخدمة النظام الحاكم، لا يشركون به شيئًا..

مع هذا كله، فإن الطبيعة الإيمانية للشعب فرضت نفسها على الحكام وحفظت للدعوة الإسلامية تماسكها ومكانتها، وأوقعت الساسة في مأزق اضطروا فيه إلى المداهنة والنفاق وأن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم دون أن يخفي هذا على الشعب الذي فقد الثقة فيهم، وبعدت الشقة بينه وبينهم وأصبحوا في واد والشعب في واد آخر، فلم يجنوا على الإسلام قدر ما جنوا على أنفسهم ونظام حكمهم.

ومرة ثالثة، فإن الإسلام الذي يمثل خاتمة الأديان ونهاية مسيرة الإنسان للتعرف على الله، لا يقتصر على أنه اختيارنا الحضاري، أو أنه "ضمير مصر"، إنه – كذلك – خلاص العالم، لأن الأساس الحقيقي للحضارة هو الدين، وواسطة العقد في الدين هي عقيدة الألوهية، وبقدر ما تقرب هذه العقيدة من الكمال، بقدر ما يكون تميز الدين، وهذا هو ما حدث بالنسبة للإسلام، عندما يفهم فهمًا سليمًا.

---

21 (?) نشرت في مجلة منبر الحوار العدد 31.
شتاء 1994 – السنة التاسعة من ص 100 إلى ص 113.

فقد توصل العقل البشري إلى تلك المنجزات الرائعة التي قـامت عليها الحضـارة الأوروبيـة، ونحن لا نقلل منهـا، بل نحن أول من يعـترف بهـا، ولكن هـذا لا ينفي وجـود قصور في ذلك الجانب الهام، جانب السلام النفسي الذي لا يمكن لحضـارة الاسـتمتاع والاسـتهلاك، أو حـتى الفنـون والآداب، أن تحققه تمامًـا، لأنها وإن أشـبعت مطـالب الجسد، وإلى حد ما، النفس، وكفلت الأمن من الفاقة والحاجة (وهي إنجـازات رائعـة) فتظل الـروح جائعـة، ولا تزيـدها الـثروات إلا إحساسًـا بهـذا الجـوع الـذي يأخذ شـكل "الاكتئاب" والذي يؤدي بصـاحبه في بعض الحـالات الـتي الانتحـار. ولا يمكن أن يـدرك سـلام النفس إلا عنـدما يربط بمرسى موضـوعي مطلق تمامًـا، وكل موضـوعية – خلا موضوعية الله – موضوعية ناقصة لا تبرأ من شـوائب القصـور والذاتيـة، ولهـذا نغصت الحروب والقلاقل صفو الحضـارة الأوروبيـة، فنشـبت الحـروب ما بين الـدول الأوروبية بعضها بعضًا، ونشبت في داخل كل دولة بين الأغنياء والفقراء، الأقويـاء والضـعفاء.. ثم نقلت أوروبا تلك المعركة إلى الشــرق وإلى آســيا وأفريقيــا، فنهبت ثرواتها – حــتى الـثروات الآدمية عنـدما اسـترقت الأفريقـيين ودفعت بهم إلى مـزارع السـكر والقطن والــدخان في أمريكا وجــزر الهند الشــرقية.. إلخ، وإذا كــان العــالم القــديم قد شن الحـروب مـدفوعًا بالجهالة والفاقة والمجاعـات، فـإن العـالم الحـديث يشن الحـروب مزودًا بالعلم والثروات واستعلاء واستكبارًا وتكاثرًا..

ولو استلهمت الحضارة الأوروبية قيم الإسلام، لاستكملت ما ينقصـها، لـبرئت مما يشوبها.

إلى هذا المدى، نحن نـؤمن بالإسـلام، نـؤمن به لأنه اختيارنا الحضـاري، ولأنه سر خصوصية مصر، وقاعدة ضميرها، ومفجر إيمانها، ولأنه أخيرًا خلاص العالم بعد أن بغت الحضارة الأوروبية وطغت وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها. ولا شيء – بـالطبع – يمكن أن يعادل هذا التقدير للإسلام، أو سناميه.

في المقال أحكام وآراء تطلق على علاتها بالنسبة للتفسـير والحـديث وقد تعطي طابع التعميم، ولم يتسع المجال لتفصيلها أو إيراد الأساس الـذي بـنيت عليـه، لأن هـذا سيخرج المقال عن حجمه وطبيعة موضوعه، وسيبعده عن النتيجة التي يـراد الوصـول إليها.. وقد تعرضنا لمعظم هذه الأحكـام والآراء بالتفصـيل في كتب سـابقة لنـا، وبوجه خاص "الأصلان العظيمان: الكتاب والسنة" وعلى من يريد التفصيل أن يرجع إليها..

***

كيف حــدث أن الإســلام، عنــدما آمن به العــرب أول مــرة، نهض بهم من قبائل متناحرة تفخر بالشراب وتتقاتل لسبق حصـان أو عقر ناقـة، إلى أمة متماسـكة تحمل "الكتـاب والمـيزان" إلى الأمم الأخـرى، وتهـدم الإمبراطوريـات الطبقية الظالمة الـتي قامت على أساس الاستعلاء والاستكبار، وتقدم للبشرية تجربة لم تعرفها – من قبل أو بعد – هي "ديمقراطية الجامع" في عهد الرسول ﷺ، وحكم الخلافة الراشدة بعده!

ثم كيف حدث أن الإسلام لا ينهض اليوم بالمسـلمين من درك التبعية المهين، وما توقعه إسرائيل والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية – حتى حثالتها، الصرب – من إذلال للرجال واغتصاب للنساء، ووصاية على القرار، ولا تحمر وجوه، أو تغلي دماء، أو يتحرك ساكن؟!

ثم كيف يمكن أن تحتدم العداوات والحروب بين الدول الإسلامية بعضها بعضًا، أو داخل الــدول الإســلامية نفســها، حــتى ما تعلقت به الآمــال – كــايران وأفغانســتان، والسودان!!؟

لماذا حدثت المفارقة...

وأين الخطأ...

لا يمكن أن يكـون في الإسـلام، لأن الإسـلام نهض بـالعرب من قبل فقضى ذلك على مظنة أن يكون – بالضرورة – سبب تخلف.

ولا يمكن أن يعود إلى "جنس المسـلمين" فليس في جنس المسـلمين – إذا جـاز التعبير – ما ينحط بهم، فقد كان لهم في يوم ما إمبراطوريات، وعهود ازدهار.

لابد أن يكون هناك "حلقة مفقودة" يتعين البحث عنها...

والحلقة المفقودة هي (سوء فهم الإسلام) إلى درجة جعلت الإسلام الذي يؤمن به المسلمون اليوم غـير الإسـلام الـذي آمن به صـحابة محمد والذي جعلهم يفتحون العالم، حتى وإن كـان المسـلمون اليـوم يجـأرون بأعلى أصواتهم (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ومن ظواهر سوء الفهم، القضية التي نعالجها الآن، "غياب الرؤية الإسلامية"!

***

ما الذي نعنيه بافتقاد الرؤية الإسلامية؟

هناك مثل يتحدث عن الأشـجار والغابـة، ويفـرق بين الـذي ينظر إلى الأشـجار فلا يرى الغابة، ومن ينظر إلى الغابة فلا يرى الأشجار!

ويتمنى الإنسان أن يرى الغابة والأشجار معًا.. ولكن هذا عادة يتعذر، وإذا اتسعت الغابة إلى درجة معينة، فمن المؤكد أنه سوف يتعسر الجمع بين رؤية الاثـنين، ويكـون على الإنسان أن يقنع بأحدهما.

فإذا نظر إلى الأشجار، فسيعرف شيئًا عن بعضها، ولكنه لن يعـرف البـاقي، وأهم من هذا أنه لن يلم بروح الغابة، وأبعادها، والصورة العامة لها..

وإذا استشرف الغابة، فإنه لن يلم بالخصائص المميزة لأشجارها.

وفي أيـام الرسـول كـان الإسـلام – غابة وأشـجارًا – شـيئًا واحـدًا، كـانت الغابة محدودة بحيث يمكن أن يراها ويرى ما فيها من أشجار، أو بالتحديد شجرتيها!

لأن الإسلام لدى الصحابة هو القرآن والرسول...

القرآن الذي تقبلوه سورة سورة، أو حـتى آية آيـة، لا يتجـاوزون بضع آيـات حـتى يلموا بما فيها من العمل فيأخذون أنفسهم به، وينتقلون إلى آيات أخرى...

وقد يظن أن هذه توحي بالتجزئة، والنظر إلى أغصـان الشـجرة، وليس الشـجرة، ناهيك بالغابـة، ولكن حـال دون ذلك أن القـرآن ليس كتـاب قصص أو تـاريخ، ولا هو مبـوب كبقية الكتب من فصـول وأبـواب، من لم يلم بـالأول منها لا يـدرك الآخـر.. إن السـور القرآنية أشـبه باللوحـات الـتي تُغـني كل واحـدة بنفسـها، وتضم كل واحـدة الجوهريات التي في السور الأخرى، وتحمل كل واحدة بصـمة القـرآن، أو هي حبة من حبات عقد لا تختلف واحدة عن أخرى إلا بما يحقق الكمال للعقد النظيم، بحيث تتـآلف مع واسطة العقد التي تتميز بـالحجم والموقـع، ولكن نوعية الحبـات الأخـرى لا تختلف عنهـا.. فواسـطة العقد هي عقيـدة الألوهيـة، والحبـات الأخـرى تمثل ما ينبثق عنها من حرية أو عدالة أو يسـر.. ففي كل حبة شـيء من واسـطة العقـد، وليس هنـاك سـورة مغلقة على نفسها، منبتة عن إخوانها، فالمعاني القرآنية شائعة في كل السور والآيـات تسـري وتتمشى معها بحيث تكـاد تـرى الغابة في الشـجرة، وهـذا من أسـرار إعجـاز القرآن!!

وعنـدما كـان الرسـول يقـرأ عليهم سـورة، أو جـزءًا من سـورة، فـإنهم كـانوا يتشـربونها كلمة فكلمـة، آية فآيـة، فتفعل في نفسـهم كما يفعل أقـوى عقـار في

النفوس.

لم يكونـوا يسـألون النـبي عن معـاني بعض الآيـات، حـتى المتشـابهات، ولم يكن الرسول أيضًا ليذكر لهم معانيها إلا في القليل النادر، لأن المعـاني – وإن كـانت أهم ما يتضمنه كتاب – فإن القـرآن لا يصل إليها بـالطريق الرياضي (1+1 =ـ 2) ولا بطريق منطق أرسطو، ولا بطريق التعريفـات الجامعة المانعـة.. إنه يصل إليها بطريق الرمـز، والمجاز والإبـداع الفـني حيث لا يمكن أن يسـأل عن معـنى الأسـود أو الأحمر أو النغم العالي أو الخافت، وليس المهم (يعني أية) قدر ما أن المهم هو (الأثر) الذي يتركه في النفس.. ولعل القرآن نفسه عبر عن هذا بقوله ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَـلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾ [الحشر: 21].

وقد ألفنا أن نقرأ في الكتب التقليدية أن الصـحابة ما كـانوا يسـألون لأنهم أفصح العرب لسانًا، ولكن هذه ليست القضية، لأن فهم القرآن لا يعـود إلى الفصـاحة، فليس هو كتاب لغـة، ولكنه كتـاب هدايـة، وقد صـكت ألفاظه ومفرداته وطريقة نظمه بحيث تحقق التأثير المطلوب للهداية.

وقد كـان بوسع الرسـول أن يفسر القـرآن للصـحابة آية آيـة، ولكنه لم يفعل وما يطلق عليه "التفسـير المـأثور" وينسب إلى الرسـول محـدود، ولا يسـتند معظمه إلى روايات قوية، ناهيك بأن تكـون متـواترة، وهـذا في حد ذاته يجعل من العسـير علينا أن نحكم في القرآن المقطوع بنزوله، والمتعبد بلفظه، أحاديث ليست لها هذه المرتبة، أو ما يقاربها.. وإذا كـان لا يؤخذ في مجـال الاعتقـاد إلا بـاليقين، وأخبـار الآحـاد لا تفيد إلا الظن، فإن هذا أحرى أن ينطبق على القرآن لأنه مرجع الاعتقاد.. وعلى كل حال فــإن ركاكة معظم ما يروون على أنه تفسير مأثور، تغنينا عن البحث في مصداقيته.

والذي حدث هو أن الصحابة استمعوا إلى القرآن بآذانهم وقلـوبهم، فتغلغلت قيمه ومعانيه في نفوسهم...

وجدوا فيه الترغيب الذي أضرم حماسهم وشحذ عزائمهم...

وجدوا فيه الترهيب الذي جعلهم يخبتون ويخشعون، ويكبحون نوازع الهوى...

وجـدوا الـدعوة الانتهاضـية للجمـاهير المسـتعبدين في الأرض، للانطلاق والعمـل، ليكونوا شهداء على الناس...

وجـدوا النظم السـاحر والموسـيقى الأخـاذة، ففاضت نفوسـهم بـالحب، والرضا والجمال...

وجدوا القيم، والحث على السير والتدبر والتفكير والإنفاق والتنديد الفظيع بالظلم والاستغلال والبخل والأنانية والتكاثر والتفاخر.

وجدوا الصورة المثلى للألوهية.. الله.. المثل الأعلى الحي الخالق المصور الخالد، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعـه، أصل العلم والحكمة والرحمة والقـوة لا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء.. فتعلقوا بشعاع من هذه الشمس الباهرة، فأضاء نفوسهم بالمعرفة، وفجر فيها قـوة الإيمـان...وجـدوا المنطق الـذي يقـوم على البدائه والطبائع وأصول الأشياء بحيث تتلقاه القلوب وتتقبله العقول، فيحسم القضايا المعقدة للخلق والبعث والتوحيـد، بكلمـات معـدودات ﴿**أَمْ خُلِقُـوا مِنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُونَ**﴾ [الطـور:35]..﴿**وَضَـرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يس: 78 -79]..﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الـروم: 27] .. ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُـلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ..**﴾ [المؤمنون: 91].

واستشعروا العزة والكرامة من استخلاف الله تعالى لآدم وتفضيله على الملائكة، وتمكينه من مفاتيح المعرفة، وتـبينوا فيما أراده الله من تعـدد وما سـمح به للشـيطان من إغراء، وما كرره من أن الحكم بين الناس أنما هو لله وحده، ويوم القيامة وحده،.. حرية الإنسان في سلوك الطريق واتخاذ القـرار.. فلم ينصـبوا أنفسـهم قضـاة، ووصل عمق معنى الحرية في نفوسـهم أن منح علي بن أبي طـالب معارضـيه الـذين خرجـوا عليه بالسلاح حرية لا يظفر بها أي معارض في العصر الحديث!!.

ولم يفتهم أبـدًا مغـزى ودلالة القـرن القـرآني ما بين الصـلاة والزكـاة، الإيمـان والعمل الصالح، فأخذوا أنفسهم به.

وكـان هنـاك آيـات، ومعـان لم يلمـوا بهـا، ولكنهم لم يتعسـفوا الوسـائل إليهـا.. فالقرآن لكل الناس وليسوا هم كل الناس، وهو لكل الأجيال، وليسـوا هم كل الأجيـال، وقد ضم كل شيء، ولن يلموا بكل شيء فوكلوا ما لم يفهمـوه إلى خالقه مؤمـنين أن هــذا ليس عجــزًا، أو تقصــيرًا، ولكنه البعد عن التكلــف، أو أن يلمــوا بما لا يمكن أن ينهضوا به فيكون حجة عليهم!!

كان هذا هو القرآن بالنسبة للصحابة، وقد ألموا به، بل وأحكمـوه تمامًا حـتى وإن لم يحفظ الواحد منهم إلا بعض الســـور، لأن القـــرآن كـــالثوب أو الســـجل، تكفي "قصقوصة" للتعرف عليه!

ومن هنا خلقهم القرآن خلقًا جديدًا...

***

وكان الذي قدم إليهم القرآن هو محمد نفسه، وبلسانه...

ووجد الصحابة في محمد التجسيد العملي لما يكون عليه القرآن...

كان بالنسبة لهم أسوة وليس سنة، وقدوة، وليس حديثًا...

وجدوه صادقًا، أمينًا، برًا، رحيمًا تسبق رحمته غضبه، وسماحته عقوبته...

وجدوه سخيًا كريمًا، لا يبقى على شيء لنفسه ويؤثر الآخرين...

وجدوه شجاعًا في الحرب، يتقدم ولا يهـاب ولا يتـأخر عنـدما يحـاط به ولا يخشى أن يصاب...

وجدوه متواضعًا لا يستعلي، موطأ الأكتاف ليس فحسب لأصـحابه الأدنـيين، ولكن لأي جارية من جواري المدينة...

وجـدوه سـهلاً، هينًـا، يـؤثر اليسر على العسـر، والرفق على الشـدة وما خـير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن حرامًا.

وجدوه يتسع لكل الأديان، آوى إله مارية القبطية، وتقبلها أما لأبنه إبــراهيم، وضم إليه صفية اليهودية، وعلمها أن ترد على عائشة وحفصة عندما عيراها بأصـلها اليهـودي "قولي لهما.. أبي موسى، وعمي هارون، وزوجي محمد!".

لم ينقلوا عنه أنه ضرب، أو نهر، خادمًا، أو نـدد بمخـالف، أو حـتى ذكـره بالاسـم، فكان يكنى أو يقول ما بال أقوام...

وجدوه وهو الفاتح المنتصر، يدخل مكة ساجدًا لله على قتب بعيره لم يدخلها في

مـوكب نصـر، ولم يبحها لجنـوده، وإنما قـال "أحِّلت سـاعة من نهـار" ولما مثل أمامه أعـداؤه الـذين آذوه أشد الإيـذاء، ودفعـوه للهجـرة، عفي عنهم وقـال "اذهبـوا، فـأنتم الطلقاء" ولما أسلموا محيت كل ذنوبهم السابقة وعادوا إخوانا...

هذا هو محمد الذي آمن به الصحابة، والذي جعلـوا منه أسـوة لهم، وقبسـوا منـه، كل بقدره، فأصبحوا كالنجوم...

***

في القرآن، وفي محمد، وجد الصحابة الإسلام...

ولكن واحــدًا من الصــحابة لم ير أن عليه أن يحفظ كل آية في القــرآن ويعــرف على وجه التحديد تفســـيرها... ولم ير أحد من الصـــحابة أن عليه أن ينخلع من ماله وتجارته وعلمه، ليصحب الرسول ليل نهار، وليتقصى كل شاردة وواردة منه...

حتى عمر بن الخطاب، كان عليه أن يذهب للصفق في الأسواق!

فلم يكن هنــاك "غابــة" شاســعة كثيفة تضل فيها العقــول.. ولكن كــان هنــاك أساسيات في الفهم والعمل التزموا بها، وأسقطوا ما عداها.

كانت الرؤية الإسلامية متوفرة، بحيث عرفـوا الإسـلام، وعن هـذه المعرفة أصـبح بإمكانهم الحكم على الأشياء تبعًا لها...

ولقائل أن يقول...

ونحن اليوم أليس لدينا القرآن، ولدينا السنة؟ فما الذي ينقصنا..؟

نقول إن الصحابة كان لديهم القرآن الذي لم يلتبس بشيء آخر...

وكما قال الصحابة لا إله إلا الله... فأثبتوا وجود الإله بنفي ما عداه وكثفوا المعنى المطلوب، فإنهم كذلك قالوا " لا تُلْبِس بالقرآن كتاباً آخر"...

ولكننا قد أوجدنا جنب القرآن عشـرات الكتب والمجلـدات الـتي تئن منها رفـوف المكتبات مما أطلق عليه "التفسير".

ولم يعد الناس يقرأون القرآن مجـردًا، وإنما يقرأونه عـبر هـذه التفسـيرات، وبعد أن يكونوا قد رجعوا إليها.

ونحن لا نطعن في أمانة المفسـرين أو كفـاءتهم، ولكن يظل كل تفسـير محكـوم بمحددات القدرة البشرية وما يزحف عليها من مؤثرات نفسية أو بيئية... إلخ.

ولعل أبسط ما يذكر في هذا الصدد أنهم لم يجدوا حرجًا في أن يملئوا كتبهم بكل الخرافات والدعاوى والروايات الإسرائيلية التي لا يقتصر الأمر فيها على الكذب، ولكن على أنها تتضمن من المعاني ما يعارض أو يشوه النص القرآني!!

وأسوأ من هذا أنه يـذهب بالإعجـاز القـرآني.. فالصـيغة القرآنية المحكمة بطابعها الموسيقى/ الفني/ السـيكولوجي والـذي تشـبه قطعة من السـكر المعقـود، قد أريقت في جـرادل من الميـاه المتعكـرة بالشـوائب والخـزعبلات.. وقد قـال الله تعـالى ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُـرْآنَ عَلَى جَبَـلٍ لَّرَأَيْتَـهُ خَاشِـعًا مُّتَصَـدِّعًا مِّنْ خَشْـيَةِ اللـهِ**﴾ [الحشر: 21] لأن القرآن (صـيحة) عالية تزلـزل الجبـال فما بالك بـالنفوس الـتي فيها آذان تسمع وقلوب تؤمن؟!!

لم يعد القـرآن كتـاب هداية يخلق النفـوس خلقًا جديـدًا، وإنما مجموعة أقاصـيص

وحكايات للتسلية، ووضع في قاعدتها "أسباب النزول" فالآية الفلانية نزلت لوقع حادثة معينــة، وخلاص!!، ومع أنهم لا يفتــأون يقولــون إن العــبرة بعمــوم النص لا بخصــوص الســبب، فــإن خصــوص الســبب ألقى غشــاوة ثقيلة على عمــوم النص وموضــوعيته وإطلاقه.

وتقبلوا – قالة النسخ – على أسس واهية وأحاديث ركيكة... وحكمــوا قواعد اللغة في القــرآن، في حين أن القــرآن وإن نــزل بالعربية فــإن له قواعــده الخاصة ليست فحسب فيما يتعلق بــالنحو، بل في صــياغة اللفظــة.. وكــأنهم تصــوروا أن الله تعــالى سيلتزم بما وضعوه من قواعد!

وقد تنتزع آية من سياقها للاستدلال بها فيما لا يمكن أن يتسق لو اســتكمل لها ما قبلها وما بعدها، أو تصبح مجافية لآيات أخرى عديدة!!

باختصار، وقف التفسير ما بين القارئ والقرآن، وحال دون أن تنطلق كلمات الله إلى القلب مباشرة بحرفها وجرسها وما توحي به.. فلم يحــدث القــرآن في المســلمين ما أحدثه في الصحابة عندما لم تكن هناك أمثال هذه التفاسير.

وللرســول كلمة بعيــدة المغــزى "**من قال في القــرآن برأيه فأصــاب، فقد أخطأ**" والذي أفهمه أن الرسول (ﷺ) عندما لم يســمح لأحد أن يقــول في القــرآن شــيئًا، وأن لا يتدخل أحد بين القارئ والقرآن.. كان يستبعد كل ما كان يمكن أن يأتي بتفسير.

إن عــددًا من العوامل بعضــها ذاتي يعــود إلى المفســرين أنفســهم وما اعتقــدوه، وبعضــها موضــوعي يمثل المجتمع الإســلامي في فــترة معينة فرضت نفســها وأوجــدت هــذه المجلــدات من التفســير.. ولكن هــذه العوامل بشــقيها الــذاتي والموضــوعي، قد انتهت الآن، ولم يعد مــــبرر للعــــودة إليها خاصة بعد أن ظهر الكم الــــرهيب من الإسرائيليات والدعاوى التي تطرقت إلى معظمها.

والمطلوب الآن من المسلمين أن يجعلوا علاقتهم بــالقرآن مباشــرة، وأن يفتحــوا عيونهم وقلوبهم له، وأن يقرأوه قــراءة تــدبر وتفكــير وخشــوع وإخبــات، وأن لا يعــودوا لفهم كل آياته إلى كتب التفسير، أو أن يخروا عليها – صمًا وعميانًــا، وعندئذ ســيخلقهم القــرآن خلقًا جديــدًا... وســيريهم آياته في أنفســهم.. فــإذا لم يجــدوا هــذا، فما قــرأوا القرآن حق قراءته...

***

وحدث للموقف من الرسول شيء قريب كالذي حدث للقرآن.. فلم يعد الرســول هو الأسوة، القدوة، العمل.. ولكن الحديث والسنة التي بنيت عليها الشريعة...

وكان الرســول قد أمر بعــدم كتابة كلامــه، ومحو ما قد يكــون قد كتبه البعض، وما يحتج به المحــدثون من جــواز الكتابة يحسب عليهم وينقض حجتهم، لأنه يعد ترخيصًــا لبعض الأشخاص على وجه التعيين (أبو شاه وعبد الله بن عمرو بن العاص) فيــدل على أن الأصل هو عدم الكتابة، وأن الترخيص إنما جاء لشخص بعينه، أو لخطبة بعينها، فضلاً عن أن الكتابة لدى هؤلاء ما كانت تعدو الحديثين أو الثلاثة...

وعلى كل حال فآخر القولين هو عدم الكتابة، بــدليل أن الســنن لم تكتب في عهد الخلفاء الراشدين، وقد فكر عمر بن الخطاب في كتابتها واستشــار الصــحابة فوافقــوا.. ولكن شيئًا ما حاك في صدره فطفق يستخير الله شــهرًا، ثم أصــبح يومًا وقد عــزم الله

له فقــال أني كنت أردت أن أكتب الســنن.. وأني ذكــرت قومًا كــانوا قبلكم كتبــوا كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وأني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا[22].

وبالإضــافة إلى نهي الرســول عن كتابة حديثــه، فإنه كــان يكــره لأصــحابه كــثرة السؤال وقد وضع لهم القاعدة الذهبية في الحديث المشهور:

"ذروني ما تـــركتم، فإنما أهلك من كـــان قبلكم بكـــثرة ســـؤالهم واختلافهم على أنبيائهم.. فإذا نهيتكم عن شــيء فــانتهوا.. وإذا أمــرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم...".

والتزم الصحابة بهذا التوجيه، فلم يكونوا يكثرون الأسـئلة، وكـان يعجبهم أن يـأتي الأعرابي من قلب الباديــة، لأنه كـان يسـأل فيعفيهم من أن "يقـترفوا" السـؤال الـذي نهووا عنه!

والذي أفهمه من نهي الرسول () عن كتابة حديثه، ونهيه الصحابة عن الإكثار من السـؤال، وكـذلك ما جـاء عن عمر وبقية كبـار الصـحابة في هـذا الصـدد أن الرســول المتــأدب بــأدب القــرآن والملــتزم بــه، لم ير أن أقواله تعد نصوصًــا تشــريعية ملزمة للأجيال المسلمة، شأنها شـأن القـرآن وإن لم يمنع هـذا أنها كـانت التصـرفات المثلى وقتئذ.

أما بالنسبة للمستقبل، ولكل المسلمين وليس للعرب فحســب، فإنه لم يضع لهم كتابًا، وكان يرى أن في الالتزام بكتـاب الله وما وضـعه الله تعـالى فيه من الأصـول ما يهديهم، وأنه ليس من الخير في شيء أن يقيدهم بتفاصيل قد تصــلح للحاضر ولكنها لا تصلح للمستقبل.

هـذا ما أفهمه بكل أمانة وإخلاص، وإلا فـإني لا أرى سـببًا آخر لنهي الرسـول عن كتابة حديثه ورفض عمر بن الخطاب كتابة "السنن" لأن فكرة الخوف من اختلاط كلام الرسول بآيات القرآن فكرة مستبعدة تمامًـا، لأن أي واحد له أقل إلمـام باللغة العربية يمكن أن يميز بداهة ما بين الصياغة الخاصة جدًا للقرآن وأسلوب الحـديث، فضـلاً عن أن كلمة عمر بن الخطاب صريحة في المعنى الذي ذهبنا إليه.

ولو كان في حديث رسول الله إلزام مثل إلزام القرآن لبـادر أبو بكر بجمعـه، كما جمع القرآن، ولما وقف عمر بن الخطاب موقفه أو قال قولته.

ولا ينفي هذا حـرص الخلفـاء على تطـبيق سياسـات الرسـول وأقوالـه، واعتبارها ملزمة، لأن أخذهم بها شيء، واعتبارها ملزمة أبد الـدهر وعلى أسـاس أصـولي شـيء آخر تمامًا.. فقد كان المكان والزمان واحدًا، ولم يجد من الأوضـاع ما يتطلب اختلافًـا.. وكـان من الطـبيعي أن يعـودوا إلى ما قـرره أو ما قاله الرسـول، وعنـدما بـدأت أولى المســتجدات في عهد عمر بن الخطـاب لم يـتردد هـذا في الأخذ بما تفرضه الأوضـاع الجديدة سواء كان من فارس أو الـروم أو من وحي تفكـيره أو نتيجة الشـورى، بل إن عمر بن الخطـاب لم يـتردد في "تجميـد" بعض النصـوص القرآنية عنـدما انتفت العلة كأبطاله سـهم المؤلفة قلـوبهم، وحد السـرقة في المجاعـة... إلخ فضـلاً عن اجتهاداته في تحريم الكتابيات والمتعتين، وكان في هذا كله يستلهم روح القرآن نفسه.

ولكن الســرعة الرهيبة الــتي نمت بها الدولة الإســلامية واختلاط الأجنــاس غــير العربية التي كانت معرفتها بالعربية محدودة، وكانت بالطبع متأثرة برواسب حضاراتها،

---

22 [?] لقـد ناقشـنا قضـية تـدوين السـنة في كتابنـا (الأصـلان العظيمـان) بشـيء من الإسـهاب في الصفحات من 268 – 275.

أعجلت المسئولين من أن يضعوا "فقهًا" أصيلاً يقوم على الأصول التي وضعها القرآن، كما لم يسمح الاضطراب الذي لبد خلافة عثمان وعلي لهذين بالقيام بهذه المهمة.. وأن المدة أيضًا لم تبعد عن عهد الرسول... كل هذه العوامل دفعت بالأئمة للأخذ بالسنة كأصل له قداسة الأصل القرآني...

وكانت هذه الواقعة التي تعود إلى الملابسات أكثر مما تعود إلى "الأصولية" نقطة تحول كبرى في تاريخ الفكر الإسلامي... لأنها جعلت "الحديث" قاعدة للفقه وشريكًا للقرآن في المعالجة واتخاذ القرار...

وهكذا بدأ الفقهاء يبحثون عن الحديث، وظهر بجانبهم المحدثون "المحترفون" – إذا جاز التعبير – فما أن ظهر الطلب حتى ظهر العرض، وبقدر ما يشتد الطلب بقدر ما تفتق الحيلة وسائل لكي يفي العرض بالطب فظهر بجانب المحدثين المحترفين أمثال أبي هريرة وابن عباس محدثون آخرون تولوا "وضع" الأحاديث، إما للوفاء بالطلب، أو للكيد للإسلام أو "حسبة كما ظن بعضهم" أو كما قال نحن لا نكذب على رسول الله، نحن نكذب لرسول الله!!

وكان من المفارقات التي أبرزتها الأوضاع أن أقل الناس صحبة للرسول هم أكثرهم حديثًا عن الرسول، وأن أعرقهم صحبة هم أقلهم حديثًا!!

أبو هريرة الذي أسلم السنة السابعة للهجرة وصحب الرسول ثلاث سنوات روى 5374.. أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري اللذان قالت عنهما عائشة "ما علم أنس بن مالك وأبي سعيد بحديث رسول الله، وإنما كانا غلامين صغيرين!!" فقد روي أولهما 1286 والثاني 1170، جابر عبد الله الذي خدم الرسول غلامًا روى 1540 أما ابن عباس الذي قبض الرسول وهو ابن ثلاثة عشر سنة على أحد الأقوال ولم يسمع من النبي إلا أربعة أحاديث فقد روي 1660 حديثًا.

في مقابل هؤلاء... أبو بكر روى 142 حديثًا، عمر 50، عليَّ 50، عثمان 146، أبي بن كعب 92 حديثًا!!

ولا يتسع المجال للحديث عن العوامل التي تحكمت في سياسات وأحكام المحدثين الذين جعلوا همهم "غربلة" هذا الكم الهائل، وما حفل به من وضع وتحريف... إلخ ولا جدال في أنهم بذلوا جهودًا مضنية ووضعوا أصول علم جديد، له معاييره ومقاييسه واصطلاحاته... ولكن هذا كله لا ينفي الحقيقة: اتسع الخرق على الراتق... وأصبح الحديث غابة بمعنى الكلمة، وأخمل القرآن، وأصبح هو – وليس القرآن – الأصل الحقيقي للفقه الإسلامي!!

بل إن الهيئات الإسلامية التي ظهرت في العصر الحديث هي من إنشاء السنة وليس من إنشاء القرآن!! [23].

بالإضافة، فإن الرغبة في الدفاع عن الإسلام وعرض بعض جوانبه بالطريقة التي يفهمها الروم والفرس، أدت ببعض العلماء لاستحداث علم الكلام والكلام على التوحيد والذات الإلهية بطريقة تختلف تمامًا عن طريقة القرآن.

ذاب القرآن في التفسير، وتحولت السيرة إلى سنة، تحولت بدورها إلى غابة كثيفة، واستحالت الرؤية الإسلامية التي كانت ميسرة أيام الرسول ولم يعد الحكم على الأمور من منطلق "الرؤية الإسلامية"، ولكن من منطلق المقدمات المعينة التي يأخذها هذا الأمر، والعلم المعني الذي يعود إليه من تفسير أو فقه أو حديث أو أحكام، وما

---

23 [(?)] هذه الأحكام هي التي أشرنا إليها في مقدمة البحث إذ لها طابع الأكثرية والأغلبية والصفة التقريبية، ولكن لابد منها لإبراز الطابع العام.

ذهب إليه أئمة المذاهب بصفة عامة من التشدد بدعوى إيثار "الأحوط" و"سد الـذرائع"، حتى فيما تعم به البلوى... بتعبير الفقهاء الأحناف.. كالطهارة والوضوء، فأكدوا أن تحت كل شــعرة جنابــة، وأنه لو تــرك من غسل الوجه واليــدين، ولو بمقــدار رأس أبــرة، فالوضوء باطل، والصلاة باطلة بالتبعية، وأن هـذا ينطبق على "المـانيكير" الـذي يحـول دون تلامس الماء للأظافر... إلخ.

إزاء هذا التغلغل في التفاصيل، وطابع التشدد أخذًا بالأحوط وسدًا للذرائع، لم يعد بوسع المسلمين أن يستخدموا المنطق، أو الأصول التي كـان يمكن أن تثمرها "الرؤية الإســلامية" لاتخــاذ القــرار في أي تصــرف، وأصــبح عليهم إما أن يســلحوا أنفســهم بموسـوعات الفقه والحـديث والتفسـير... الخ، وإما أن يسألوا الفقهـاء في كل كبـيرة وصغيرة، جليلة أو حقيرة، ومن هنا تضخم باب الأسئلة والفتاوى في الصحف الإسلامية أو العامة... حتى "حواء"! والمروء يتعجب من تفاهة ما يسألون عنــه، وتــوقفهم إزاءه، ويتعجب أكــثر مما يصــول به ويجــول الفقهــاء من كر وفر وعــود إلى كلام الفقهــاء الأقدمين واختلافهم.. إلخ.

وما هو الخطأ في هذا؟

الخطأ في هــذا إيقــاف اســتخدام مجموعة الأصــول الــتي تســتمدها "الرؤية الإســلامية" من روح القــرآن وروح الممارســات النبوية والــتي تعتمد أساسًــا على المعقولية والمنطق ومبــدأي العدالة والســماحة، اللــذين يمــيزان الرؤية الإســلامية، والشخصية الإسلامية، وبالتالي الاعتماد في اتخاذ القـرار على الغـير، الـذين قلما تـأتي ردودهم متفقة مع "الرؤية الإسلامية".

وقد كان لدى الصحابة "الرؤية الإسلامية" التي كـانوا يسـتطيعون أن يحسـموا بها أعقد القضـايا، وليست نقطة بـول، أو رأس إبـرة لم تعمها ميـاه الوضـوء، مثل قضـية التحسين والتقبيح التي كانت سـببًا في انشـقاق المعتزلـة، وظلت حـتى الآن من أكـبر قضايا الفقه الإسلامي.. هذه القضية لم تسـتحق أن يتوقف عنـدها النعمـان بن مقـرن رسول المسلمين إلى رستم الذي قال على البديهة وهو يتحدث عن الإسلام.. وهو دين يحسن الحسن ويُقَبِّح القــبيح... ففصل فيها على أســاس البداهة ورأي الصــحابة في القضاء والقدر قـوة دافعة لأنه إذا لم يصـبنا إلا ما قـدر الله لنا فلا معـنى للسـلبية ولم يسمحوا لقضية مثل الصفات أن تعكر صفوا إيمـانهم.. فكل هـذه القضـايا حلوها بحكم توفر "الرؤية الإسلامية" لهم.

وقد يروق لبعض فقهائنا عندما يريدون التنديد بأحد الكتاب أن يقولوا إنه "لا يعــرف فرائض الوضـوء أو أركـان الوضـوء"!! دون أن يخطر ببـالهم أن هـذا يمكن أن ينسـحب على ابن عباس الذي ما فتأ يقول إنه لا يرى إلا غسلتين ومسحتين!

فسواء كان الأمر قضية جزئية، أو قضية كلية... فإن افتقاد الرؤية الإسـلامية جعل المسلمين في تيه، وأفقدهم المعيـار السـليم الـذي يجمع ما بين الأصـولية الإسـلامية، والمنطقية العقلانية.

-4-

بين التقوقع والتميع[24]

القضية التي تتصدر الاهتمامات وتشغل الأوليات وتمثل الحرج والتحدي للطالب المغترب والعامل المهاجر هي كيف يمكن أن يتكيف مع ظروف هذا البلد الجديد أمريكا أوبريطانيا أو فرنسا..؟؟ كيف يمكن أن يحتفظ بتقاليده وعاداته وآدابه الإسلامية وفي الوقت نفسه يختلط بهذا المجتمع الجديد الغريب بحيث يستوعب دراسته ويؤدي مهنته ويتجنب المعوقات أوالحساسيات التي لابد وأن تثور أمامه بالنسبة لوضعه الخاص؟.

بعض الأفراد ما أن يواجه المجتمع الأوروبي/ الأمريكي حتى ينبهر فتتزلزل خلال أسابيع أو شهور العادات والتقاليد والقيم والمبادئ القديمة زلزالاً شديدًا. ثم تتهاوى أمام صور الإغراء ومظاهر التحلل ووسائل الاستمتاع ويحس أنه كان في "جره وطلع لبره" كما يقولون في ريف مصر... ويتفاوت ما ينتابه من تطور ما بين التميع الذي يصيب مقوماته والذوبان الذي يأتي عليها ويفقده شخصيته الخاصة.

ولكن يحدث في حالات أخرى أن تثير مظاهر الحياة الأوروبية/ الأمريكية قوى المقاومة في النفس خاصة لدى الذين نشأوا نشأة إسلامية عميقة فهؤلاء لا يستشعرون إعجابًا وانبهارًا بل يحسون عزوفًا وكراهية تؤدي بهم إلى نوع من التعصب والتقوقع والانعزال عن هذا المجتمع الكافر الضال المنحل!

وفي نظرنا أن المسلكين خاطئان.. فالمسلك الأول يقضي على الشخصية الخاصة للمغترب طالبًا أو عاملاً دون أن يكتسب – ضرورة – الشخصية الأوروبية الأمريكية – ويغلب دائمًا أن يستشعر نوعًا من النقص إزاء المجتمع الجديد الذي لم يبح له بكل أسراره ولم يفتح له كل أبوابه واعتبره رغم استعداده للذوبان دخيلاً. كما أن الرفض والتقوقع لن يمكن صاحبه من أن يفيد مما يقدمه المجتمع من مزايا وفرص وسيعسر عليه أن يحقق تمامًا ما جاء من أجله دراسة أو تجارة أو مهنة.

وقد نجد مثالين واقعيين للتطرف في الموقفين في عمال الشمال الأفريقي "من مغاربة وتوانسة وجزائريين" الذين ذاب كثير منهم في المجتمع الفرنسي وإن ضاق بهم المجتمع الفرنسي، وفي العمال الأتراك الذين يقيمون في أحياء خاصة من المدن الألمانية التي يعملون فيها ولا تجمعهم بالمجتمع الألماني إلا ساعات العمل ولا يلمون من الألمانية إلا بما يفي لتبادل الأحاديث الضرورية.

ولو تقصينا مواقف الأغلبية العظمى للطلبة والعاملين المغتربين لوجدنا أنها تذبذب ما بين التقوقع والتميع بنسب متفاوتة دون أن تتوصل إلى الموقف السليم لأن هذا الموقف السليم، وهو صعب وشائك وحساس، لا يمكن التوصل إليه بالتلقائية أو العشوائية أو الهوى أو حتى الاجتهاد الفردي، فهو مرتبط بعوامل موضوعية قدر ما هو مرتبط بنزعات ذاتية، وهناك عدد من المبادئ والأصول تحكمه وتحدده وتقيمه على أساس "أيديولوجي" أو على الأقل "مبدئي" بعيدًا عن الهوى والعواطف، وأهم هذه

---

24 (?) نشرت بمجلة "الطالب المغترب" بالولايات المتحدة، وتصدرها لجنة طلبة اتحاد القوى الشيعية (الشوريين التعاونيين) بالجامعات الأمريكية.

المبـادئ والأصـول هي ما يتعلق بالإسـلام الـذي يهمله البعض فيـذوب، ويتعصب له أو يسيء فهمه البعض الآخر فيتقوقع، لأن الإسـلام هو عصـمة المسـلمين جميعًا ومن هنا فإن من المهم إبراز المبادئ والأصول الإسلامية التي تؤثر على الموقف.

أولاً: أن المسـلم "النمطي" بـريء من عقـدة النقص أو نزعـة الاستعلاء..

بريء من عقدة النقص لأنه يعلم حق العلم أن دينه هو منتهى الأديان وأن رسـوله هو خـاتم الرسل وأن أي مقارنة ما بين كتـاب الإسـلام "القـرآن" ورسـول الإسـلام "محمـد" من ناحية وبقية كتب الأديـان الأخـرى ورسـلها لابد وأن تسـفر عن الأفضـلية المطلقة لكتاب الإسلام ولرسول الإسلام، وهو يعلم أيضًـا الآن الإسـلام اكتسح العـالم القديم اكتساحًا وحرره من إسـار القيصـرية الرومانية والكسـروية الفارسـية ونظمهما الطبقية الجائرة وأحل محلها "الكتاب والميزان" أي العلم والعـدل. وأن الإسـلام أنجب من الخلفاء والقادة ورجال الدولة ما عجز عن تقديمه الرومان القدامى أو الأوروبيـون المحدثون، وأن واقع "دولة المدينـة" المنـورة يفضل خيـال "جمهورية أفلاطـون"، وأن المجتمع الإســلامي الأول أوجد عظمــاء العلمــاء في الرياضة والطبيعة والهندسة ومختلف العلوم إلى آخر أمجاد الإسـلام الـتي لا يتسع لها المجـال. وهو ثانيًا بـريء من نزعة الاسـتعلاء والزهو لأنه يعلم أن هـذا كله من الله تعـالى وأن الفضل فيه إلى الله وحده وأنه تعالى عندما آثر المسلمين بهذه النعم فأنه ربطها بقيام المسلمين بـواجبهم فإذا أخلـوا به حرموها وظفر بها غـيرهم ممن هو أحق بها لأن الأرض لله يورثها عبـاده الصـالحين كما أنه يعلم حق العلم أن الشنشـنة بالأنسـاب أو الأجنـاس أمر يسـتبعده الإسلام تمامًـا، وأن الشـعوب جميعًا سـواء دون تفرقة والله تعـالى لا ينظر إلى ألـوان الناس أو أجسامهم ولكن إلى التقوى منهم ولهذا فإنه لا يستشـعر اسـتعلاء أو عدوانية أو زهوًا أمام الآخرين.

ثانيًا: يرتبط بالصفتين السابقتين وينشأ عنهما أن أصـبح للإسـلام طبيعة موضوعية وليست ذاتية..

بحيث تكون "الحكمة ضـالة المـؤمن ينشـدها أنَّا وجـدها" وبحيث لا يجد الرسـول حرجًا من أن يقـول بالنسـبة لموسى وبـني إسـرائيل "نحن أحق به منهم " وانظر إلى موضوعية ونزاهة القرآن عندما يتحدث عن الخمر والميسر ﴿ **يَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِرِ قُـلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِـيرٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَـرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ [البقرة: 219] وكذلك ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْـدِلُوا اعْـدِلُواْ هُـوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ [المائدة: 2] و﴿ **وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْـيَاءَهُمْ**﴾ [الأعـراف: 85] والإسلام هو دين الحق وهي الكلمة التي يعبر بها القـرآن عن الموضـوعية. إن القضـية هي أن الإسلام في حد ذاته يـدعو إلى الحق وحيثما يكـون الحق يكـون الإسـلام بل إن الله تعالى سمي نفسه "الحق" ومن هنا كان الحاكم الكافر العادل أفضل وأقــرب إلى الإسـلام من الحـاكم المسـلم الظـالم لأن الظلم انتهـاك للحق وأي انتهـاك للحق هو انتهاك للإسلام وأي قيام بالعدل هو تطبيق للحق أي للإسلام.

ثالثًا: إن الإسلام ليس عبادات فحسب..

إن العبادة ليست إلا مكونًا واحـدًا من مكونـات الإسـلام. ومن المكونـات الأخـرى العمل وما يرتبط بالعمل من صلة بالمجتمع أو علاقات بين الناس من وفاء بالالتزامات وصـدق في المعـاملات وإحسـان في الأداء, ومن مكونـات الإسـلام الشـريعة وكل ما يدخل في عالم السياسة والاقتصاد والقانون وإتاحة الحرية والطمأنينة للنــاس وتحقيق

العدالة إلخ.. فالإسلام لا يقتصر على العبادة، ولا هو يتمحور حولها.

والإسلام ينفي الحرج عن المسلمين ما أمكن ذلك ويعتبر التيسير أصلاً من أصوله وهو يعترف بالضعف البشري ولا يفترض في المؤمنين العصمة ويقنع منهم أن لا يرتكبوا "كبائر الإثم والفواحش" وتوقع استسلامهم للضعف البشري في صغار الذنوب التي أطلق عليها القرآن "اللمم" ووضع طريقة معينة للتعامل معها هي أن الحسنة تجب السيئة "إن الحسنات يذهبن السيئات" و"اتبع السيئة الحسنة تمحها" ورحب بالمذنب المستغفر.

إن استيعاب هذه الأصول والإيمان بها يعين الطالب المغترب والعامل المهاجر على تكييف موقفه في المجتمعات الأوروبية فلن يستشعر الدونية التي تجعله يذوب ويتلاشى في هذا المجتمع، ولن يحس بالاستعلاء الذي يدفع به إلى الرفض والترفع والاعتزال، ويستشعر أنه فرد من أسرة البشر ومن المجتمع الإنساني وأنه يقدر ما توجد من عوامل للفرقة فهناك أيضًا عوامل للوحدة فنحن وهم من أم واحدة وأب واحد ونحن وهم ندين بأديان سماوية حتى وإن حافت الكنائس ورجال الدين والمصالح المكتسبة على روح المسيحية السمحة، وحقيقة أنهم ليسوا مسلمين أمر لا يزعجه البتة لأن هذا هو ما أراده الله وما أوضحه في القرآن مرارًا وتكرارًا.. وقد وجهنا الله تعالى للتعارف وأمر أن لا يحملنا شنأن العدوان على الظلم أو على أن نبخس الناس أشياءهم ووجهنا لأن نلتمس الحكمة في مظانها وأن نطلب العلم ولو في الصين فمكاننا وسط هؤلاء الناس الذين تختلف ألسنتهم وبشراتهم وعاداتهم وطرائقهم ليس أمرًا مستغربًا ولكنه التطبيق لدعوة القرآن في السير في الآفاق والتعارف بين البشر وطلب الحكمة والعلم من مظانها فلا يجوز أن نسمح للكره أو الهوى أن يتحكم فينا فلا نستشعر ضعفًا أو ذلة نحوهم ولا نظلمهم حقهم أو نبخسهم أشياءهم.

داخل هذا الإطار العريض نستطيع أن نعالج بعض التفاصيل منها..

قضية الزِّي: ليس الزي جزءً من العقيدة ولكنه يعود بالدرجة الأولى إلى العادات والتقاليد وضرورات المناخ وطبيعة العمل وصناعة الأنسجة والملابس، فلا يتصور أن نلبس في المناطق الباردة ما نلبسه في المناطق الحارة أو أن نقتصر على ما كان عليه الحال قبل ظهور التطورات الضخمة في صناعة الأنسجة وتفصيلها إلخ. وليس هناك ما يمنع من أن نلبس ونحن في دار الهجرة ما يلبسون خاصة وأن من الكياسة أن لا نثير الشكوك والريب حولنا، أو أن نوجد جوًا يغلب أن يكون عدائيًا بحكم الزي الغريب.

وبالنسبة للمرأة المسلمة فالمفروض أن تلتزم بآداب الحشمة الإسلامية وهذا لا يعني ضرورة التمسك بالحجاب المألوف وإذا أرادت أن تستر شعرها فيمكن أن ترتدي قبعة تحقق المطلوب ويجب أن نتذكر أنه قد كان من أسباب الحجاب "ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" وهي الحكمة نفسها تُملي صرف النظر عن الحجاب التقليدي حتى لا يؤذين، المهم أن لا يكون هناك تبذل أو تبرج "الجاهلية الأولى".

الأكل والشرب: يحرم الإسلام كما هو معروف – لحم الخنزير كما يحرم شرب الخمر وليس هناك صعوبة في اجتنابهما تمامًا وسيمكن للطالب المغترب أن يلم بالأطعمة التي يدخلها لحم أو شحم الخنزير فيتجنبها وليس هناك أقل حرج في هذا فمن الآداب المرعية دائمًا ترك الحرية لكل واحد في أن يأكل ما يشاء ويختار دون أي أفتيات عليه فهذا شأن الخاص, كما لن يشق عليه أن يمتنع عن الخمر فهناك كثيرون يمتنعون أو يقلون من الخمر ويتمتعون بالتقدير والاحترام فالطعام والشراب ليس فيهما إعنات كبير لا للمغترب ولا للمجتمع الأوروبي الأمريكي نفسه.

الحياة الاجتماعية والعلاقة بالمرأة: إن دخول المرأة في المجتمع الأوروبي

بالصورة الـتي نعرفها قد يوجد حرجًا شـديدًا للطـالب المغـترب في حـالات عديـدة، فقد يدعي إلى حفلات راقصة تعقدها اتحادات الطلبة وغيرها في مختلف المناسبات ويصعب على الطـالب المغـترب مقاطعتها لأن ذلك يمكن أن يمس وضـعه في الجامعة أو يعطي انطباعًا معينًا عنه، والأمر في الحقيقة يتطلب قدرًا من الكياسة فيمكن الاعتذار عن أشد هذه الحفلات ابتذالاً، ويمكن حضور البعض الآخر والاعتــذار عن مراقصة زميلاته بمختلف الحجج والأعذار، فإذا لم يكن بد فليعتبرها من اللمم "وقد أعتبر بعض المفسرين أن من اللمم القبلة والضمة" وليكفر عنها بعد ذلك بما يستطيع من حسنات من صــدق وإخلاص وخدمة لإخوانه، وله أسوة بالرجل الذي قال للرسول إنه مارس مع إحدى النســاء ما هو دون الزنا فسكت عنه الرسول حتى قامت الصلاة وصـلاها الرجل معه فلما أعـاد الرجل مسألته قال الرسول ألم تصل معنا؟ إن الحسنات تذهبن السيئات.

العلاقات الجنسية: هذه هي أشد القضايا حرجًا وإرهاقًا للطالب المغـترب وقد يرى فيها تحديًا يكون عليه أن ينتصر بإيمانه عليه فيسمو بغرائــزه ويوجهها نحو مختلف المجالات السليمة، ولكن هذا إن صدق بالنسبة لواحد فإنه يصعب بالنسبة للآخرين لأن الغريـــزة غلابة والطـــالب المغـــترب والعامل المهـــاجر قد يقضي في دار غربته بضع سنوات في ريعان الشباب ووسط المغريات ولن يكون مفر من إقامة علاقات جنسية، وقد وضع الإسلام الحل لهذه القضية ولكن المسـلمين لا يريـدون الإفـادة من الرخصة التي قررها ومن الحل الذي وضعه الرسول وفرضوا على أنفسـهم العنت الـذي رفضه الرسول ﴿**لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**﴾ [الحجرات: 7] وهذا الحل هو ما يطلق عليه الفقهـاء "نكـاح المتعـة" وكلمة المتعة في حد ذاتها توضح لنا كيف تجــرد المسلمون الأول من "العقد" التي اسـتبعدت ألفـاظ المتعة والاسـتمتاع والتمتع كما لو كــانت خروجًا على ســمت الإســلام وما ينبغي له من حفــاظ، والله تعــالى أعلم من المؤمـنين بأنفسـهم وهو يعلم من النـاس ما يخفـون وهو أقـرب إليهم من حبل الوريد وقد رخص الرسـول ﷺ بهـذا النـوع من الـزواج المحـدد المـدة وجعل أحكامه كأحكـام الـزواج باسـتثناء المـدة وقيل إن الرسـول ﷺ نهى عنه بعد ذلك ولكن المسـلمين ظلـوا يمارسـونه طـوال خلافة أبي بكر وجـزءًا من خلافة عمر حـتى نهى عنه عمر وحرمـه.. وتحريم عمر يفهم منه بوضـوح أنه هو الـذي حرمه وليس الرسـول ولو كـان نهي عمر مبنيًا على نهي الرسول لما احتاج إلى أن ينهي هو ولأحال الأمر على نهي الرسول فهو أولى، ويكاد يكون من المحقق أن عمر رضي الله عنه خشي إسـاءة اسـتخدام النـاس لهذه الرخصة فبادر بسد بابها وكـان مصـيبًا في اجتهـاده هـذا، ولكن التحليل والتحـريم مردهما إلى الله تعـالى وليس إلى أحد من البشر وتحـريم عمر لها لا يعـني اسـتمرار تحريمها إذا جدت الأسباب الـتي من أجلها رخص الشـارع فيها وهو ما نعتقد أنه ينطبق على الحالة التي نحن بصددها، حالة المغتربين.

واستخدام هذه الرخصة سيحل عددًا من المشكلات فسييسر وضع الغريزة محلها وبطريقة مشروعة بعيدة عن الزنا الكريه وقد يسـتطيع أن يهـدي الزوجة إلى الإسـلام وهو "خير من الدنيا وما فيها" ومسألة الأولاد الشائكة التي كانت أصعب ما في القضية يمكن استبعادها لسهولة وسائل تنظيم النسل "وهو بدوره مشروع ما لم يتخلق جنين" ولن يترتب عليه ما يترتب على الزواج العادي الدائم من مشـكلات عويصة "خاصة في أوروبا وأمريكا" عند الطلاق في حالة فشله ولن يثير هذا الأسلوب ضيقًا لـدى الطـرف الآخر لأنه هو نفسه لا يريد التـــورط في زواج دائم قبل التثبت ولأن للـــزواج المحـــدد المدة أنصار كثيرون يقدرونه ليس كرخصة ولكن كمرحلة قبل الزواج الـدائم وقد وضع ليون بلوم الزعيم الاشتراكي الفرنسي كتابًا كبيرًا يدعو فيه إلى هذه الفكـرة ويسـميها زواج التجربة ولها أنصار عديدون في الولايات المتحدة مثل القاضي لندسي وغيره.

وبهــذه الطريقة يمكن للطــالب المغــترب أن يحل أزمته الجنســية طــوال مــدة

دراسته حتى يأووب إلى بلده أما بالنسبة للمهاجر هجرة دائمة فإن زواج المتعة سيقدم له الطريقة الوحيدة المشروعة للتوصل إلى الزوجة الصالحة التي يمكن أن يحيي معها إلى الأبد...

***

إن هذا القسم الأول من المقال لا يتعرض لجانب هام من هذه القضية يتعلق بالأقليات المسلمة التي تطالب بأن تندمج في المجتمع الأوروبي/ الأمريكي بحيث يتقبلها هذا المجتمع فيمن يتقبل من أقليات ومن ثم يمكنها أن تطمئن إلى أوضاعها ومستقبلها، ولعل هذا هو ما يهمنا فيما نحن بصدده، إذ سيمكنها هذا من المشاركة في وضع سياسات وخطط هذا المجتمع داخلية وخارجية بما يتفق مع الخطوط الإسلامية ومصالح المجتمعات الإسلامية وحركات التحرر الإسلامي.

إن الأخذ بفكرة الاندماج يجب أن يكون عن طريق "استراتيجية" بعيدة المدى لها أهداف قد لا تتم إلا في المستقبل البعيد وبعد عدة أجيال، ولكنها ما لم تتخذ الآن فلن يتحقق بالطبع المطلوب منها والذي لا يمكن لغيرها أن تحققه والزمن بعد أمامنا ولا نستطيع أن نفر منه. ونظرية الإسلام كلها تدور حول إيثار الآجلة على العاجلة.

إن الاندماج في المجتمع الأوروبي – الأمريكي قد يتطلب الأخذ بمعظم مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه لا يتطلب – ضرورة – الأخذ بها كلها. وسيكون على الأقليات الإسلامية أن تضع خطة محكمة ومحددة، وأن تتوفر لها الشجاعة للأخذ بما لا مناص من الأخذ به، والحكمة التي تحول دون تجاوز هذا القدر. وسيفيدها أن تدرس تجربة الشعب اليهودي في المجتمع الأوروبي – رغم وجود بعض الاختلافات... إن اليهود استطاعوا ليس فحسب أن يتغلغلوا في المجتمع الأوروبي/ الأمريكي، بل أيضًا أن يسيطروا على فكر هذا المجتمع.

وقد يكون من مفاتيح هذه الخطة التزوج من أوروبيات وأمريكيات بعد إسلامهن لأنهم هن اللائي سيقدمن الأزواج المسلمين إلى المجتمع الأوروبي.. ومع أن المقاييس الشرقية والإسلامية عن المرأة تختلف عن مقاييسها في المجتمع الأوروبي فمن الخطأ أن نأخذ الفكرة عنها من السينما أو مما تقدمه مجلات الفضائح والابتذال والجنس... إن المجتمع الأوروبي – الأمريكي يقوم على الحرية – وسمح ذلك بظهور القلة التي تؤثر الشهوات أو تكسب منها، ولكن المرأة الأوروبية مع هذا يمكن أن تكون زوجة ممتازة إذا أحبت زوجها وإذا أسلمت "وهذا شرط رئيسي لنجاح الخطة كلها" وهذه هي مسئولية الزوج المسلم ويمكنه أن يظفر بعقلها وقلبها إذا تمسك بالخلق الإسلامي من صدق ووفاء ومروءة وشجاعة وأمانة.. إلخ.

وقد يتطلب الأمر الأخذ بأسماء أوروبية والأسماء لا تهم ونحن نجد من المحدثين من يحمل اسم "إسرائيل" و"داود" و "يعقوب" و"إسحق" و"موسى" و"بن جريج" ويحمل المسلمون أسماء الأنبياء جميعًا دون تفرقة.

كما سيتطلب الأمر الأخذ بالزي الأوروبي ومجاراة بعض تقاليد الحياة الاجتماعية بالصورة التي أشرنا إليها من قبل.

وفي الوقت نفسه فمن الضروري للأقلية الإسلامية في أوروبا وهي بالدرجة الأولى مسئولية الرجل – الزوج والأب..

البعد عن المحرمات صراحة كشرب والخمر وأكل لحم الخنزير والزنا.

ممارسة الصلاة وصيام رمضان مع ملاحظة أن الزوجة والأبناء لن يستطيعوا – دائمًا – المواظبة التي يفترضها المسلم ولكن هذا التفريط سيستدرك ما ظل الأب – الزوج مواظبًا وموجهًا الزوجة والأبناء إلى الصلاة والصيام وسيهديهم الله الذي هدى "ثقيف" من قبل مع تقدمهم في العمر واتزانهم في الحكم والأمور بخواتيمها فلا يبخع نفسه ولا يحدث معهم قطيعة فيتعجل السيئة قبل الحسنة.

الحفاظ على اللغة العربية بأن يتحدث بها الأب في المنزل مع الأبناء ويعلمهم إياها من الصغر ولا يهمل هذا الواجب فإنه سيكون الرباط بينهم وبين عالم الإسلام بحيث يمكن للأبناء أن يتحدثوا ويكتبوا العربية وهذا فيما شاهدت هو أصعب الأمور وما يقصر فيه معظم الآباء مع أنه أهمها، ولو أن الأب تحمل بعض التعب في سبيل ذلك لكتب له النجاح لأن للأطفال ذاكرة لاقطة وسيتعلمون العربية ما دام أبوهم يحدثهم بها كما سيمكنه أن يعلمهم القراءة والكتابة وشرط نجاح ذلك أن يتم في سنوات الطفولة الأولى، وأن يواصله الأب دائمًا كما أن من الخير زيارة الموطن الأصلي كل سنة مرة وقضاء فترة في المجتمع العربي الإسلامي. وأن يكون بالمنزل مكتبة عربية يشغل فيها "المصحف" مكان الصدارة وكما شاهدنا فإن الجيل الثاني – أي أبناء المغتربين، خاصة المتزوجين من أوروبيات يكاد ينبت عن المجتمع الإسلامي لأن الأب أهمل تعليم أبناءه اللغة العربية فقطع الصلة التي تربط الأبناء بالعالم الإسلامي وأهمل غرس فكرة الانتماء الإسلامي في نفوس أبنائه. ومقارنة إهمال الآباء المسلمين بحرص الآباء اليهود يوضح جريرة الأولين.. فقد حرص اليهود على تعليم أبناءهم "اليديش" وهي اللغة العبرية الأوروبية وفرضوا على المجتمع الأوروبي ما يتطابق مع دينهم بعد أن تمكنوا من التغلغل فيه مع أنهم كانوا عرضة للاضطهاد وكان اسمهم ملوثًا وذلك لأنهم سلكوا استراتيجية طويلة المدى تعني بالجوهر أكثر مما تعني بالمظهر. وعندما قابلت سفيرة إسرائيل في موسكو "جولدا مائير" زوجة مولوتوف عبرت هذه عن سعادتها البالغة بمقابلة سفيرة إسرائيل لأنها "بنت الشعب اليهودي" وأنها تتحدث "اليديشية" التي خاطبت بها جولدا مائير بعد ذلك.

يجب أن توجد تجمعات وتكتلات وتنظيمات تضم شمل الجالية الإسلامية وتعني بمشاكلها وتساعدها للتغلب عليها وتطمئن على مُضِّي الاستراتيجية الموضوعة.

وهناك ملاحظة أخيرة وهامة تلك هي أن هذه التجربة لن تنجح ما لم يستقر في نفوس المقدمين عليها نوع من التقدير والتقبل للمجتمع الأوروبي الأمريكي يقوم على النزاهة في الحكم وسعة الأفق والاعتراف بالحسنات إلى جانب السيئات وأنه وإن كان الساسة وأصحاب المصالح في هذا المجتمع من أسوأ الناس وأنهم ارتكبوا الموبقات في سياستهم الخارجية وسلكوا سبل النهب والسلب إلخ. فإن معظم شعوبهم بعيد عن هذه الجريمة وبريء منها وظهر الكثيرون الذين يعارضون هذه السياسات كما أسهم علماؤها ومفكروها في التقدم بمستويات الحياة إلى الدرجة التي لم تبلغها البشرية من قبل. ويجب على الجالية الإسلامية أن تؤمن فعلاً أن هذه البلاد قد أصبحت وطنهم الأول، وأن وطنهم الأصلي قد أصبح هو الوطن الثاني، وأن عليهم أن يخدموا هذا الوطن الأول بصدق وإخلاص كمواطنين صالحين "بافتراض اكتسابهم الجنسية التي يمكن اكتسابها في العادة بعد قضاء فترة معينة أو التزوج من أوروبية" وأن يقدموا لهذا الوطن إضافاتهم، ولن يمنع هذا من أن يقفوا ضد أي سياسة تمس أوطانهم الأصلية أو المجتمعات الإسلامية لأن هذا يدخل في باب الحرية السياسية وعليهم أن يستبعدوا تمامًا تلك الفكرة التي تخطر للسذج من المسلمين من أنهم سيكونون في الجنة وسيكون الأوروبيون "الكفرة" في النار لأن الذي يحكم

في هذه القضـية هو الله تعـالى ورحمته وسـعت كل شـيء فلا داعي للأفتيـات عليها **قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُـونَ خَـزَائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَـكْتُمْ خَشْـيَةَ الإِنْفَـاق** [الإسراء: 100] فضلاً عن أن الأوروبـيين لم تبلغهم الـدعوة الإسـلامية كاملـة، أو على وجه التحديد ومن المحتمل أن لا يحاسبهم الله تعالى لذلك وأن يحاسـبنا على إهمالنـا، وقد لا يدخلون الجنة ولكننا قد ندخل النار لإهمالنا. كما أن الأوروبيين قد يكونون أقرب إلى بعض جوانب الإسلام من المسلمين أنفسـهم، والأصل في المسـيحية الإيمـان بالله واحد أما حكاية الأقـــانيم الثلاثة فشـــيء لا يفهمه إلا رجـــال الإكلـــيروس، فلا ينقص الأوروبيون إلا الإيمـان برسـالة محمد ويغلب أن لا يرفضـوها لو بلغـوا بها بلاغًا حسـنًا فليست الشقة بينهم وبين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ببعيدة كما قد يبدو..

إذا لوحظت الخطة التي أجملناها لمـدة مائة سـنة مثلاً فيحق لنا أن نتوقع ظهـور جاليـات إسـلامية قوية في المجتمعـات الأوروبية وأن يكـون بين الـوزراء والمسـئولين شخصيات إسلامية بارزة ولنا أن نتوقع انتشارًا للإسلام في أوروبا وتغييرًا ملموسًــا في السياسـات الأوروبية تجـاه الإسـلام والدولة الإسـلامية، فـإذا راجعا "حسـبة" المكسب والخسارة فلا مراء في أنها صـفقة رابحة فقد ضـحينا ببعض المظـاهر الثانوية وكسـبنا للإسلام جمهورًا ولسياسته تأييدًا.

نقول هـذا ونحن نعلم أن نسـبة ضـئيلة هي الـتي سـتؤمن به أما الأغلبية العظمى فستقول **بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**.. [البقرة 170].

***

-5-

الإسلام خط الدفاع الأخير
في مواجهة الإذابة

نشرت بمجلة "جسور" التي تصدر في الولايات المتحدة، "ربيع 1994" وجاء بمقدمتها:

"يعتزم الأستاذ جمال البنا إصدار كتاب بهذا العنوان يعالج فيه موضوعه بقدر من الإسهاب، وقد آثر "جسور" بهذا المقال الذي يتضمن بعض أفكاره الرئيسية...".

حُم القضاء..

ووجدنا أنفسنا في مواجهة خطر ما حق يصغر أمامه ما تعرضنا له في القرن التاسع عشر عندما دمرت مدافع الأساطيل الأوروبية حصون المواني الإسلامية، ودخلت جيوشها أراضينا، واحتلت عواصمنا في الشمال الأفريقي، ومصر وسوريا والعراق وإيران وبقية الدول الإسلامية...

الخطر الذي يحيق بنا اليوم ليس خطر الاحتلال العسكري البغيض، الذي كان على فجاجته ملموسًا يمكن مجابهته وجهًا لوجه... فإذا حصدت البنادق صفًا حلت محله صفوف.. لم يعد القتال على الأرض، أصبح في السماء وأصبح قوى غير منظورة يمكن أن تدمر كل شيء... صواريخ تنطلق من حاملات الطائرات في عرض المحيط، أو طائرات دون طيار... إلخ.

وهذا التقدم الرهيب في فنون القتال ليس إلا ضلعًا واحدًا من أضلاع "مربع الإذابة"، وتعود كلها إلى التطور السياسي والتكنولوجي.. وأضلاع هذا المربع هي:

قوة عسكرية قاهرة لا يمكن لأي دولة إسلامية، أو حتى لمجموع الدول الإسلامية مقاربتها، دع عنك مغالبتها، وساعد على هذا أن التقنية العسكرية هي أعلى صور التقنية وأبهظها تكلفة.. فطائرة "الشبح" تتكلف بضعة مئات من ملايين الدولارات، وقد يكون من المفارقات أن تستعيد شركات السلاح بعض مواردها من بيع الأسلحة المتخلفة إلى العرب والمسلمين، ولا قيمة لها بالطبع أمام الأسلحة الأمريكية المتطورة!.

تقدم تكنولوجي في وسائل الإنتاج لا يمكن منافسته واحتكار أسراره والحيلولة دون تسربها، وهو يقوم على استخدام العلوم من كيمياء أو طبيعة أو كهرباء... إلخ، وبهذا التقدم توصل الغرب إلى وسائل صنع وأداء، بل وإلى "تخليق" المواد التي تعوزها، أو التي لا توجد في الأرض بالتكوين المطلوب.. والتوصل إلى مصادر للطاقة، وإن كانت تفضل أن تستنزف طاقة المسلمين – البترول – أولاً...

وتوضع الخطط الاقتصادية والمالية لمساندة التقدم التكنولوجي، كاتفاقية الجات، والشروط التي يضعها صندوق النقد الدولي على السياسات الاقتصادية للدول التي تريد مساندته، بحيث تجد الدول الإسلامية نفسها مقيدة تكنولوجيًا واقتصاديًا وماليًا.

فكر حضاري – دعائي/ سيكولوجي يعرض عبر قنوات التليفزيون والأقمار الصناعية.. إلخ، وقد قدر أحد الكتاب أنه ستوجد قريبًا ما يقرب من خمسمائة ألف

قناة تليفزيونية تبث كلها أنباء أو أحاديث أو ثقافات أو صورًا من الفنـون لا تعـرف حـدًا تقف عنده.. كلها بـأعلى درجة من التقنية اللامعـة، الجاذبـة، الآسـرة، وكلها تعمل على تمييع شخصية المواطن المسلم بحيث تذوب مقوماته شيئًا فشيئًا.

وتنشر أجهزة البث التليفزيوني هـذه الصـور الاسـتهلاكية، الاسـتمتاعية، للحضـارة الأوروبية دون أن تشير أقل إشارة إلى ما تطلبه ذلك من عمل دائب، أو علم نافذ.

خط سياسي رئيسي يقوم على الشك في الدول الإسلامية، والنظـرة إليها نظـرة "دونية" والتفرقة بينها وتفتيت وحدتها إلى دويلات على رأس كل منها أمـير له حـرس، وعلم، وسـلام! وإضـرام النعـرات العنصـرية، ولا مـانع من التحـرش بها أو إشـعال نـار الحرب فيما بينها بين آونة وأخرى، كما حدث ما بين العراق وإيران، والعراق والكويت، ومساندة متمردي جنوب السودان!.

***

بتلاقي هذه الأضلاع الأربعة، بعضـهما ببعض، يتكـون مربع الإذابة الـذي يكـون أشـبه بحوض كبير يتدفق فيه حامض كبريتيكي يذيب القيم وكـذلك المقومـات، بل حـتى بعض الخصائص البدنية للسكان بحيث يكونون – في النهاية – عجينة يمكن للغرب أن يشـكلها كما يشاء ويتحكم فيها كما يريد.

وليس هذا هو كل شيء...

إن هذا المربع يعمل تحت مظلة الشرعية الدولية المزعومـة، وهي الـتي ظهـرت نتيجة لتفكك المنظومة الاشـتراكية الـتي كـانت توجد نوعًا من "الثنائية القطبيـة" في السيادة الدولية، فأفسح تحللها المجال للقوة الرأسمالية التي تمثلها الولايات المتحدة، وتملكها نوع من الغرور والزهو قد يمثله ما ذكره الكاتب الياباني/ الأمـريكي عن "نهاية التـاريخ!"، أو ما أشـار إليه القـرآن الكـريم "يحسب أن ماله أخلـده"... وتحت مظلة مزعومة، مصنوعة بدأت الولايات المتحدة ممارسات هي في حقيقتها نوع من العربـدة أو القرصنة الدولية، تعيد إلى الذهن سياسات روما في العهد القديم، وسلطت أسـلحة جديـدة لم يكن للعـالم بها عهد كالمقاطعة الـتي تفرضـها على دولـة، فتشل الطـيران إليها، أو إمدادها حتى بالغذاء!.. وطبق ذلك كله بوحشية على العراق، وليبيـا، بحيث لم تستطع مصر – وهي أقرب الدول إليها، وذات المصلحة المباشرة – أن تفعل لها شيئًا، وانصاعت الأوامر المقاطعة.. وفي الوقت نفسـه، فأنها تسـكت على وحشـية الصـرب وتراوغ، ووضعت قائمة "للدول المساندة للإرهاب" تضع فيها من تشاء!.

وتتخذ الولايـات المتحـدة من إسـرائيل وكيلاً عامًا مفوضًـا في التعامل مع الـدول العربية، بعد أن غرستها في قلب المنطقة، ومكنتها من الاسـتحواز على أحد أقداسـها، وزودتها بالسلاح، وساندتها في كل ما تفعـل، حـتى أصـبح هـذا القـزم الضـئيل مـاردًا.. وهكذا تفعل إسرائيل فإنها تمد يدها لتشد إحدى جاراتها لكي تتفق معها وتذعن لها!.

وبتأثير هـذه القـوة الضـاغطة، وتشـرذم الـدول العربية والإسـلامية، واسـتخذائها، اسـتطاعت إسـرائيل أن تقفز بعـدد سـكانها من مليـون إلى قرابة خمسة ملايين، وأن تقضي على مقاومة الدول العربية واحدة تلو الأخرى، وأن تـدخل في معاهـدات معهـا، وهي اليوم تتهيأ لخطوة جديدة هي أن تجعل من منطقة الشرق الأوسط – كما يقولون – سـوقًا للمنتجـات الأوروبية الـتي تمولها وتشـرف على سياسـتها إسـرائيل، بحيث

يُستلحق اقتصاد المنطقة، وإنتاجها في الزراعة والصناعة والتجـارة باقتصـاد إسـرائيل، والرأسمالية الصاعدة!

وهكذا نجد مربع الإذابة يحتوي الدول العربية الإسـلامية تدفعـه، وتحميه إسـرائيل من ناحية، والولايات المتحدة من ناحية أخرى!

أين المفر؟!!

العدو في البر، والبحر، والجو!

العدو يطبق على الاقتصـاد، والصـناعة، وما هو أهم تشـكيل العقل العـربي وإذابة الشخصية الإسلامية ومقوماتها الحضارية!

تبدو الصورة قاتمة مظلمة...

ولكن من أشد ساعات ظلمة الليل، ينبثق الفجر...

إن السياسيين ورجال الاقتصاد وكثيرًا من المفكرين في الدول الإسلامية لا يـرون حلاً أو فرارًا إلا الاستسـلام، وعـزاؤهم هو أنهم سيسـتحوزون على الجـزء الأعظم من فتات المائدة، وهو وإن كان فتاتًا، إلا أنه يكفيهم وزيادة، وهم بعد رجال "الممكن"، وما من الممكن مناص، ورجال الأرقام، والأرقام لا تخطيء!

والأوروبيـون والأمريكيـون لا تخـالجهم الشـكوك في استسـلام المنطقة بعد أن أطبقت عليها الشبكة واحتواها "مربع الإذابة" لأنهم يفهمـون الإنسـان ما بين "الإنسـان الاقتصادي" الذي يعمل بوازع الربح وتحرك آليات السوق.. والإنسان "الفرويدي" الذي تحكمه الغريزة الجنسية، وتدفع به بعد عمل اليوم الشاق ولتعويض روتينية هـذا العمل إلى إثارة عاطفية جنسية يجد في نهايتها الاسترخاء من توترات اليوم!

إن إنسـانًا مثل هـذا لابد وأن يستسـلم بكليته إلى وازع الـربح من ناحية وغريـزة الجنس من ناحية أخرى، ولا يدور في ذهنه فكرة الثورة عليهما. والأوروبيون يتصـورون بقية النــاس كــالأوروبيين.. ما أن يوضــعوا بين وازع الــربح وغريــزة الجنس حــتى يستسلموا.

ولكن الأوروبيين – بما فيهم من سياسـيين ورجـال اقتصـاد – ينسـون عـاملاً هامًا يوجد لدى ناس المنطقة ولا يوجد لدى أوروبا، هو "الإسلام".

وإنما أهمله الأوروبيون المعاصـرون لأن أوروبا "وثنيـة" لم يظهر فيها الأنبيـاء من أولى العزم ليعرفوها على الله، وقام بذلك الفلاسفة والشـعراء والأدبـاء الـذين صـنعوا "وجدان" أوروبا ودينهـا، أما المسـيحية الـتي تـدعيها، فليست إلا قناعًـا، أو ثوبًا احتفاليًا تلبسه نصف سـاعة كل أسـبوع.. وقد كـان السياسـيون الأوروبيـون في القـرن التاسع عشر أكـثر ذكـاء ونفـاذًا في فهم الأمـور، فقـدروا للـدين في الشـرق قـدره، لكن السياسـيين الأوروبـيين اليـوم اسـتغرقتهم إنجـازاتهم في التقنية والاتصـالات وعلـوم الفضــاء والــذرة والكومــبيوتر.. إلخ فتصــوروا أنه ما من قــوة يمكن أن تقف في مواجهتها...

***

الإسلام اليوم هو خط الدفاع الأخير في مواجهة الإذابة...

لماذا؟..

لأن أهم ما يجب أن نحـرص عليه الآن هو أن نـرفض الإذابـة، ونتحصن من تـأثير

عوامل الجــذب، وأن نحتفظ بشخصــيتنا ســليمة، وتفكيرنا موضــوعيًا، بحيث يمكن أن نفكر في الطريق التي يمكن أن ندفع بها هذه الجائحة، ورأسنا فوق الأمواج المتدفقة.

هذا هو أول وأهم ما يجب أن نحرص عليه...

وهذا هو مـالا نجـده الآن إلا في الإسـلام، لأن الإسـلام هو أبـرز مقـوّم لشخصـيتنا المستقلة وإرادتنا الحرة، وهو الوحيد الباقي بعد أن فقدنا حريتنا السياسـية واسـتقلالنا الاقتصادي.

إذ مـا الـذي يمكن أن يجعـل لنـا شخصـية مسـتقلة محصـنة من الإذابة؟..

قد يقـال اللغـة.. ولكن الإذابة تُقـدم باللغة العربية أيضًـا عـبر الإذاعـات الأوروبية والأمريكيـــة.. ثم أن الصــــورة والنغم – وهما من أعظم معـــدات الإذابة ومؤثراتها – يتجاوزا اللغة، لأنهما تخاطبان العين والأذن مباشرة ودون محاورة.

واللغة العربية، بعد، هي بنت الإسـلام، ولـولا القـرآن لتمـزقت اللغة العربية أشـلاء، ولأصبحت لهجات لا تفهم أو لغات مستقلة على مـدار ألف وخمسـمائة عـام منذ ظهـور الإسلام!

هل تكفي **"القومية العربية" أو التكتلات الإقليمية (الاتحـاد المغـاربي/ مجلس التعاون الخليجي/ جامعة الدول العربيـة..** إلخ لقد أتضح تمامًا أن هـذه كلها لا تقوم على أساس، وتجارب الوحدة الفاشـلة، وتعـثر جامعة الـدول العربية خـير شاهد على ذلك!

العادات، التقاليـد.. كلها مرنة يمكن أن تتطـور وتسـاير ما لم ترتبط بحـذر أقـوى وأعرق منها، وليس إلا الدين...

في مواجهة هــذا، نجد أن الإســلام يقـــدم الحماية المطلوبة كأفضل ما يمكن أن تقدم، بحيث لا يكون سدًا أصمًا، قد يغلبه الذكاء، ولكن سدًا واعيًا ذكيًا يمكن أن يمتص العناصر المغذية، المفيدة في الحضارة الأوروبية، وينفي خبثها في الوقت نفسه.

إن الإسلام – وهذه ميزته – لا يصد عادية الإذابة فحسـب، ولكنه يغـرس قـوة في نفس الإنسان، ويفتح له أبواب وسبل الحلول.

ذلك لأن الإسلام يعرض الله تعالى وما يشتق منه من قـدرة على الخلـق، وكمـال في الإبداع، وقيم ومثل عليا من حب أو عـدل أو خـير أو سـلام، وما يرسـيه من سـنن يسـير عليها الكـون والمجتمـع، وما يرمز إليه من إطلاق وخلـود وموضـوعية يحن إليها الإنسان الضـعيف الممـزق، كما يحن الابن لأمه الـتي من رحمها ولدتـه، وعلى صـدرها أرضعته، وفي أحضانها حمته.

يجد الرسول الذي يجسد المثل الأعلى، قائدًا ومشرعًا وحاكمًا وأبًا وزوجًا ورسولاً إلى العالمين... يجد تلك الكوكبة من الصحابة التي ظفرت من التقدير بما لم تظفر به كوكبة أخـرى في التـاريخ "أصـحابي كـالنجوم، بـأيهم اقتـديتم اهتـديتم"... إنهم الـذين خلفهم الإســـلام خلقًا جديـــدًا، وأوجد فيهم أبا بكر وعمر وعلي وأبا عبيـــدة وخالد بن الوليد...

يجد منظومة من المبادئ والأصول وضعها الإسلام وتجري معادلة دقيقة، وتسوية محكمة بين الفرد والمجتمع والطبيعة، تحقق السكينة في الفرد، والسلام في المجتمع، والتواؤم مع الطبيعة، وتصنع للحياة غاية.

أين يجد إنسان هذه المنطقة، أو إنسان العالم الثالث المستهدف للإذابة عوضًا عنه أو بديلاً منه؟ وأين يجد الشمول والأحكام والعراقة التي للإسلام؟.

إن الإسلام وحده هو القوة الباقية التي يمكن أن تعصم إنسان المنطقة من إذابة العالم "التكنتروني".

كيف...؟

أولاً – هو يحول دون أن يصاب المسلم بصدمة الانبهار، تلك الصدمة التي تجعله "كالموقوذة" لا يكاد يقف على قدميه.. إن المؤمن بالله حقًا لا يدهشه ولا يبهره أي شيء آخر، لأنه من خلق الله، ومن ثم فإن المسلم يحتفظ بذهنه صافيًا، وبتفكيره سليمًا، يعمل عقله الإيماني، وليس ثمة تعارض ما بين العقلانية والإيمان، بل إن الإيمان هو أول ما تسلم به العقلانية الموضوعية الحكيمة.

إنه بفضل إيمانه يستطيع أن يحدد موقفه ويتخذ قراره أمام هذا السيل العرم الحديث.

قد يكون هو أولاً – مقاطعة الكثرة الكاثرة مما تدفع به الأسواق والأبواق. وهو إجراء وإن كان سلبيًا، إلا أن المؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يقفه، لأن إيمانه يعصمه من الإغراء وعوامل الجذب والانبهار.

ولا نجد حرجًا في أن نستشهد بواقعة من التاريخ البريطاني، لأن طبيعة الإيمان واحدة.. وهذه الواقعة تصور لنا كيف يحقق الإيمان غايته، تلك هي قصة "ليدي جوديفا" التي عاشت في القرن الحادي عشر وطلبت من الحاكم أن يرفع مظالمه عن سكان إقليمها في كوفنتري Coventry فوضع لذلك شرطًا هو أن تسير عارية في شوارعها، وقبلت ليدي جوديفا.. وفي اليوم الموعود أغلق تجار البلدة جميعًا محالهم، وأغلق أهلها شبابيك بيوتهم بحيث أصبحت الشوارع خالية تمامًا كما لو كانت الحمام الخاص لليدي جوديفا.. وفشلت مؤامرة الحاكم في أذلاها!.

وقد نذكر أيضًا تجارب غاندي في المقاومة والعصيان المدني التي أجبرت بريطانيا على التعاون معه والاعتراف به.

وأثر الإسلام أعظم من هذه جميعًا، لأن الإسلام منهج حياة، وهو يعترف بكل ما يؤثر على الحياة الدنيا ويفرزها ما بين صالح وطالح، حسن وسيء، خير وشر.. وهو يعترف أيضًا بكل ما هو صالح وحسن وخير ويعمل له.. ومن ثم فليس هو بالدين السلبي الذي يتجاهل الحياة، ولكنه الدين الإيجابي الذي يتعامل مع الحياة على هدى وبصيرة، ويستطيع أن يأخذ من الحضارة الحديثة ما يتفق معه، وهذه الحضارة ليست من إبداع أوروبا بالكامل، فقد أسهم فيها المصريون القدماء، كما أسهم فيها العلماء المسلمون، فهي حضارة البشرية، ومع أن أوروبا طوعتها وختمتها بخاتمها، فإن عملية الانتقاء، والتمييز والتمحيص لن تكون عسيرة.

بل يمكن أن نقول إن الإسلام يدفع المؤمنين به لمحاولة اختراق المجتمع الأوروبي والتأثير عليه.. لأن ما يعرضه من قيم هي ما يمكن أن ينقذ هذا المجتمع من بعض أزماته.

وبالنسبة لإسرائيل فهل يعقل أن توجد جزيرة صغيرة من خمسة ملايين وسط

بحر هادر يزيد عن المائة مليون؟.

إن كل حقائق الجيوبوليتك وتجارب التاريخ تؤكد استحالة استمرار الـروس الـذين استقدمتهم إسـرائيل من أقصى روسـيا البـاردة، لتضـعهم في فلسـطين الحـارة.. ولو وضـعت اسـتراتيجية عربية إسـلامية طويلة الأمد لإعـادة هـؤلاء الـروس إلى بلادهم، فنجحت!

كان جمال الدين الأفغاني يقول "الاستعمار عارية" بمعنى أنه مهما وجد، فلابد أن ينحسر!

وقد ظلت بعض الولايـات الصـليبية في "الشـام" لمـدة قـرنين، وحكمت فرنسا الجزائر لقـرن ونصـف، وسـاد الـبيض جنـوب أفريقيا طـوال ثلاثة قـرون... ولكن في النهاية لا يصح إلا الصـحيح، ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَـدُ فَيَـذْهَبُ جُفَـاءً وأَمَّا مَا يَنفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [17 الرعد].

-6-
نحو إطار لا مركزي... لحماية وحدة الأمة الإسلامية [25]

أصبح من الواضح لكل ذي عينين، أن الولايات المتحدة الأمريكية بسلسلة من المناورات، وكنتيجة للتطورات السياسية الأخيرة التي أدت إلى تفكك الاتحاد السوفيتي الذي كان يتقاسم معها القوة والنفوذ وينافسها في السياسة الخارجية، قد انفردت اليوم بالقوة وتمكنت أخيرًا من أن تصبح الدولة الوحيدة التي تهيمن – ولو لمدة ما – على شئون العالم!!

ولما كان من المعروف والمسلم به أن الولايات المتحدة الأمريكية تخضع لتأثير "اللوبي اليهودي" المسيطر على الإعلام والسياسة الأمريكية.

ولما كانت الولايات المتحدة وإسرائيل "حلف استراتيجي" وأن الولايات المتحدة تعلن في كل مناسبة أن تأييد إسرائيل هو خط من خطوط السياسة الأمريكية المقررة.

ولما كانت الولايات المتحدة من ناحية ثانية تهدف للسيطرة على منابع البترول في المنطقة العربية، وترى هذا ضمانًا لصناعتها واقتصادها وأمنها...

لما كان هذا كله من الأمور المقررة في السياسة الأمريكية.. فإن انفرادها بتقرير السياسة الخارجية للعالم لابد وأن يسير في اتجاه احتواء الدول العربية وتجريدها من كل عوامل القوة التي تمكن هذه الدول من أن تقف في وجه السياسة الأمريكية المدعمة لإسرائيل والطامعة في البترول، ولابد أن نتوقع أن يصبح هذا الاتجاه هو الاتجاه المقرر الذي "تمليه المصالح" على الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يمكن أن تقف أمامه التوسلات أو العواطف أو القيم أو المثل... إلخ.

لم يطل بنا العهد حتى بدأ تطبيق هذه السياسة في حرب العراق، بعد استدراجها لغزو الكويت. وقد لا نجد مثيلاً في التاريخ الحديث يشبه "جبروت" الولايات المتحدة وصلفها وتصميمها على تدمير العراق والقضاء على كل المرافق والخدمات والصناعات تدميرًا يجعل العراق يعيش ما قبل الثورة الصناعية – كما قالوا – مما يوضح أن القضية لم تكن أبدًا (تحرير الكويت) وأن دعوى تحرير الكويت كانت وسيلة لاستلحاق الكويت (ومعها منطقة الخليج) وتدمير العراق.

إن الولايات المتحدة اليوم تمارس ما قامت به روما نحو قرطاجنة والشعار الذي رفعته "لابد من تدمير قرطاجنة" ولم يهدأ بالها إلا عندما أصبحت قرطاجنة خلاء يهيم فيه البوم والغربان!!

قبل أن تنتهي آثار حرب العراق، بعثت الولايات المتحدة من ملفاتها القديمة قضية طائرتين اتهموا ليبيا بتدميرهما لإشراك بريطانيا وفرنسا في المؤامرة.. وعجزت كل العروض التي قدمتها ليبيا لتسوية الموضوع.. وبدأت العقوبات!!

ووسط المؤامرات التي تشن على ليبيا، بدأت الولايات المتحدة تعد العدة للعدوان على سوريا، وفيما بين ذلك ترسم السياسات التي توهن الصحوة الإسلامية

---

[25] (?) نشرت بمجلة "منبر الشرق" القاهرية عدد رمضان 1413 – مارس 1993 ومن الحق أن نقول إن صاحب فكرة (إطار لا مركزي) هو الأستاذ إبراهيم الوزير المفكر اليمني البارز ورئيس اتحاد الشوريين التعاونيين باليمن.

في كل مكان، في العدوان على البوسنة، ومحاصرة السودان، وتأليب القوى المضادة، ووضع العراقيل أمام المجاهدين في أفغانستان.. وقد أصبحت السياسة الدولية اليــوم، كما كانت في القــرن التاسع عشــر، عنــدما كــانت المــؤتمرات الأوروبية تعقد لاقتســام آسيا وأفريقيــا، أو لتعــديل القســمات الســابقة وما يحــدث في البوســنة مما يشــيب له الولدان دليل آخر على ذلك.

من المسلم به أن الولايات المتحدة ما كان يمكن أن تقوم بهذه العربدة الدوليــة، لولا التطورات السياسية التي حرمت دول العالم الثالث من مناصرة الاتحاد السوفيتي الذي كان يجد مصلحته في معارضة السياسة الأمريكية.. ولكننا مع التسليم بهــذا، فإننا نقطع بأن الولايات المتحدة ما كانت تجد الجرأة والصلف، لولا أن في النظم السياسية الداخلية للــدول العربية فســادًا، جعل القيــادات في واد، والجمــاهير والقواعد في واد آخر.. وبهذا حرم القيادات من المناصرة الحقيقية للجمــاهير، كما ســمح للقيــادات بــأن تــرتكب أخطــاء فاحشة وقــرارات مقهــورة أملتها العواطف أو المطــامع والسياســات الفردية القصيرة النظر!!

نعم.. لابد أن نعترف – للأسف الشديد – أن حكــام معظم الــدول العربية يتخــذون القــرارات المصــيرية دون شــورى حقيقيــة، ودون دراسة متأنيــة، ودون مناقشة لكافة أبعاد هذا القرار.. وأن هؤلاء الحكام أحاطوا أنفسهم بعصابات وبطانــات من المتملقين أو أصحاب المصالح لا يألونهم خبالاً وعندما ظهــرت العــواقب الســيئة لهــذه القــرارات الفردية باءت بأوزارها الشعوب والجمــاهير الــتي لم يؤخذ رأيها فيهــا، ولا كــانت توافق عليها لو أخذ رأيها.

ولو كانت البناء الداخلي للنظم العربية سليمًا والصفوف متماسكة، والعلاقــات ما بين الحكــام والشــعوب تتسم بالشــورى والديمقراطية لما اســتطاعت أمريكا أن تصل إلى طائل، وقد هزمت من قبل في فيتنام، كما هزم الاتحاد السوفيتي أمام المجاهدين في أفغانستان.

أمام هذا الواقع المحزن، وما يؤذن به المستقبل من ويلات تهدد البقية من الكيان العربي والإسلامي وجدنا أن علينا أن نبدع وسيلة نقف بها هذا الطوفان حتى يؤذن الله بتغــير الأحــوال ويظهر على الســاحة الدولية من ينــاطح الولايــات المتحــدة الأمريكية ويشغلها!!

والحل الوحيد أمامنا هو أن نوجد إطــارًا من الهيئــات والــدعوات والمفكــرين.. إلخ الذين يكون الإسلام محور دعوتهم، يعمل بالوسائل الجماهيرية ويستخدم الدبلوماســية الشــعبية ويحــول – أو على الأقل يــؤخر – هــذا العــدوان الــذي يهــدد بالتهــام الــدول الإسلامية.

وليس أمامنا خيــار، لأن مناشــدة النظم الحاكمة أصــبحت لا تجــدي، رغم ما تــراه بأعينها من جراء سياستها، والمشكلات التي حاقت ببعض الدول العربية نتيجة لاستبداد حكامهــا، فهــذا بــاب مغلق للأسف الشــديد، وليس هنــاك فائــدة من مناشــدة الضــمير الدولي، واللواذ بالشــرعية الدولية المزعومــة، وحــتى هــذا فلكي ينجح، لابد من هيئــات قوية منظمة تقوم به وتمارس ضغوطًا في سبيله.

ونعتقد أن القضــية الحقيقية أمامنا ليست هي القــرار نفســه، ولكنها التوصل إلى عوامل نجــاح هــذا القــرار، خاصة وقد ســبقته تجــارب فاشــلة بحيث ظن أن الثمــرة الوحيدة التي تتمخض عنها المــؤتمرات هي اتخــاذ قــرارات وتوصــيات على الــورق، ولا تساوي الحبر الذي كتبت به.

هـذه هي القضـية الحقيقيـة، ولكن تجاربنا العديـدة الماضـية في أسـباب إخفـاق المؤتمرات والتكتلات السابقة، تجعلنا نعمل على تجنبها في محاولتنا الجديدة، بحيث لا تنتكس ولا تلحق بأخواتها السـابقة.. وسـنعرض فيما يلي الضـمانات الـتي تكفل نجـاح المشروع:

من أهم الضـمانات، أن نتقبل الهيئـات والـدعوات الإسـلامية بعضـها بعضًـا، على علاتها، كما هي، فلا نرفض واحدة لأنها لا تتفق معنا في بعض ما تذهب إليــه، ولا نحكم عليها بالخطأ لذلك.. إن المهم هو شيء واحد، هو أن تؤمن بالشعار الجامع **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** فما دامت تؤمن به فقد دخلت حظـيرة الإسـلام واكتسـبت عصـمته أما ما وراء ذلك من تفاصـيل وخلافـات فلا تضـر.. فضـلاً عن أنها أمر حتمي متـأتي من تفـاوت الإفهـام والتصـورات، ومن اختلاف البيئـات والملابسـات. وقد تقبل الرسول الاجتهـادات المختلفة وأقر أن يحكم الإنسـان فيما لم يـرد فيه قـرآن أو سـنة باجتهـاده، بل وجعل للمجتهد المخطئ حسـنة.. ورفض الإمـام مالك أن يحمل النـاس على الموطأ، وآثر أن يترك كل مصر وما لديهم من علم، وليس هناك ما هو أعظم في تأصـيل الاختلاف بين النـاس، وأنه ضـرورة لا منـاص منها من قـول الله تعـالى ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [**119: هود**]** ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً﴾ [**48 المائـدة**]** ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود آية 118].**

من أجل هـذا لابد أن نتنـازل عن فكـرة الوحـدة، أو حـتى الاتفـاق في الجزئيـات والتفاصــيل، وما يجــوز لنا أن نتمسك به أنهم جميعًا مسـلمون..,هــذا ما يتــوفر لهم بالإيمان بالشهادتين، وأنهم أيضًا حريصون على إنقاذ أمة الإسـلام، وحمايتها من الغـارة الأوروبيـة/ الأمريكيـة/ الإسـرائيلية.. وهـذا أمر تكنه الضـمائر، ولا يمكننا الحكم عليه إلا بالمواقف المعلنة، والعمل الثابت.

ونحن نرجو إخواننا جميعًا أن يدرسوا بعمق مواقف وسياسـات الرسـول صـلوات الله وسـلامه عليه بـدءًا من صـحيفة الموادعة الـتي وضـعت الحجر الأول في سياسة الدولة الإسلامية، حتى الحديبية، وفتح مكة.. وكيف أن الضرورات كانت تلزم الرســول التعامل معها بسعة أفق، وبمرونـة، وباتخـاذ القـرارات الـتي كـان الصـحابة أنفسـهم لا يلمون أولاً بحكمتها.. إن الرسول يعـرض لنـا.. رجل الدولـة. كأفضل وأروع ما يكـون.. فليكن لنا في رسول الله أسوة حسـنة، ولنتخلص من التعصـبات والتشـنجات الـتي لم يأت بها الإسلام، ولا يتسع لهـا، أو يسـمح بها العصر والظـروف الحرجة القاسـية الـتي تمر بها أمتنا الإســـلامية.. وليقبل كل واحد منا الآخــــر، على ما هو عليه فنحن جميعًا نعمل من أجل هدف واحد...

وقد يذكر في هذا الصدد فكرة التقارب بين الدعوات الإسـلامية، وقد كـانت فكـرة التقـــارب مطلوبة في الأربعينـــــات ولكنها الآن ليست أفضل ما يطلب، لأنها صــــعبة ومحدودة النجاح لتمسك كل فريق بما لديـه، ولعـدم الاتفـاق على المعيـار الموضـوعي للحكم بينهـا، وليست هي الآن المطلوبة وإنما المطلـوب هو الاتفـاق السـريع على صد العـدوان.. وعنـدما يهـدد وجـود الدولة الإسـلامية العـدوان فلا يجـوز أن نضـيع الـوقت للتقريب بين الشيعة والسنة أو بين الزيدية والحنابلة.. إلخ.

ما دامت كل هيئة سـتتقبل كل هيئة أخــرى بــروح طيبة واحــترام لحرية الفكــر، وتقـدير لضـرورات الاختلاف، فلن يكـون هنـاك داع لمحاولة هيمنة هيئة على الهيئـات الأخرى، أو فرض نفسها على الإطار المطلوب.. إن هذا لا يحدث إلا عندما تكون الهيئة موفـــدة من حكومتها للـــترويج لسياسة هـــذه الحكومـــة، وتفنيد ما عـــداها ومقاومة

المعارضين.. **وسيؤدي هذا لا محالة إلى فشل المشروع وتمزقه.. ولهذا فمن الضمانات الهامة أن تكون الهيئات والدعوات المؤسسة للإطار هيئات شعبية مستقلة عن حكوماتها لا تتخذ من عضويتها في الإطار وسيلة لترويج سياسة حكوماتها..** ولقد شاهدنا مؤتمرات عديدة توافرت لها كل مقومات النجاح تقريبًا، باستثناء هذا العامل، فلم تغن عنها شيئًا وباءت بالفشل في النهاية.

نحن لا نريد أبواقًا للحكومات، والسنة للحاكمين، نحن نريد إيمانًا إسلاميًا بقضية هي أقدس القضايا قاطبة، لأنها قضية الأمة الإسلامية.. وقد ترتكب حكومة ما خطأ وفي هذه الحالة يجب على الإطار بما فيه هيئات هذه الدولة أن تطبق الأمر النبوي **"أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"** ونصرته ظالمًا بكفه عن الظلم. وهذا وإن كان يبدو للوهلة الأولى مسيئًا إلى هذه الحكومة، فإنه في المدى البعيد في صميم مصلحتها، إذ لو تُقُبِّل هذا الخطأ، لقاد إلى خطأ آخر، فثالث حتى تأتي النهاية المحتومة.. وعندئذ لا ينفع أن نقول:

"ألا ليتنا كنا، إذ الليت لا تغني".

مما يتفق مع الضمانات السابقة وروح هذا الإطار، أن يأخذ شكلاً لا مركزيًا في إدارته وسياسته، إذ لا يمكن أن يقوم إطار دولي يعمل بروح ديمقراطية إلا على أساس لا مركزي إذ لو كان مركزيًا لتطلب هذا بالطبع هيمنة ورئاسة أحد أعضائه على بقية الأعضاء وهو أمر استبعدناه، وقد كان سبب فشل معظم التكتلات الإسلامية في العصر الحديث، وفي العصر القديم أيضًا.. ولو أمكن إدارة الخلافة إدارة لا مركزية، لما حدث الانقسام وظهور الدول الإسلامية التي أعلنت استقلالها عن الخلافة في مصر والأندلس وإيران فدرس التاريخ هو أنه لا يمكن إدارة هيئة دولية على أساس مركزي، لأن المركزية لا تسمح بالمرونة.. ونود أن نشير أن فكرة اللامركزية كانت هي الحل الذي انتهى إليه أحرار العرب في مستهل القرن العشرين كمحاولة لإبقاء الدول العربية في إطار الخلافة على أن يكون لها نوع من الاستقلال الذاتي، وتكون حزب اللامركزية سنة 1910، واتخذ من القاهرة مقرًا له، وكان نائب رئيسه هو السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، وللأسف فإن غلاة الترك الذين أرادوا تتريك الدولة رفضوا عرض العرب الذين أرادوا أن لا يفصموا علاقتهم بدولة الخلافة رغم كل الأخطاء التي وقعت فيها الدولة التركية..!!

ولعل أقرب الهيئات إلى الإطار المقترح هي محاولة عبد الرحمن الكواكبي التي أخذت شكل مؤتمر أم القرى وسجلها في كتابه (أم القرى) مضابط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة عام 1316.. وقد ضم المؤتمر مندوبين من مختلف الدول الإسلامية شرقًا وغربًا وتدارسوا في أسباب ضعف المسلمين، وما هي طرق النهضة بهم.. وها هو ذا قرن كامل من الزمان قد أوشك أن يمضي على هذه المحاولة المجهضة، ولو رزقت النجاح أو قامت ما يماثلها فلربما خلص العرب والمسلمون من بعض ما حاق بهم من الويلات.

والآن.. نأتي إلى النقطة الهامة، إلا وهي رسالة ودور هذا الإطار، والغاية التي من أجلها تأسس، والوسائل التي ينتهجها لتحقيق هذه الغاية...

أما الغاية، فهي الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وحمايتها من غائلة الهجوم الذي تتعرض له على أيدي قوى الاستكبار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتعميق الصلات فيما بينها بمختلف الطرق بتيسير المواصلات الجوية والبرية والبحرية وتكثيف التبادل الثقافي وعقد اللقاءات... الخ وتدعيم التعاون الاقتصادي بينها بحيث يمكن أن تكفي نفسها بنفسها ولا تتعرض لهزات مالية، ولا يؤثر عليها حصار اقتصادي،

ولا تضـطر لتسـول غـذائها وكسـائها من الآخـرين.. إن البلد المسـلم أولى بـالقرش المسلم...

وماذا في يد الإطار المقترح لتحقيق هذه الأهداف؟

إن الإطـار، وإن لم يملك جيشًـا أو أسـطولاً، فإنه لو بـني على الأسـاس السـليم المنشود وصدقت النيـات والعـزائم، يمكن أن يمـارس ضـغوطًا قوية ويقـوم باتصـالات فعالة بحيث يسمع العالم صوته، ولا يكتفي في هذا بالكلام، بل بما يتخذه من إجراءات يملكها...

إن النقابات العمالية والمهنيـة، ورجـال الإعلام، والكتـاب، والصـحفيين، والفنـانين يملكون دون شك قوى ولديهم وسائل فعالة على المستوى القومي والعالمي فلماذا لا تكون الاتحادات فيما بينها لتنسيق سياساتها؟

إن الأموال التي يملكها أفراد مسلمون وعـرب في المصـارف الأجنبية تبلغ مئـات المليارات... وإذا أمكن إقناع بعض هؤلاء باستثمار أمـوالهم في الـدول الإسـلامية بـدلاً من وضـعها في أيـدي أعـداء الإسـلام... فـإن اقتصـاديات العـالم الإسـلامي يمكن أن تنتعش...

وماذا على المسلمين، أفرادًا وحكومات، لو استثمروا مائة مليار دولار – وهو مبلغ يمكن أن يوفره عشرة من أثرياء المنطقة النفطية – لمد شبكة من الخطوط الحديدية أو المواصلات في السودان والنهضة بتصنيعه، إنهم لو فعلوا لو فروا للعـالم الإسـلامي كله غذاءه، ولنهضوا بالسودان، ولأوجدوا منه دولة تنافس كندا والولايـات المتحـدة في إنتاج الحبوب والقطن...

ماذا لو استثمر كذا مليـاردير مسـلم أمـوالهم في دور نشر تعمل على المسـتوى الإسـلامي، وتصل العـالم الإسـلامي بعضه ببعض ثقافيًا أو وكالة للأخبـار.. أو أقـاموا شركة للملاحة الإسلامية تعمل على تيسير الرحلات والزيارات السياحية ما بين الـدول الإسـلامية بعضـها بعضًـا بحيث يتحقق قـدر من التواصل يمكن مع الـزمن أن ينمو ويكبر...

هذه كلها مشروعات اقتصادية مجزية.. وإذا تعرضت لبعض المخـاطر، فقد تكـون هذه المخـاطر أقل من المخـاطر الـتي تتعـرض لها الودائع في البنـوك الأمريكية نتيجة لهبوط قيمة الدولار أو القيود التي تحيط بها عمليات السحب، وهي بعد تصب في تيـار التقارب الإسلامي..

دستور إسلامي وضعه أحد أفراد النظام الخاص للإخوان المسلمين
في الأربعينات

في عام 1950، عندما نظرت محكمة جنايات القاهرة القضية التي حملت اسم "قضية السيارة الجيب" (قضية النيابة العمومية رقم 3394 الوايلي، سنة 1950 ورقم 22 سنة 50 كلي) أثارت النيابة وجود وثيقة حررها المتهم الأخير وضبطت في مركز الإخوان المسلمين تضمنت تصورًا للحكم الإسلامي اقترح كاتبه أن يكون النظام "جمهوريًا اشتراكيًا" وأن ينتخب رئيس الجمهورية مدى الحياة، وارتكزت عليها في إلصاق تهمة قلب نظام الحكم بالمتهمين.

والمشروع الذي قدمته النيابة للمحكمة لا يتسم بعمق أو تماسك، ولا حتى يأخذ شكل البحث العلمي أو الأكاديمي.. ولكن أهميته لا تأتي من قيمته العلمية، وإنما من الاتجاه العام الذي يختلف كل الاختلاف عن الاتجاهات الذائعة الآن، عن دستور إسلامي.. ومن هذه الناحية فإنه يصور التحول الذي حدث للفكر الإسلامي خلال الفترة من 1952 – 1980، وهذا هو "مربط الفرس" كما يقول المثل.. وهي النقطة التي ستكون محل تعليقنا بعد عرض التصور نفسه، والتمهيد له بكلمة عن "قضية عربة الجيب".

قضية عربة الجيب:

هذه القضية التي تعود أحداثها إلى 15/11/1948 والتي نظرتها المحكمة في ديسمبر 1949 ويناير وفبراير 1950، تعد من أكبر القضايا السياسية، ومن نقط التحول في تاريخ الإخوان المسلمين، لأنها وضعت ببساطة، وبصورة غير متوقعة أو منتظرة، وبحكم المصادفة، كل وثائق وأوراق "النظام الخاص" في أيدي البوليس السياسي الذي ما إن اطلع عليها حتى تكشف الجوانب الخافية لنشاط النظام الخاص للإخوان المسلمين.. وفسر عددًا كبيرًا من الأحداث التي وقعت آنذاك.

وقد تحدثت المحكمة التي نظرت القضية عن ملابسات ضبط "عربة الجيب" فقالت (في الحكم الذي أصدرته):

"ومن حيث إنه في يوم الاثنين 15 نوفمبر 1948 حوالي الساعة 2.45 بعد الظهر، كانت سيارة من طراز "جيب" يركبها بضعة أشخاص تسير ببطء في شارع جنينة القوادر بجهة الوايلية ووقفت أمام المنزل رقم 38 فاشتبه البوليس الملكي صبحي علي سالم – الذي كان مارًا في ذلك الوقت – في أمرها إذ لم تكن تحمل أرقامًا، وكان بها صندوق وحقائب في وقت كثرت فيه حوادث النسف في القاهرة، فأمر راكبيها الذين كانوا نزلوا منها بأن يلزموا أماكنهم.. ولكن هؤلاء فزعوا لهذه المفاجأة، وركنوا إلى الفرار تاركين السيارة بما فيها، واتخذ اثنان منهم سبيلهما ناحية شارع عبده باشا فتبعهما وهو يصيح بأنها "صهيونيان" يحملان قنابل، فانضم إليه بعض المارة في تعقبهما حتى تمكنوا من القبض عليهما، وتبين أنهما المتهمان الحادي عشر والثاني عشر أحمد عادل كمال، وطاهر عماد الدين.

"وضبطت في هذه السيارة كميات من المواد الناسفة من أنواع مختلفة كالجليجنايت والـ بي تي أن وعشرات من القنابل وست لفات من فتيل الإشعال

المـؤمن وثلاث لفـات من فتيل الإشـعال البرتقـالي ومـدفع "سـتن" وثلاث خزنـات له وسـبعة وعشـرون مسدسًـا من أنـواع مختلفة وأربعة خنـاجر ومئـات الطلقـات النارية وعـدد كبـير من المتفجـرات الكهربائية وست سـاعات زمنية وقنـاع أسـود ولغم.. كما ضبط أيضًا بها أوراق عديدة لها أهميتها سيأتي بيانها فيما بعد..".

ضبط مصطفى مشهور وحافظة أوراقه:

"وبعد نحو ثلثي ساعة من ضبط هذه السـيارة، شـوهد شـخص يحمل حافظة من جلد يسير في شارع عبـده باشا متلفتًا مرتبكًـا، فاسـترعى ذلك نظر أحد المـارة الـذي ظن أنه قد يكون من ركاب السيارة الذين فـروا إذ كـان يمـاثلهم في الملبس (يرتـدي صديري دون جاكتـه) فقبض عليه وسـاقه إلى قسم الشـرطة وتـبين أنه المتهم الثـاني مصطفى مشهور، وأن هذه الحافظة تحوي أوراقًا كثيرة لها أهميتها ولها صلة بـالأوراق التي ضبطت بالسيارة..".

واستطردت المحكمة فوصفت كيف أن تفتيش منزل مصـطفى مشـهور أدى إلى القبض على عـدد آخر من المتهمين وأن هـذا بـدوره أدى إلى القبض على عـدد ثـالث حتى بلغ عدد المتهمين 32 شخصًا ما بين مهندس ومحامي وطبيب وتـاجر.. إلخ ضـموا "نجوم" النظام الخاص وعلى رأسهم عبد الرحمن السندي ومصطفى مشهور والدكتور الملط.. إلخ وقدمتهم النيابة بتهمة المشـاركة في اتفـاق جنـائي الهـدف منه الاسـتيلاء على الحكم بالقوة.. إلخ.

وترافع عن المتهمين جهابـذة المحـامين أحمد رشـدي وطـاهر الخشـاب وسـعيد رمضـان وعبد المجيد نـافع وحسن العشـماوي وحمـادة الناحل وعلي منصـور وفتحي رضوان وزكي عريبي ومحمد هاشم باشا، وهنري فـارس والـدكتور محمد منـدور وعبد المجيد عبد الحق ومصطفى المنزلاوي وعمر التلمساني.. إلخ.

وكان حكم المحكمة مفاجأة ودليلاً على ملاحظة القضاء المصـري وقتئذ للأصـول القضائية وعدم انسياقه وراء الـدعايات أو التيـارات إذ بـرأت معظم المتهمين وحكمت على ستة بالسجن ثلاث سنوات وعلى 11 متهمًا (منهم عبد الرحمن السندي) بالسجن سنتين، وعلى متهم بالحبس لمدة سنة.. وأهم من هذا أنها أشادت بالإخوان المسلمين وأهدافها السامية وتلمست الرحمة لنيل غاية المتهمين فقالت:

"وحيث إنه سـبق للمحكمة أن اسـتظهرت نشـأة جماعة الإخـوان المسـلمين ومسارعة فريق كبير من الشباب إلى الالتحاق بها والسير على المبـادئ الـتي رسـمها منشئوها والتي ترمي إلى تطهير النفوس مما علق أو عسـاه أن يعلق بها من شـوائب وإنشاء جيل جديد من أفراد مثقفين ثقافة رياضـية عالية مشـربة قلـوبهم بحب وطنهم والتضحية في سبيله بالنفس والمال، وقد كان لابد لمؤسسي هذه الجماعة لكي يصلوا إلى أغراضهم أن يعرضوا أمام الشـباب مثلاً أعلى يحتذونه وقد وجـدوا هـذا المثل في الدين الإسلامي وقواعده التي رسمها القرآن الكريم والتي تصـلح لكل زمـان ومكـان، فأثـاروا بهـذا المثل العواطف الـتي كـانت قد خبت في النفـوس وقضـوا على الضـعف والاستكانة والتردد وهي الأمور التي تلازم عادة أفراد شعب محتل مغلوب على أمره – وقـام هـذا النفر من الشـباب يـدعو إلى التمسك بقواعد الـدين والسـير على تعاليمه وأحياء أصوله سواء أكان ذلك متصلاً بالعبادات والروحانيات أو بأحكـام الـدنيا، ولما أن وجـدوا أن العقبة الوحيـدة في سـبيل إحيـاء الـوعي القـومي في هـذه الأمة هو جيش الاحتلال الذي ظل في هذا البلد قرابة سبعين عامًا تخللتها طائفة من الوعود بـالجلاء – كما كـان بين المحتل وبين فريق من الوطنـيين الـذين ولـوا أمر هـذا البلد مباحثـات

ومفاوضات على إقرار الأمور ليخلص الوادي لأهلـه، ولم تنته المفاوضـات والمجـادلات الكلامية إلى نتيجة طيبة – ثم جــاءت مشــكلة فلســطين وما صــاحبها من ظــروف وملابسات.

"لما كان كل هذا، اختل ميزان بعض أفراد شـباب جماعة الإخـوان، فبـدلاً من أن يسيروا على القواعد التي رسمها زعماؤهم عند إنشاء الجماعة والتي كانت تؤدي حتمًا إلى تربية فريق كبـير من الشـعب وتثقيفهم وإعلاء روحهم المعنويـة، بـدلاً من السـير على هـذه المبـادئ، أرادوا أن يختصـروا الطريق ظنًا منهم أن أعمـال النسف تبلغ بهم أهدافهم من سبيل قصـير، فاتحـدت إرادتهم على القيـام بأعمـال قتل ونسف وغيرهما مما قد لا يضر المحتلين بقدر ما يؤذي مواطنيهم... وذهبوا في سبيل هذا مذهبًا شـائكًا منحرفين عن الطريق السوي الـذي رسـمه لهم رؤسـاؤهم والـذي كـان أساسًـا قويمًا لبلوغهم أهدافهم بالطرق المشروعة...".

"وحيث إنه من هــذا يــبين للمحكمة أن أفــراد هــذه الفئة الإرهابية لم يقــترفوا الجريمة وإنما انحرفوا عن الطريق السـوي فحق على هـذه المحكمة أن تلقنهم درسًـا حتى تسـتقيم أمـورهم ويعتـدل مـيزانهم... على أن المحكمة تـراعي في هـذا الـدرس جانب الرفق فتأخـذهم بالرأفة تطبيقًا للمـادة 17 عقوبـات نظـرًا لأنهم كـانوا من ذوي الأغراض السامية التي ترمي أول ما ترمي إلى تحقيق الأهداف الوطنية لهـذا الشـعب المغلوب على أمره.." (انتهى).

كما أن المحكمة عنــدما تعرضت للحــديث عن الإخــوان المســلمين استشــهدت بأقوال الإمام الشهيد حسن البنا في رسالته "مشكلاتنا الاقتصادية والدستور" وقالت:

"وحيث إنه يظهر جليًا من أقــوال المرشد العــام أن الجماعة لا تنــاهض الحكم القـائم في مصـر، بل تـراه متفقًا مع النظم الإسـلامية، وأنها كـانت تهـدف إلى تحقيق نظام شامل والإصـلاح طبقًا لأحكـام الـدين الإسـلامي وبـالطرق الدسـتورية المعروفة طبقًا لما جاء في قانونها الأساسي السابق تفصيله..إلخ".

نرجو أن لا نكون قد أطلنا، والحقيق أن هذه الفقرات هامة لأنها تصور وجهة نظر المحكمة نحو الإخوان.

فمع أن المحكمة كـانت متعاطفة مع الفكر الإســلامي (أصـبح رئيسـها بعد تـرك الخدمة من الشخصيات الإخوانية، وكان هو محامي أسرة آل البنا في قضية تعـويض).. إلا أنها ما كـان يمكن أن تـأتي بغـير ما تضـمنته الأوراق.. كما كـان لا يمكن أن تتجاهل مستندات تقدمها النيابة ذات مصداقية تدين هذه الجماعة بإتباع طرق غـير مشـروعة.. وإلا شـاب هـذا حكمهـا.. والحقيقة أننا لا نـرى في كتابـات الإمـام الشـهيد حسن البنا إشــارة واحــدة عن "حاكمية إلهيــة" أو إطلاق الكفر على الديمقراطية والنظم النيابية الأخرى.. على العكس إنه كان يرى أنها كلها تدخل في إطار نظـام يتفق مع الإسـلام.. فالاختلاف الذي سنراه ما بين تصور عضو النظام الخاص الذي وضع النظام الإسلامي" عن تصورات الـدعوات الإسـلامية الـتي جـاءت بها الثمانينـات يتـوازى مع اختلاف فكر الأستاذ البنا عن أفكار سيد قطب والمودودي وجماعات "الرافضة الجديدة".

مشروع النظام الإسلامي في العصر الحاضر:

قدمت النيابة الوثيقة التي كتبها المتهم الثاني والثلاثون سليمان مصـطفى عيسى قائلة إن المتهم صاغها في تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهوريًـا، وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمـدى الحيـاة، وفهم من عبـارات المشـروع الأخـرى أن

المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية، وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى إنشاء نظام دكتاتوري اشتراكي ينصب فيه مرشده العام دكتاتورًا على البلاد.

وكأن النيابة لم تكتف بتهمة قلب نظام الحكم، بل أيضًا حددت أن يكون "اشتراكيًا" في فترة كانت الاشتراكية هي أكبر تهمة يمكن أن تلصق بتنظيم، فضلاً عن أنه يخالف ما كان يدعيه البعض من تقارب بين الإخوان والسراي، أو ما بين الإسلام والملكية.

وهذا هو ما سجلته النيابة في مذكرتها عن هذا المشروع عند حديثها عن المتهم الثاني والثلاثون سليمًا مصطفى عيسى:

"سبق أن أشرت عند استعراض الوقائع وعند الكلام عن تهمة التآمر على قلب نظام الحكم إلى مشروع "النظام الإسلامي في العصر الحاضر" الذي حرره هذا المتهم.

وضبط هذا المشروع في دار المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين عند تفتيشه عسكريًا عقب صدور الأمر بحلها.

وقد صاغه المتهم في تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهوريًا وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة ويفهم من عبارات المشروع الأخرى أن المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية.

وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى إنشاء نظام دكتاتوري اشتراكي ينصب فيه مرشده العام دكتاتورًا على البلاد.

وإليكم نص هذا المشروع:

"النظام الإسلامي في العصر الحاضر"

الإسلام والعدالة الاجتماعية:

إن البرنامج الصحيح ضروري لحياة أمة من الأمم حياة قوية عزيزة. هذا شيء جميل ورائع حقًا ولكن أجمل منه وأروع أن يقوم رجل نزيه على تنفيذ هذا البرنامج حتى لا يجعل منه حبرًا على ورق.

وإن حاجتنا إلى رجل ينقذنا من الهاوية التي نسير نحوها بخطى سريعة ليس أشد إلحاحًا من برنامج معطل لا يساوي المجهود الذي بذل من أجله.

إهداء إلى اليساريين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 11 – 13]

يجب أن تمتلأ نفوسنا بالثورة على هذه النظم الفاسدة البالية وإن اشتد لهيب هذه الثورة فستنتقل من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب "صبرًا آل يسر فموعدكم الجنة".

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

التشريع في النظام الإسلامي يعتمد على ثلاث مراحل.

(1) القرآن الكريم مرحلة درجة أولى.

(2) السنة مرحلة درجة ثانية.

(3) الاجتهاد مرحلة درجة ثالثة.

وفي ذلك قال رسول الله عندما أرسل معاذًا إلى اليمن قال له "كيف تصنع إذا عرض لك قضاء" قال "أقضى بما في كتاب الله" فقال له الرسول "فإن لم يكن في كتاب الله" قال "فسنة رسول الله" قال له "فإن لم يكن في سنة رسول الله" قال "اجتهد رأيي ولا ألو" قال معاذ فضرب رسول الله صدري وقال "الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله" رواه أبو داود والترمذي.

الحكومة في الإسلام:

المادة الأولى: الحكومة الإسلامية جمهورية وتتولى الحكم بطريق الانتخاب العام لأن الحقوق السياسية لا تورث. ويستفاد ذلك من قوله تعالى في سورة البقرة **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** [البقرة: 124].

المادة الثانية: الحكومة الإسلامية ديمقراطية نيابية ويستفاد ذلك من قوله تعالى: **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ** [آل عمران: 160].

المادة الثالثة: رئيس الجمهورية ينتخب لمدى الحياة وذلك لسببين:

(1) لئلا يكثر الطامعون في الحكم إذا كان الانتخاب كل مدة معينة.

(2) لئلا يسيء الحاكم استعمال سلطته عندما يرى أنه قد ينحي عن كرسي الخلافة وحتى يكون هناك استقرار في البلاد.

المادة الرابعة: يعزل رئيس الجمهورية إذا أهمل في شأن من شؤون الرعية أو قصر، إن الحاكم ما هو إلا وكيل عن الأمة ليحقق العدل بينها ويعمل على رفاهية الشعب وينفذ أحكام دينها. فإذا سقط بند من هذه البنود انتفت الوكالة وسقط حق الوكيل في مزاولة هذه الوكالة.

المادة الخامسة: السلطة القضائية مستقلة استقلالاً تامًا عن السلطة التنفيذية أي أن الحاكم ليس له أن يتدخل لمصلحة أحد ولكن عليه أن ينفذ ما توصى به السلطة القضائية – وفي هذا المعنى ما روى من أن أحد المقربين للسلطة صلاح الدين استعداه على رجل فقال له الخليفة "ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاضي يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه مشكلة. وإنما أنا عبد الشرع وشحنته والحق يقضي لك أو عليك".

أما كيف نراقب أعمال الحاكم فهو بتكوين رأي عام قوي يعرف حقه فلا يفرط فيه ويحاسب الحاكم حسابًا عسيرًا من وقت الخليفة الثاني وقال "من رأي منكم عوجًا فليقومه" فوقف أعرابي وقال "لو رأينا فيك عوجًا لقومناه بسيوفنا".

المادة السادسة: الحكومة مسئولة مطلقة عن حماية جميع أفراد الدولة حماية عامة ولا تقتصر الحماية العامة على الحماية الخارجية والداخلية وأداته الجيش والبوليس ولكن مسئولة أيضًا عن حمايته من الفقر والجهل والمرض.

قال سيدنا عمر في خطبة له استشـهد بها مكـرم عبيد باشا في البرلمـان "المـرء وحاجته والمـرء وعملـه"والله ما أحد أحق بمـال الدولة من أحد والله ما أنا أحق به من أحد فلكل أمريء في مال الدولة نصيب فالرجل وبلاؤه والرجل وقـدره والرجل وحاجته إن في مصر قوم يعيشون... وهناك آخرون يمشون حفاه عـراه يشـربون مـاءهم كـدرًا وطينًا. إن هناك تخلخل في توزيع الثروات وهـذا مما لاشك فيه غبن فـادح ويقولـون إن نظامنا الرأسمالي تتوافر فيه المنافسة الحرة والله يعلم أنهم لكاذبون، لأن المجتمعات الرأسـمالية تنقسم إلى طبقـات غـير متنافسة ويـترتب على ذلك أن يبقى كثـيرون من أفراد الطبقة الدنيا خـاملين على حين أنه لو تـوافرت لهم الفـرص لأمكن أن يفيد منهم المجتمع فائـدة لا يمكن المغـالاة في مقـدارها ولا يرجع خمـول أفـراد هـذه الطبقة إلى خطئهم بقدر ما يرجع إلى انعدام الفرص أمامهم أو جهلهم لهذه الفرص.

ولكي نصل إلى العدالة الاجتماعية سـنتبع مرحلـتين مرحلة تتمشى مع روح الإسلام ومرحلة مادية تتمشى مع قوانينه المادية.

أولاً: التضامن الاجتماعي: - إن الفقر شيء نسـبي ولا يعقل أن يوجد مجتمع كله أغنياء فالفلاح المصري على تعاسة معيشته محسود عليها من الفقير الهنـدي جـاء الإسلام فجعل من هذه الأمم المفككة أسرة واحدة كبيرة فإذا حلت بإنسـان نكبة فإنه سيجد من يقاسمه آلامه المادية والمعنوية ويمد إليه يد المسـاعدة فكـان كل فـرد في هذا المجتمع بمثابة شـركة تـأمين للأفـراد الآخـرين فـإذا لم تقـدم له هـذه الشـركة يد المساعدة فهناك مئات الشركات بل ملاينها لن يعـدم أن تمد له أحـدًا هامًا يحتـاج إليه وذلك نتيجة للحب بين أفراد المسلمين والإخوة بينهم وفي ذلك يقول الله تعـالى: **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُـوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللـهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** [الأنفـال: 63] وقولـه: **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللـهَ قَرْضًـا حَسَـنًا فَيُضَـاعِفَهُ لَـهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ** [الحديـد: 11] "وقد رتب الإسلام ذلك ترتيبًا تصاعديًا وهذا رأي منطقي فقال: **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُـونَ قُـلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْـرٍ فَلِلْوَالِـدَيْنِ وَالأَقْـرَبِينَ وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَابْنِ السَّـبِيلِ وَمَا تَفْعَلُـوا مِنْ خَيْـرٍ فَـإِنَّ اللـهَ بِـهِ عَلِيمٌ** [البقـرة: 215] وقولـه: **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** [الحشـر: 9] ويكـون التضـامن الاجتماعي نتيجة للتربية والشعور بالمسـئولية ولو أن أهل القـرى آمنـوا واتقـوا لفتحنا عليهم بركات من السماء... "هذا جميل جدًا ولكن هناك نفوسًا لمهمة وستتهرب مما لا شك فيه من هــذه المهمة الاختيارية وأن الله لـيزع بالسـلطات مـالا يـزع بـالقرآن ففرضت ضرائب أخرى؟ سنأتي عليها في حينها.

ثانيًـا: الإيـرادات الـتي يمكن الحصـول عليها لمصـلحة الفقـراء ولسد النفقـات العامة.

تحديد الملكية حـتى لا يتخم قـوم ويهلك آخـرون جوعًا وتوزيع هـذه الأراضي على صغار الفلاحين.

إصـلاح الأراضي البـور بواسـطة الحكومة نفسـها لا عن طريق إعطـاء امتيـاز لشـركات أجنبية وزراعة الأراضي الصـحراوية وتوصـيل ميـاه الـري إليها فتزيد بـذلك مساحة الأراضي وبالتالي يزيد الإنتاج.

من القوانين التي تحرم على الأجنبي امتلاك عقارات فترجع بـذلك 25% الأراضي التي يمتلكها أجانب إلى أيدي الشعب.

فرض ضريبة الزكاة وهي 2.5% من رأس المـال وتقـدر حصـيلتها بما يقـرب من 20 مليون من الجنيهات.

فـرض ضـريبة على أيلولة التركـات متصـاعدة حـتى تصل إلى 100% أي درجة المصادرة إن من سيرث مليون جنيه لو ورث نصفه فلن يضيره ذلك شيئًا.

فرض ضريبة تكميلية على الدخل الكلي متصاعدة أي شخصية.

زيادة نسبة الضرائب الأخرى مع تخفيف عبئها على الفقراء.

وفي ذلك قـال تعـالى: **خُـذْ مِنْ أَمْـوَالِهِمْ صَـدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُـزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** [التوبة: 103] .

ولكن قبل كل شيء يجب أن تطهر الأداة الحكومية الفاسدة حتى يمكنها أن تأتي بحصيلة هذه الضرائب كاملة فإن النقود التي للحكومة طرف الشركات والأفـراد تقـدر بستين مليونًا سقط حق الحكومة في بعضها بمضي المدة.

وعلى الحكومة أن تصـفي شـركات الامتيـاز والاحتكـار وتسـتولي عليها هي حـتى تنتفع هي بالأرباح وتخفف عبء تحكمها في أفـراد الشـعب وأن تقـوم هي أيضًـا ببعض المشـروعات الاقتصـادية الـتي تـدر ربحًا وتكـون للمصـلحة العامة بها صـلة وأن تسن التشريعات اللازمة لحماية الضعيف من القوى وتراقب تنفيذها تنفيذًا تامًا.

وأن هـذه الأمـوال جميعًا لـتربو على مائة وخمسـون مليونًا لو أحسن اسـتغلالها لقضت على أمراضنا الاجتماعية في بعض سنين.

أن يجعل نظـام الزراعة تعاونيًـا. وفي ذلك يقـول تعـالى: **خُـذْ مِنْ أَمْـوَالِهِمْ صَـدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُـزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَـلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَـلاَتَكَ سَـكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** [التوبة: 103]**.**

لأن الفلاح البسيط إذا امتلك شيئًا فهي مبعثرة هنا وهنـاك وإنه ليفقد جهـدًا كبـيرًا في زراعتها فلو أدخلت الآلات الزراعية على أن يكـون لكل زمـام آلة من كل نـوع من عدة الآلات تروى الأرض كلها مرة واحدة ثم تـزرع بهـذه الآلات أيضًـا ثم إذا جـاء وقت الحصـاد ذهب كل مالك إلى أرضه ليحصد زراعته فيسـتفيد الفلاح من وجهـتين توفـير المجهود الهائل الذي يبذله والوقت فيمكن بذلك أن يوجه المرء وجهة صالحة كالاتجـاه لإنعاش الصناعات القروية.

ويجب أن يكون وجهة الإنفاق الأمور الآتية:

تحسـين الحالة الاقتصـادية ورفع مسـتوى معيشة الفلاح والعامل وعمل ملاجئ للعجزة واليتامى (الحكومة مسئولة عن كل شخص وفي ذلك قال عمر (لو عثرت بغلة بالعراق لسئلت عنها).

تحسين الحالة الصحية فالحالة سيئة كما كل شخص يعرفها وأني لأذكر أن إحـدى الكاتبـات الإنجليزيـات خطبت في النـادي الزائل فقـالت "إنه يجب أن تظل نسـبة الوفيات في مصر على ما هي عليه حتى لا تحدث مجاعة نتيجة لازدياد عـدد السـكان" ونسـبة الوفيـات كما أعلمها هي 27.5% وأني لأذكر عـدد المرضى للتـذكير فقط 1.500.000 مرضى بالعيون، 12.000.000 بالبلهارسـيا و 8.000.000 بالأنكلسـتوما و 1.000.000 أصيبوا بالملاريا و2.000.000 بأمراض عادية... إلخ.

رفع المستوى العلمي والعمل على تشجيع البحوث العلميـة، فيجعل التعليم مجانًا للفقراء مجانًا في جميع مراحله وإلزاميًا في مراحله الأولى كالتعليم الابتدائي مثلاً.

المادة السابعة: جميع أفراد الشـعب لهم حق الملك التـام ولا تـنزع الملكية إلا للمصلحة العامة وحالتي المجاعات والحروب إذا استدعت الظـروف ذلك على أن تـرد إلى أصحابها عند زوال هذه الأسباب وأن المثل الـذي يقـول "إن سـحر الملكية يحـول التراب تبرًا" لا يزال صحيحًا.

وإننا بإعطائنا الفرصة لجميع أفــراد الشــعب وجعلها متكافئة بينهم فإننا نزيد من كفايتهم وبالتالي سنصل بالإنتاج إلى الحد الأقصى مما سيزيد من رفاهية الشعب.

المادة الثامنة: جميع أفراد الشعب متساوون في الحقوق والواجبات.

أولاً: المســاواة – ســاوى الإســلام بين جميع أفــراد الرعية والأمثلة على ذلك كثيرة فعند شكاية أحد التجار المأمون أجلس المدعى عليه على قدم المساواة، ساوى بين الخادم والسيد، وبين المرأة والرجل وفي ذلك يقول رسول الله "خدمكم خـولكم" وإن المــرأة المســلمة لها من الحقـوق ما حــرمت منه نسـاء كثـيرات فبينما المــرأة المسلمة لها حق الإتجار إذ تحرم منه المـرأة الفرنسـية إلا بـإذن من زوجها وحـتى في هذه الحالة تمنع من الصرف.

ثانيًـا: العـدل – جعل الإسـلام العـدل بين الرعية وعـدم التفرقة بينهم من أشد واجبات الحاكم قال رسول الله "لساعة من أمام عـادل خـير من الـدنيا وما فيهـا" في رواية أخرى "لساعة من أمام عـادل خـير من عبـادة سـتين عامًـا" وقولـه: "إنما أهلك الذين من قبلكم أنه إذا سـرق الشـريف تركـوه وإذا سـرق الضـعيف حـدوه أي أقـاموا عليه الحــد" وقولــه: "شر النــاس منكم الــذين تكرهــونهم ويكرهــونكم وتلعنــونهم ويلعنونكم" "وخير الناس أمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم".

وقوله تعالى:﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾ [الكهف: 59] **.**

المـادة التاسـعة: ليس هنـاك رق ولا اسـتعباد في الإسـلام. ليس هنـاك رق في الإسلام كل ما هنالك أن دائمًا يحصل أن يقع أسرى في أيدي المسلمين ويكون التصرف فيهم إما أن يستبدل بهم أسرى المسلمين أو أن يفـدوا أنفسـهم بـأموال والبـاقي للقائد أن يطلق سراحهم منه أو توزع على جنود الجيش وكانت هذه لأسباب دينية أو اقتصـادية أو سياسية.

الأسباب الدينية – أن هناك ما سموه الدروس العملية فإن الأسير عنـدما يـرى أن سيده به رءوف رحيم ويـرى من معاملته ومن دماثة خلقه سيدهشه حقًا ويـراه في عبادته وقنوته مما لاشك سـيكون له أثر طيب في قلبه مما قد يكـون سـببًا في دخوله الإسلام.

الأسباب الاقتصادية – أن قيام الحروب يفقد الأمة جزءًا من بنيها فوجود هؤلاء الأسـرى مما يحـرر الأيـدي العاملة المفقـودة وأن نـداء روسـيا الـذي وجهته إلى جميع الأرمن في العالم لخير دليل.

أسباب سياسية – وهي أنها تمنع الثورات القوية التي قد تنشب فيوجهها في يوم

من الأيام إذ أن جزءًا كبيرًا من المحاربين الأشداء سيكونون خارج الميدان فهو نوع من النفي. ولكن الإسلام لم يشأ أن يظل هؤلاء الأسرى مدى الحياة بل سرحهم تسريحًا بطيئًا بأن حبب إلى من يملك هؤلاء الأسرى بإطلاق سراحهم وأوجب ذلك عليهم في حالات كثيرة من ذلك عدم القدرة على صوم رمضان وفي القتل غير العمد وفي ذلك قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** ﴾ [الأحزاب:36] .

فضائل الإسلام وأحكامه التشريعية:

حفظ للمرأة جسدها ولم يجعله سلعة تباع وتشترى وحفظ كيان الأسرة من التفكك فشرع الزواج وحرم الزنا ووضع له أشد العقوبات وهو الجلد مائة جلدة لغير المتزوج والقتل رجمًا بالحجارة لغيره أي المتزوج يقولون إن في هذا وحشية لا توصف وهم الذين يقتلون مئات الألوف دفعة واحدة في حروب من أجل منافع شخصية. ولكن الإسلام قال يجب أن يكون هناك أربعة شهود ممن نعتد بقولهم حتى لا يساق الناس إلى الموت جزافًا وحتى يُحَد من الزنا نفسه، فهو جاء للإرهاب أكثر من أي شيء آخر.

حرم الخمر حفظًا لصحة الأفراد وأموالهم فقال: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [البقرة: 219].

حرم السرقة لأن الإسلام أعطى للفقير حقه فإذا سرق بعد ذلك أي شخص فإنما يكون عبارة عن مجرم تعود الإجرام فسن لذلك قطع اليد ولكنه في نفس الوقت أعطاه الفرصة لكي يقلع عن إجرامه. بل قال "أدرئوا الحدود بالشبهات".انتهى المشروع.

ومن الواضح بالطبع أن المشروع لا تتوفر له "الحبكة" و"الدقة" اللازمة في مثله، فضلاً عن ركاكة أسلوبه وأنه فعلاً أقرب لأن يكون موضوع مسابقة تعلن عنها إحدى المجلات كما قال الدفاع.. ولكن يجب ألا ننسى أن كاتبه كان مدرسًا في الرابعة والأربعين من العمر، ومن أفراد الجهاز الخاص، ومن أصدقاء الأستاذ فريد عبد الخالق عضو مكتب الإرشاد.

وإلصاق النيابة "تهمة" الاشتراكية لا أصل له، لأن كل ما جاء فيه عن حقوق المواطن الاجتماعية والاقتصادية هو ما قرره الإسلام بالفعل وما يقتضيه التكافل الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم عليه الإسلام ولها أسانيد من صريح الكتاب وصحيح السنة وقد يلحظ الإنسان تأثر الكاتب بكتاب سيد قطب عن العدالة الاجتماعية التي كانت قد نشرته جماعة الإخوان، وكان يمثل فكر سيد قطب قبل تحوله إلى الحاكمية.

إن النقطة التي نريد توجيه الالتفات إليها هي أن الفكر الإسلامي – وإلى حد ما الإخواني – تأثر تأثرًا حاسمًا نتيجة للصدام مع عبد الناصر وما قام به من تنكيل بالإخوان، وممارسة للتعذيب، ثم ما وقع فيه من أخطاء قاتلة نتيجة لديكتاتوريته انتهت بكارثة 1967 المدوية... هذه الأحداث رسمت تحولاً كاملاً في الفكر الإسلامي بحيث أوجد الفئات التي أطلقنا عليها "الرافضة الجديدة" بكل أطيافها بدءًا من مجموعة شكري مصطفى وصالح سرية وعمر عبد الرحمن ومن جاء بعدهما، وهذه الفئات كلها تعارض الإخوان، وفكرهم، وكانت مناقشاتهم مع الإخوان في المعتقل سببًا في إصدار الإخوان

لكتــاب "دعــاة لا قضــاة"، وفي الــوقت نفسه فقد تجمد الفكر الإخــواني نتيجة للوضع القاسي الـذي وجد الإخـوان أنفسـهم فيـه، فهم منبـوذون ومحـاربون من الحكومـة، وهم منبوذون ومحاربون من هذه الفئات الإسـلامية الجديـدة... ونحن في غـنى عن القـول أن المجتمع "المدني" أو كما يقولون "العلماني" يضيق أيضًـا بـالإخوان.. وهكـذا دفع الإخـوان إلى الظل.. بينما احتل الساحة وسـرق الأضـواء المجموعـات الشـاردة الجديـدة، وإن لم يمنع هذا أن الإخـوان بفضل تراثهـا، وذكـرى الإمـام الشـهيد، وتماسـكها الإداري، لا تـزال صاحبة الجمهور الأكبر، ولكنها لا تريد، وقد لا تستطيع، تحريك هذا الجمهور.

وصاحب الاختلاف في الفكر ما بين هذه الفئات الشاردة، وفكر الإخوان.. اختلاف في الزي و"النفسية".. فمن يقرأ كتاب محمود الصباغ (المتهم الثالث في قضـية عربة الجيب) عن النظام الخاص والمطبوع به صور كل نجوم. وقيادات النظام، لا يرى فيهم ملتحيًا، أو معممًـا، أو لابسًـا طاقيـة، أو جلبابًا مما أصـبح فيما بعد من علامـات أعضـاء الجماعات الإسلامية وإنما يرى مجموعة حليقـة، مطربشـة، كل واحد يرتـدي "البذلـة" كاملة ومعظمهم يضع المنديل الحريري في جيب سترته...

كما أن من يقــرأ كتابــات الإمــام الشــهيد عن النظــام السياسي لا يجد تعبــير "الحاكمية الإلهيـة" وإنما يلمس تقبل النظـام الانتخـابي القـائم على أن الأمة مصــدر السلطات مع تعديل نظمه مما يقضي على عيوبه، ولما كانت الأمة المصـرية مسـلمة، ومؤمنة بإسلامها فإن تحقيق النظام الإسلامي لا يعدو أن يكون تطبيقًا لإرادتها...

***

-8-
الإخوان المسلمون والعمل النقابي

تعـود صـلة الإخـوان بالعمـال إلى لحظة التكـوين الأولى. عنـدما تأسست الخلية الأولى لها في الإسماعيلية من ستة من عمال شركة قناة السويس سـنة 28. على أن هذه الملابسة كانت حكم الأمر الواقع أكثر مما كانت اختيارًا خاصًـا للعمـال أو تفضـيلاً لهم على غيرهم. ففي الإسـماعيلية لم يكن هنـاك فلاحـون. كـان الشـعب هم العمـال الـذين يعملـون في خدمة القنـاة الـتي أنشـأت مدينة الإسـماعيلية كما أنشـأت مدينة بورسعيد. ومن ثم كـان من الطـبيعي أن تقـدم الـدعوة إليهم وعنـدما امتـدت الـدعوة زحفت على الكثافة الريفية في محافظـــات الشـــرقية والمطرية دقهلية المصـــاقبة وجعلت من الفلاحين جمهورها الـذي تجـاوب معها بحكم الحاسة الزراعية الـتي تجعل الفلاح مؤمنًا. وفي المرحلة الأخيرة عندما تركزت في العواصم اجتـذبت عناصر الطلبة والشباب.

وكــان للهيئة بعض نشــاط مع الحركة النقابيــة. ففي البحر الأحمر كــانت الكتلة الثالثة من كتل العمــال القوية الــتي ظهــرت على الســاحة في الأربعينــات وهي كتلة عمال البترول (بالإضـافة إلى كتلة عمـال النسـيج وكتلة عمـال النقـل) تخضع للإخـوان تمامًا وتولى الأخ محمد رمضان على رأسه النقابة ثم تركها للأخ أنور سلامة. وهما معًا من الإخوان المسلمين. وثمة وثيقة قديمة ذكر فيها الأستاذ البنا – رحمه الله – أســماء مائة شخص من خاصة الإخـوان تعهد باستشـارتهم قبل اتخـاذ أي إجـراء رئيسي وكـان من هذه الأسماء طه سعد عثمان ومحمـود العسـكري وهما زعيما كتلة عمـال النسـيج في شبرا الخيمة. وظلت نقابة غزل ونسيج شبرا الخيمة متسـترة وراء شـعبة الإخـوان بها حينًا من الدهر..

ولكن هذه الصلات كانت أقل فيما نرى مما كان يجب أن يكون بالنسبة للإخــوان. وتكاد تمثل عزوفًا عن الحركة النقابية وهو يعـود إلى أمـرين الأول: غلبة بعض العناصر الحزبية والشـــــــــيوعية على الحركة النقابية مما أوجد نوعًا من الوحشة بينها وبين الإخوان. وأعطى الإخوان انطباعًا سيئًا. والثـاني: أن جمـرة أعضـاء الإخـوان كـانوا من الريفيين الذين لا يعلمون شيئًا عن الحركة النقابية ويجهلونها تمامًـا، والإنسـان عـدو ما جهل. أما الذين يعيشـون في المـدن فقد كـانوا من البرجوازية الصـغيرة الـتي تحكمها التطلعـات وتـؤمن بـأن الوسـيلة "لتحسـين الحـال" هي الوسـيلة الفرديـة. فكل واحد وحظه من الشطارة أو الذكاء أو اللباقة أو الظروف الخاصة. وهـذه الوسـيلة لتحسـين الحال مما لا يوجد في العمال. الذين اكتشفوا الوسيلة "الجماعية" لتحسين الحـال هي طريقة "الاتفاقات الجماعية" التي تبرمها النقابة مع الإدارة وتعد اتفاقية ملزمة للإدارة ويستفيد منها كل العمال حتى وإن لم يكن بعضهم في النقابة.

كانت هذه هي الأسباب التي جعلت نشاط الإخوان في النقابات العمالية محـدودًا. كما كانت تعود إلى بعض الأخطاء التي اقترفها "قسم العمال" الذي لم يتـوفر له وعي عمـــالي، في توجيه العمـــال الإخـــوان وجهة مخالفة لوجهة زملائهم مما أوجد انطباعًا سيئًا. وأدى فيما بعد إلى انشقاق طه سعد عثمان ومحمـود العسـكري وانضـمامها إلى معسكرات يسارية كانت أكثر فهمًا لهما واحتفاء بهما.

***

على أن الحركة النقابية في مصر لا تقتصر على النقابــات العماليــة. ولكنها تضم أيضًا نمطًا آخر من النقابات هي التي يطلق عليها النقابات المهنية التي تضم – عادة – خريجي الجامعـات. وتوجد نقابـات مماثلة للنقابـات المهنية المصـرية في بعض الـدول الديموقراطية مثل بريطانيا والولايات المتحدة وتـدعي "النقابـات الحرفيـة" وقد يطلق عليها "النقابات الأرستقراطية" لأنها لا تضم جمهور العمال ولكن الفئة الماهرة وحــدها وهـذا هو أبـرز وجـوه الاختلاف ما بينها وبين النقابـات المهنية المصـرية. ففي الخـارج يتمثل عنصر الامتياز في "المهارة" ولكنه في مصر يتمثل في "الشهادة" ومن هنا جـاء تكوين النقابات المهنية مقصورًا على حملة الشهادات وخـريجي الجامعـات باعتبـار أن خريجيها هم "أرستقراطية" العمال كما يتضح من الفرق مابين الميكانيكي والمهنـدس، الممرضة والطـــبيب إلخ... **ومثل هـــذه الفـــروق لا قيمة لها في الخــــارج فالميكـانيكي المـاهر والممرضة الحاذقة ينـالان من التكـريم مـالا يناله مهنـدس أو طـبيب تقف مهارتهما عند حـدود ثقـافتهم الجامعية وهي – كائنة ما كانت – تختلف عن منطق وضرورات العمل الفعلي..**

باســتثناء هـــذا الفــارق فإننا نجد أن خصــائص النقابة الحرفية في الولايــات المتحــدة مثلاً هي خصــائص النقابة المهنية في مصر وأبرزها الروح الفئوية والعناية بالمزايا والخدمات والبعد عن الاتجاهـات الشـعبية والنشاطات العامة وبالطبع أن يكون مناط العضوية هو الحرفة أو المهنة وليس الصناعة (كما هو الحـال في النقابـات العمالية الـتي تضم كل من يعمل داخل المصنع).

وخلال الأربعينات التي وصلت فيها الدعوة الإخوانية إلى الأوج لم تجد الهيئة حاجة – أو لم تفـرغ – لـدخول النقابـات المهنيـة. إذ كـان تركيزها على الطلبة من السـنوات الأخيرة للدراسة الثانوية حتى المرحلة الجامعية والفلاحين وصغار الموظفين ومــدرس الإلزامي في القرى. وكانت الهيئة تضم في العواصم والبنادر الكثيرين من "المهنــيين" من محــامين أو مهندســين أو أطبــاء (في يــوم ما وجد ســتة من الأطبــاء البــارزين الإخوانيين يبدأ اسم كل منهم بـ "أنور") ولكن الهيئة لم تتجه إلى النقابــات المهنية لأن تكتلها القائم كان يكفيها ولأن النقابات المهنية وقتئذ كانت مراكز للدعاية الحزبية...

ولكن الأحوال اختلفت في السنوات اللاحقة فبعد الحرب الشعواء التي شـنها عبد الناصر على الإخوان وأراد بها تشريد رجـال الإخـوان وتعهـير نسـاء الإخـوان ومع نهاية ربيع التصالح الذي لم يكن صافيًا أو خالصًا مع السادات... عاد الطوق الحكومي يضغط على التنظيم الإخــواني... ووجد الإخــوان المخلص في التحــالف مع الأحــزاب القائمة والعمل تحت مظلتها وبــدأ هــذا مع الوفد أولاً.. ثم مع حــزب العمل ثانيًا وبفضل هــذا الحلف الأخير نجح الإخوان في اختراق الحظر المفروض عليهم وأن يكـون لهم ثلاثـون نائبًا في انتخابات مجلس الشعب (إبريل 87) فضلاً عن عدد يماثلهم لحزب العمل.

ومن يقرأ صحف هـذه الفـترة يلمس أن نوبة من الـترقب والخـوف تملكت دوائر الحــزب الحــاكم وظن بعضــها أن هــذا هو بداية الزحف الإســلامي على الحكم وانتظر البعض الآخر معارك حامية في المجلس...

ولم يحدث شيء من هذا. أن الحكومة كـانت قد تعلمت دروسًـا هامة خلال فـترة الحكم المطلق الطويلــة. بحيث لم تعد تخشى قــوة المعارضــة. وانتهى الــوقت الــذي حلت فيه المجلس تخلصًــا من ثلاثة من المعارضــين الأقويــاء.. وقد عهــدت الحكومة برئاسة المجلس إلى شخص يمثل الصلابة حينًا والصفاقة حينًا آخـر.. من الرعيل الـذي عايش التنظيم الطليعي الناصري. ثم هادن السادات وعمل تحت خدمته وحاول الإبقاء على "الاتحاد الاشتراكي" المنكود ولما لم يستطع قنع بـأن يركز مواهبه وقــواه لحماية

النظام الحاكم حتى ولو قام على أنقاض الاتحاد الاشتراكي.

واستطاع هذا الرئيس أن يجعل من المجلس مدرسة يكون هو ناظرهـا. واسـتفاد من أحكام اللائحة وما فيها من ثغرات.. ولكن أهم من هذا أن كان وراءه أغلبية مطلقة بحيث لم يكن في حاجة لمجـرد النظر قبل أن ينطق "موافقـة.. موافقـة". وتحت يـده دائمًا طلب من أكـثر من عشـرين عضـوًا بـإغلاق بـاب المناقشـة! يمكن أن يسـتخدمه عندما تتأزم الأمور...

تبين الإخوان أن مردود العمل السياسي الحزبي وثمرة دخـول مجلس الشـعب لا يتوازى مع ما انفق عليه وبذل فيـه. وأنه يمكن أن يكـون نكسة لأنه ما لم يحقق نجاحًا فإنه يكون فشلاً.. وأعتقد أن هـذا كـان من أكـبر أسـباب التفـاتهم نحو الحركة النقابية المهنية. كمجال جديد يمكنهم من مواصلة العمل.

ولعل لنا إسهامًا في هذا التوجه يعود إلى ما قبل ذلك فقد كونا "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل" في سنة 1981 وأخذنا على عاتقنا إيضاح أهمية العمل النقابي وتجاوبه مع الإسلام وفندنا بقوة تلك المقولة التي سـادت حينًا بعض دوائر الإخـوان "**كنا ننظر إلى النقابات كما لو كانت رجسًا من عمل الشيطان**"!!

وأصدرنا في هذا الصـدد كتـاب **"الإسلام والحركة النقابيـة"** (ثلاث طبعـات) فضلاً عن عدد كبير آخر من الكتب والرسائل. وفي كتابنا **"الإسـلام هو الحـل"** قلنا بعد أن قيمنا ما يـــأتي به العمل السياسي والترشـــيح لمجلس الشـــعب. والقيـــود والمثبطات التي تكتنف الأداء...

"لاشك في أن أســلوب العمل السياسي عن طريق مجلس الشـــعب – ضـــئيل الجـدوى تافه الحصـيلة وأن من الممكن أن يكـون سـتارًا لنـوع من الديكتاتورية وأن من الضـروري إما الانسـحاب من المجلس والتركـيز على العمل الشـعبي.. أو اتخـاذه أداة لتعزيز هذا العمل الشعبي وحمايته. وبـدون ذلك يمكن أن تسـتمر الأغلبية في اسـتخدام الأقلية لإعطـاء حكمها طابعًا ديمقراطيًـا.. ولو أن هيئة مثل الإخـوان المسـلمين ركـزت عملها في المجـال النقـابي لاسـتطاعت أن تـزود الحركة النقابية بالأيديولوجية المطلوبة لإنقاذ الحركة النقابية من الخواء الروحي ولضمت جيشًا جرارًا يسـتطيع وحـده أن يجعل الحكومة تصغي وتتجاوب وتقابل الإخوان في منتصف الطريق".

وأخيرًا فقد أصدرنا كتابنا "النقابات المهنية المصرية في معركة البقـاء" الـذي يعد "دستورًا" لحركة نقابية إسلامية ومعالم على طريق سيرها..

وقد نجح الإخوان المسلمون نجاحًا مؤزرًا في اختراق النقابات المهنية والسيطرة على معظم المراكز القيادية فيهـا. وكـان انتصـارهم في نقابة المحـامين هو السـبب المباشر الذي جعل الحكومة تصدر القانون 100 لسنة 1993 الـذي حـاولت أن تعرقل به المضي الـديمقراطي التقليـدي للحركة النقابية بحجة "الأغلبية الصـامتة" وأن القلة الإخوانية النشطة تحول دون ظهور هذه الأغلبية..

والادعاء متهافت. ففي كل النقابات تكون الأغلبية صامتة. وقد يكون صمتها تأييـدًا وإقرارًا لقياداتها ومن الواضح أنه لا شـيء يمكن أن يمنع أغلبية من أن تقـرر ما تشـاء ما دامت أغلبية ومادامت تريد..

ولم ينجح القــانون فيما أراد وإن نجح في مضــايقات القيــادات النقابية وشــغلها واستنزاف مواردها. فبعد إعلان إجـراء الانتخابـات طبقًا للقـانون الـذي سـنته الحكومة نفسها وبعد أن تتخذ النقابة كافة الإجـراءات من إعـداد الأمـاكن وتجهيزها والإعلان في الصــحف.. إلخ ترجع اللجنة المشــرفة على الانتخابـــات عن قرارها ربما قبل تـــاريخ الانتخابـات بيـوم واحـد. بحجة أنها تلقت شـكوى من عـدم تقييد بعض الأعضـاء.. ومن

الواضح بـالطبع أننا لا نعـدم في نقابة تضم مائة ألف آحـادًا تكتب مثل هـذا الاعـتراض بحق أو بدون حق وإذا سلمت اللجنة المشرفة على الانتخابات لادعاءاتهم فمعـنى هـذا أنها لا تريد عقد انتخابات على الإطلاق! والحقيقة أنها حرب أعصاب واستنزاف للقيادة النقابية..

ولا نعرف ماذا في حقيبة الحكومة بعد أن أفلس القانون 100 لسـنة 93 وبعد أن تـذرعت القيـادات النقابية بالصـبر وضـبط النفس إزاء تلاعب اللجـان الانتخابيـة. ولكن يغلب أن لن تنجح الحكومة في استبعاد أو اقتلاع التيار الإسـلامي القـوي في النقابـات المهنية إذ اسـتطاعت هـذه تكـوين قواعد وكـوادر ونظم في معظم النقابـات كما أن جمهـور الأعضـاء قد لمس الفـارق الكبـير بين طهـارة ذمة القيـادات الإسـلامية وبين الاستغلال الشنيع للموارد وصور الفساد والمحسوبية الـتي كـانت فاشـية في النقابـات قبل أن يتقلد الإخـوان زمامهـا. ناهيك بما تبذله معظمها من نشـاط خـدمي يتمثل في تسهيل بيع السلع المعمرة ورفع قيمة المعاشات وعقد المؤتمرات إلخ..

ومع هــذا فيظل الوجــود الإخــواني في النقابــات المهنية مهــددًا ما لم تواصل القيادات الإسلامية للنقابات المهنية الجهود لترسيخ نفسـها في النقابة بحيث يستعصي على الحكومة اسـتبعادها. وقد ذكرنا في كتـاب **"النقابـات المهنية المصـرية في معركة البقاء"** السياسات والإجراءات ووجوه العمل والنشـاط الـتي يكـون عليها أن تسلكها.

***

الحال في الحركة النقابية العمالية مختلف تمامًـا. فحـتى الآن لم يسـتطع الاتجـاه الإسلامي أن يجد له موطئ قدم...

وهذا الوضع يعود إلى النقابات العمالية وإلى الإخوان المسلمين معًا..

إن أحدًا منهم ليس مستعدًا لتلقي الآخر أو الترحيب به...

النقابــات العمالية تتحكم فيها عصــبة من الرؤســاء الــذين أتقنــوا اللعبة النقابية وتمرسوا بفنونها وهم يقودونها لأكثر من أربعين عامًا على أساس إدارة شللية تصـطنع فيها قيادات النقابات العامة بعض رؤساء اللجان النقابية بحيث تتحقق الاستمرارية في القيـادة النقابية ويـدعمها في هـذا أن القـانون أعطى كل السـلطات للنقابـات العامة وجرد اللجان النقابية وهي المنظمات القاعدية من الحقوق الـتي كـانت منوطة بها من قبل.

وهـذه القيـادات المحتكـرة العقيمة التبعية تجد مناصـرة الحكومة الـتي لن تجد مثلهم في تبعيتهم الذليلة واســتخذائهم الكامل واســتعدادهم ليس فحسب لتطــبيق سياستها بل وتقديم التصفيق والتهليل والهتاف..

وبـالطبع فـإن السـلطة الـتي لم تنجح في اسـتبعاد الإخـوان من اتحـادات الطلبة ومجـالس هيئـات التـدريس والنقابـات المهنيـة. ليست مسـتعدة للسـماح لهم بـدخول مجـال جديد وحسـاس كالحركة النقابية العماليـة. ومن ثم فإنها تسـاند هـذه القيـادات التبعية في مقاومتها للتيار الإسلامي.

هذا بالنسبة للنقابات العمالية..

أما بالنسبة للإخوان. فيبدو أن من العسـير أن يتخلـوا عن طـبيعتهم "البرجوازيـة" [26] التي يعسر عليها أن تسـيغ العمل النقـابي العمـالي أو تتكيف مع مقتضـياته. مع أن

[26] (?) قد يظن البعض أن وجود الروح البرجوازية لدى الإخوان يتعارض مع مـا أشـرنا إليـه في مقـال "أخواني الأخوان" في هذا الكتاب من قيامهم على أساس شعبي وأنهم يمثلـون قاعـدة وقيـادة –

طبيعة "الطبقة العاملة" وأسلوبها أقرب إلى الإسلام من طبيعة البرجوازية وأساليبها.

فالإسلام الذي لا يطبل للبرولتياريا ولا يستغل اسمها قد فضلها بالفعل على غيرها من فئات المجتمع عندما فضل الرسول من يعيش من عمل يده على غيره والنصوص في هذا صريحة وواضحة فضلاً عن نصوص القرآن في أنصاف المستعضفين في الأرض والضيق بالمترفين والحكام.

كما أن أسلوب "الاتفاقية الجماعية" أقرب إلى أسلوب الإسلام من العمل الفردي لأن الإسلام يفضل العمل الجماعي على الفردي. وقد فسرنا الآية 282 من سورة البقرة تفسيرًا "نقابيًا" ليس فيه أي تعسف أو تطويع أو تكلف بحيث تكون الآية داعية للاتفاقيات الجماعية[27].

فضلاً عما في الاتفاقية الجماعية من اجتماعات ومناقشات ومساهمات وشورى سواء ما بين العمال بعضهم بعضًا أو مع العمال من ناحية والإدارة من ناحية أخرى. وهذه كلها إجراءات وأساليب يحث عليها الإسلام..

فمن الناحية الإسلامية الخالصة كانت النقابات العمالية أولى بتجاوب الإخوان. علمًا بأن قانون النقابات يسمح لكل المهنيين بالانضمام إلى النقابات العامة وأن تكون 20% من مجالس إدارات المنظمات العمالية من المهنيين **أي أن الطريق أمام الإسلاميين لدخول انتخابات النقابات العمالية مكفول بالقانون انتخابًا وترشيحًا..**

ولكن الأمر هو كما قلنا "أمر مذابح ونفسية" ومستوى طبقي يضع المهنيين فوق اليدويين وينأى بالأولين عن الآخرين.. وهو أمر يفترض ألا يكون في دعوة الإخوان التي تعلم جيدًا أن المؤمنين عدول يسعى بذمتهم أدناهم وتقوم العلاقات ما بين أعضائها على أساس "الحب في الله" وما أشرنا إليه آنفًا من تفضيل الرسول للعمل اليدوي.

وإذا كنت أدعو الإخوان لدخول الحركة النقابية العمالية. فإن هذا يعود إلى الحرص على مصلحة الحركة العمالية من ناحية ومصلحة الإخوان أنفسهم من ناحية أخرى.

لمصلحة الحركة النقابية العمالية. لأن الحركة النقابية لابد لها من دعم نظري أو عقيدي. وقد وجدت الحركة النقابية الأوروبية هذا الدعم في الفكر الاشتراكي أو الماركسي. أما الحركة العمالية المصرية فليس لها أي غطاء أيديولوجي ليس لها أي نظرية تهديها وتوفر لها الإيمان وتحميها من الإغراء أو الانحراف وقد عالجنا هذه النقطة في رسالتنا " لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة".

بالإضافة إلى أن التنظيم النقابي القائم فاسد من الناحية التنظيمية لأن لا يحقق مشاركة القواعد مع القيادات وبذلك يحرم الحركة النقابية من قوتها الحقيقية ويحول دون تحقيق الحرية والديمقراطية فيها.

من هنا يكون دخول الإخوان المسلمين للحركة النقابية عامل تجديد وإنهاض واستكمال للجانب النظري/ العقيدي. فضلاً عن الإصلاح التنظيمي الذي يجب أن يتبناه الإخوان. وهذا وذاك في صميم مصلحة الحركة النقابية.

جماهير الشعب من فلاحين، أو معلمي إلزامي أو صغار المهنيين إلخ.. وهذا اللبس يعود إلى أن المُعول هو "الوعي". فما لم يكن لدى المجموعات الشعبية "وعي طبقي" فإنها تتهاوى وتتعرض العناصر النابهة للاستقطاب البرجوازي. وهذا هو ما حدث للإخوان وقد أشرنا إلى عدم وعي الإخوان أنفسهم بطبيعتهم الشعبية والجماهيرية بتأثير بعض المفاهيم الإسلامية المغلوطة. فالمهم هو الوعي الطبقي. وهو ما ينقص الإخوان.

27 (?) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص 78 إلى 83 من الطبعة الثالثة.

ومن ناحية الإخوان فلن يكون للإخوان قاعـدة شـعبية حقيقية ما لم يكن لهم وجــود فعــال في الحركة النقابية العمالية يحميها عنــدما يــراد البطش بها.

وقد أظهر الصدام ما بين النقابات المهنية والحكومة حول القـانون 100 لسـنة 93 أن النقابـات المهنية رغم الحماسة المتقـدة والإمكانيـات الوفـيرة عجـزت عن أن يكـون قومتها أثر شعبي يمكن أن يضـغط على الحكومة ويحملها على تعـديل القـانون – إن لم يكن سـحبه – وبـاءت كلها بالفشل في النهايـة. ولو رزقت تأييد الحركة النقابية العمالية لاختلف الموقف. **من هنا لا يعد الوجود الإخواني في النقابـات المهنية وحـده حاميًا كافيًا...**

القضية الحقيقية هي أن يؤمن الإخـوان بجـوهر النقابية العمالية وهي مشـتقة من أصـول الإسـلام. وأن يثقفـوا أنفسـهم ثقافة نقابية عمالية وأن يتخلصـوا من النزعـات الفردية والفئوية والبرجوازية الـــتي تتحكم فيهم بـــدرجات متفاوتة وأن يتخلصـــوا من فهمهم الشعائري الطقوسي للإسلام. وأن يمنحوا الأولوية للعمل.

إننا لا نريد أن ننقذ الحركة النقابية العمالية من الوصـــوليين والانتهـــازيين الـــذين اسـتغلوها لنحل محلهم الطقوسـيين والشـكليين الـذين لا يعرفـون شـيئًا عن الحركة النقابية.

لابد للإخوان أن يفهموا أن زيـادة الأجـور وتقصـير سـاعات العمل وكفالة الكرامة للعامل هي من الأصول الكبرى للإسلام وأنها قربات إلى الله تعدل أو تفضل العبــادات والصلوات... إلخ.

إذا كان لدى الإخوان مثل هذا الفهم. فإن دخولهم النقابات العمالية سيكون خـيرًا وبركة وسـيحقق الإصـلاح المنشـود للحركة النقابية وللإخـوان أنفسـهم.. فـإذا لم يكن لديهم فمن الخير لهم أن يظلوا في قوقعتهم دون القيام بتجارب فاشلة.

في معظم الحالات يغلب عليَّ اليأس من أن يتمكن الإخـوان من فهم هـذا الكلام والقيام به ومع هذا فمن يراجع لائحة النظام الأساسي للإخوان سـنة 28 بلائحتها سـنة 48 يلمس الفــرق الكبــير بين جماعة صــوفية تربوية وبين هيئة تجعل الإســلام منهجًا للحياة.. فليس هناك ما يمنع من أن يهديها الله لتقوم بهـذا التجديد الـذي سـينهض بهم وبالحركة النقابية: عمالية ومهنية...

ولن نتوقف عن الدعوة.. واستحثاث الهمم.

لقد قمنا بـدورنا الميـداني والتنظيمي في الخمسـينات ولا يمكن – ولا يجـوز – أن نقـوم به الآن فهـذا هو مجـال جيل التسـعينات وعليه أن يعمل ويكـافح ويناـور ويـداور وينظم ويدبر.. وعلينا أن نزوده بالخبرات والتجارب والثقافـات والمهـارات الـتي تكفل له النجاح والتوفيق.

ومن الطبيعي أن توجد عناصر هذا الجيل في إطار الإخـوان المسـلمين إذا ألمـوا بما قدمناه.. فإذا لم يفعلوا فسوف ﴿**يَأْتِي اللهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَـةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة 54].

-9-
بعض الخطوط التي تحكم ظاهرة "الصحوة الإسلامية"

مضى قرابة قرن ونصف منذ أن بدأت اليقظة الإسلامية على صوت جمال الــدين الأفغـاني، الـذي أســمع العـالم الإسـلامي من شـرقه إلى غربه بادئًا مرحلة الانتقـال الفكري والمخـاض، دون أن يظهر الوليد المنشـود، فـإن عوامل جديدة وقـوى جديـدة أخرت الميلاد وأصبحت تهدد بإجهاضه، وهو ما يتطلب من المفكرين الإسلاميين مزيــدًا من العناية، فليس شرطًا أن تمر الأمور هونًا، أو أن يبلغ الأمل محله، وقد تـأتي الريـاح بما لا تشتهي السفن.

وشـواهد الحـال تحـذرنا، فالمعسـكر الإسـلامي رغم ظـواهر "الصـحوة" لا يـزال متخلفًا متقهقرًا أمام عالم العصر الحديث، عـاجزًا عن مجابهة تحدياته بحلـول صـريحة واضحة تقف على قدم المساواة أمام هذه التحديات بحيث تلزمها الحجــة، إن لم تثبت أفضـليتها، والـدول الإسـلامية على اختلاف مـذهبياتها الإسـلامية متقاطعة متخاصـمة.. مزقتها تيارات السياسة ولم تجمعها وحدة الفكـر، بينما تظهر قـوى جديـدة في العـالم الأوروبي تجتـاز مسـاحات واسـعة من المعسـكر الإسـلامي، وتنتقص من أطرافها في أندونيسـيا وبنجلاديش والقـدس حـتى أصـبحت طرقـات الأعـداء يمكن أن تسـمع على أبواب الديار المقدسة وصميم العالم الإسلامي.

في هـذه الملاحظـات سـنتعرض لأبـرز الخطـوط الـتي تحكم ظـاهرة "الصـحوة الإسلامية" إيجابًا وسلبًا، فهنـاك عناصر قـوة تـدفعها وتـدعمها كما توجد عناصر ضـعف تعرقلها وتؤخرها، وبقدر انتصار عناصر القوة على عناصر الضعف تكون قدرة الصـحوة الإسلامية على أن تتحول إلى نهضة. وإذا انتصرت عوامل الضعف فسـتتحول الصـحوة إلى نكسة وإغفاءة أخرى طويلة وبقدر ما نقول بالنسبة لهذا الاحتمـال الأخـير "لا قـدر الله" بقدر ما يكون علينا أن نعمل لتجنبه ﴿**إِنَّ اللـهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: 11] **.**

وفيما يلي عــرض مــوجز كما لو كــان موازنة حســابية لعناصر القــوة والضــعف ومحاولة لاستقراء النتائج والاحتمالات.

أولاً: عناصر القوة:

أ- في الناحية الأيديولوجية:

في قضـــية كالصـــحوة الإســـلامية لا يجـــوز لنا أن نضـــائل من أهمية العوامل الأيديولوجيــة، بل إننا لا نبــالغ إذا وضـعناها في الصـدارة، ومنحناها الأولويـة، لأنها بلغة العصر تمثل "النظرية" التي لا يكون التطبيق بدونها إلا ارتجاليًا وعشــوائيًا. إن النظرية تضع الطريق السوي الذي يجب أن تسلكه الصحوة حتى لا تتخبط، وتذهب بهذا الأهواء والمطامع والاجتهادات والمؤامرات الوقتية.

وليس من اليسـير أن نجد "نظريـة" محكمة لأنها قمة الفكر ونهاية المطـاف، أن الماركسية التي جذبت أزكى العقول الأوروبية وكانت محورًا للدراسة لمدة مائة عـام.. لم تثبت أمام التطبيق وكشفت سبعون عامًا فحسب عن المآخذ الجسيمة فيها..

ومن حسن حظ الصـــحوة الإســـلامية أن عناصر قوتها تتجلى في هـــذه الناحية الأيديولوجية التي تمثل "الثوابت" وإن كانت عناصر الضعف – كما سـنرى – أهـدرت – ولو لحين هذه الأهمية:

وأهم عناصر القوة في الناحية الأيديولوجية هي:

1- وجود القرآن الكريم:

إن القرآن هو أعظم ذخر للصحوة الإسلامية لأنه العامل الوحيد الـذي يجمع مزايا وخصائص لا يمكن أن توجد في غيره فهو حامي الوحدة اللغوية والفكرية.

وقد حفظ اللغة العربية القياسية من أن تنتاشـها اللهجـات الإقليمية وتمزقهـا. ثم هو الإطار الأعظم للعقيدة والشريعة التي تجمع عليها المسلمون قاطعية. وأخـيرًا فإنه بأسلوبه المعجز وإيقاعه المؤثر ومعانيه السامية وأحكامه المثلى لا يـزال النبع الـذي لا يغيض أو ينضب للإيمان الإسلامي. وهو يلهم الإيمان اليوم بالقوة نفسها التي كان يلهم بها الإيمــان من أربعة عشر قرنًـا.. بل إن العصر الحــديث يكشف كل يــوم أدلة على إحكام القرآن وإعجازه تزيد الإيمان به..

ومن النادر أن نجد أمة فيها مثل هذا القرآن والمثال الوحيد – مع الفارق الجسيم – هو بني إسرائيل الذين أطلق عليهم القرآن "أهل الكتاب" والذين اسـتطاعوا، بفضل هـذا الكتـاب ورغم كل ما لحقه من تحريف وتزييف – أن يتماسـكوا وأن يصـبح العامل الوحيد الذي يجمع.. وسط عشرات العوامل التي تفرق.

إن القــرآن الكــريم كــان – وســيظل – أعظم رأس مــال الــدعوة الإسلامية وصحوتها.

ب- شخصية الرسول (سيدنا محمد ﷺ).

إن هـذه الشخصـية الفريـدة لا تـزال منذ ظهورها حـتى الآن وهي تبلـور وتجسد الشخصية الإسـلامية (كـان خلقه القـرآن) وأقل ما يقـال عنها إنها بالنسـبة للمسـلمين جميعًا كالملك أو(الملكـة) بالنسـبة للكومنـولث البريطـاني، عنصر يربط كل شـعوب الكومنـولث بربـاط ولاء يعـود إلى جـذور تاريخية ودون أن يتضـمن عنصـرًا من عناصر القسم والإلزام. وهو مجرد مثال تقريب جانب واحد من جوانب شخصية محمـد، ونحن نورده، كما أورد القرآن الكريم المثل لنور الله كمشكاة فيها مصـباح.. أو لقدرته بذبابه وبعوضـه.. لأن الـولاء لمحمد لا مثيل له في التـاريخ في نـاحيتي العمق والمـدى على سواء..

ولما كان الرسـول يمثل القيـادة – الإنسـان – الـذات... فـإن هـذا يكمل للإسـلام شقيه وتتضح الحكمة في ثنائية التشهد الإسـلامي **"أشهد أن لا إله إلا اللــه.. وأن محمدًا رسول الله".**

وقد تزيد آثار شخصية محمد لأن الرسول قام بجزء كبير من التشريع لأن القـرآن بطبيعته وصياغته ونظمه لم يشر إلا إلى الكليات وترك تحديد التفاصيل للرسول. ومن

هنا أصبحت السنة مكملة للقرآن.

ويتفق هذان العنصران من عناصر القوة الأيديولوجية في أنهما محل التسليم من المسلمين كافة. فلا يمارى مسلم في قداسة القرآن، وإنه كلام الله وصل إلينا كاملاً غير منقوص أو محرف ولا يمارى مسلم في أن محمدًا قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة وضرب المثل الأعلى للقائد والزعيم وأن شخصيته كرسول ومشرع وقائد ورجل دولة إلخ.. فاقت أي شخصية أخرى في العالم الأوروبي قد بدأ العالم الأوروبي يعترف بهذا مع انكشاف المؤامرة الصليبية على شخصية النبي. ولم يكن عبثًا أن يضعه كاتب أمريكي على رأس مائة شخص أثروا في تاريخ البشرية.

ج- التراث الحضاري:

إن الفترة التي تلت العهد النبوي مباشرة أي الخلافة الراشدة تمثل تراثًا حضاريًا وتقدم حلاً إسلاميًا للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي جابهت الإسلام عندما خرج من مجتمع المدينة المغلق والمحدود إلى آفاق الإمبراطورية المنفسحة والمفتوحة ويمكن أن تعد من باب "السوابق الدستورية" الملهمة للمجتمع الإسلامي.

فإذا كانت عبقرية الخلافة الراشدة قد وقفت في نهاية هذه الخلافة – بعد قرابة ثلاثين عامًا – فإن المجتمع الإسلامي – حتى في أظلم عهوده – لم يخل من الشخصيات المضيئة التي قامت بدورها وقدمت إضافتها الخاصة ليس فحسب في مجال الحكم والسياسة ولكن أيضًا في مجال العلوم و الفنون.

وهذا هو ما نسميه "التراث الحضاري" وهو يمثل الامتداد التاريخي السليم ويمكن أن يلهم الصحوة الإسلامية الشيء الكثير..

على أنه من المهم أن نميز بين شقين في هذا التراث:

الأول: يمثل الإبداع وهو ما نجده في تراث الخلافة الراشدة.. وعباقرة الفقهاء والعلماء المسلمين..

الثاني: وهو ما يمثل الإتباع والتقليد الذي بدأ مع إغلاق باب الاجتهاد والعكوف على الفروع والجزئيات وهذا الشق ليس له أهمية الشق الأول. وفي كثير من الحالات تنتفي منه كل آثار الإبداع أو الإضافة ويكون استلهامه مضللاً، لأنه يعني بالفروع والتفاصيل، وليس بالكليات والأصول، لأنه كتب بأقلام "مدرسيين" في ظروف وملابسات ومناخ لم تكن هي المثلى دائمًا.

***

من هذا العرض لعناصر القوة في الناحية الأيديولوجية نجد أن الصحوة الإسلامية يتوفر لها كل مقومات وأركان النهضة فلديها كتاب يرمز لوحدتها ويضم نظريتها ودستورها وعقيدتها وشريعتها ولديها الشخصية القيادية الملهمة "الأسوة" التي أدت دور القائد والزعيم أداء لم يسبق ووضع ما ينبغي أن يكون عليه القائد إيجابًا وسلبًا، أي ما يجب أن يقوم به وما يجب أن يتنزه عنه ثم لديها تراث حضاري أدبي وعلمي ويمكن أن يسهم في حل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولا يخالجنا شك في أن الصحوة الإسلامية من هذه الناحية أفضل من أي "حركة" أخرى. ويمكن لها – من هذا المنطلق، ليس فحسب أن تتحول إلى نهضة ولكن أيضًا أن تقوم بدور في إنقاذ البشرية المعاصرة الضالة.

د- في الناحية المادية:

لا ريب في أهمية الناحية المادية، وقد يكون حقًا ما يقولونه عن أن المال (عصب الحياة) ولكننا مع هذا نريد أن نوجه الأنظار إلى عدد من الحقائق:-

أ- أن رأس المال ما هو إلا عمل مبلور والعمل بدوره ثمرة للفكر سواء كان عقيدة أم علم فاليابان مثلاً ليس لديها مواد أولية أو قوى محركة وهي تستوردها بأغلى الأثمان وقد خرجت من الحروب العالمية الثانية مدمرة ولكنها استطاعت أن تصبح بعد أربعين عامًا أقوى دولة صناعية لأن التراث الحضاري الياباني يقدس العلم والعمل وفي مقابل هذا نجد في السودان مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة والتي تروي بالأمطار ومع هذا لا يستطيع السودان أن يسد حاجات العدد المحدود من سكانه ويعمل باستيراد القمح وغيره من المنتجات الزراعية لأن السودان كبقية الدول العربية وكما سيلي لم يفهم من الإسلام وهو تراثه الحضاري إلا جانبه العبادي [28].

ب- أن الثورات يمكن أن تكون أعظم (الصفقات الاقتصادية) ويمكن أن تدفع الاقتصاد دفعًا إلى الأمام وتستأصل كل المعوقات في طريقها.

ج- أن الثروة المادية الضخمة وأن كانت بلا شك تمثل قوة ضخمة إلا أنها عادة ما تصطحب بسوء الاستخدام وسوء التوزيع بحيث قد تفضلها ثروة معقولة لا تصطحب بسوء الاستخدام أو سفاهة التوزيع. وإذا كانت موارد الإسلامية تعجز عن تحقيق الوفرة فإن العدالة الإسلامية يمكن أن تمحو الفاقة.

ومع هذا كله فقد أنعم الله تعالى على الدول الإسلامية وجعل في بلادها ثروات عديدة وفجر البترول خلالها تفجيرًا بحيث أصبحت بعض دوله من أغنى دول العالم.

ثانيًا: عناصر الضعف:

أ- الناحية الأيديولوجية:

1- القصور في فهم الإسلام

بعد عشرة قرون من التقليد تقوقع الفكر الإسلامي في عدد محدود من المذاهب التي عُنيت بفروع الفقه وشكلياته وابتعد عن النظر في القرآن مكتفيًا بما قاله الشراح وغطت طبقات بعد طبقات أساسيات وجوهريات الإسلام وروحه ورسالته بحيث أصبح مدلول الإسلام هو التمذهب بمذهب معين وإتباع شكليات معينة كالصلاة والصوم والحج تبعًا لشراح المذهب.

ومن الواضح أن الإسلام لم يكتسح العالم القديم وينتصر على الفرس والروم لأنه يقرر شكلاً معينًا في الركوع والسجود أو الحج والطواف.. إلخ وأنني انتصر لأنه كان قوة تغيير كبرى وثورة على المجتمع القديم الذي كان يقوم على شرعة التمييز والطبقية والاستغلال وعبادة الطاغوت. كان الإسلام يحمل رسالة العلم والعدل والمساواة والحرية (الكتاب والميزان) وكان يستأصل بالسيف كل من يرفض ذلك أو يتمسك بالأوضاع الاستغلالية والتحكمية والطبقية.

---

28 (?) كتب هذا البحث منذ قرابة عشر سنوات وقبل التطورات الأخيرة في السودان.

ومعنى هذا أن حيوية الإسلام وانتصاره الأول إنما يعود إلى أنه دعوة لتحقيق الحياة الكريمة والمجتمع العادل وتحطيم الوثنيات وإحلال العلم والحرية والمساواة والعدالة محلها.

ولكن الفكر الإسلامي طوال القرون العشرة الأخيرة تجاهل هذا واقتصر فهمه للإسلام على أنه صورة معينة للعبادة.

صحيح إن العبادة مقوم هام من مقومات الإسلام. ولكن كل الأديان لها عبادات والجديد الذي جاء به الإسلام وميزه على الأديان الأخرى أنه لم يقتصر على العبادة ولكنه عالج بقوة ووضوح القضية الاجتماعية ووضع لها الحلول والخطوط الرئيسية فأوجب في السياسة مقاومة الاستبداد والطغيان وتأليه الحكام وجعل البيعة والشورى من أركان النظام السياسي للإسلام وفي الاقتصاد أوجب التكافل الاقتصادي وفرض الزكاة وجعل لها مصارفها باعتبارها حق معلوم وحرم الربا والاكتناز وكل صور الاستغلال. وفي النظام الاجتماعي حرر المرأة وأسقط كل صور التمييز الطبقي التي كانت تحكم العالم القديم من نسب أو لون أو جنس وحث على الثقافة والمعرفة والتفكير والتدبير وأوجب العمل وندد بالذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

والإسلام يضع هذا الجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في منزلة العبادة نفسها ولا يفرق بينهما. ومن هنا نفهم (ثنائيات القرآن) فهو لا يذكر الصلاة إلا ويقرنها بالزكاة ولا يشير إلى الذي أمنوا إلا ويقرنهم وعملوا الصالحات. والربا ظلم عظيم والظلم شرك وعبادة الملوك والحكام وثنية.

هذا الجانب هو سر حيوية الإسلام لأن المجتمع لا ينهض إلا به وإذا أهمل فقد تؤدي كل صور العبادات من صلاة أو صوم أو حج ويسود مع هذا الظلم والجهل والفاقة في المجتمع الإسلامي. كما هو حادث فعلاً وقد تقبل الذين يقصرون الإسلام على العبادات هذا الوضع وهذه هي مأساة الفكر الإسلامي. وقد يصور هذا الفهم وتغلغله أنه عندما نادت إحدى الهيئات الإسلامية بأن يكون الإسلام دينًا ودنيا مصحفًا وسيفًا.. إلخ فإن كثيرًا من أتباع هذه الدعوة نفسها لم يفهموا من هذا إلا أن الدولة الإسلامية هي الدولة التي تفرض العبادات وتوجبها على الناس بردع السلطان وقانون العقوبات.

ولو ألقينا نظرة على الصحافة الإسلامية لوجدنا أنها في الوقت الذي يتحكم الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي وتنتشر الفاقة والحاجة وتتعدد المشكلات فإنها لا تشير إلى شيء من هذا كأنها في عالم آخر وتملأ كل صفحاتها بالأحاديث عن الوضوء والصلاة وأركان الحج.. الخ.

2- العجز عن التوصل إلى صياغة (للمبادئ الإسلامية)

تثبت وجودها أمام تحديات العصر، وهذا العجز مرتبط بالخطأ في فهم الإسلام، هذا الخطأ الذي حصر الإسلام في العبادة وأبعده عن الحياة والمجتمع والقضايا العامة والأخذ بأسلوب النقل والإتباع والتقليد وليس إعمال الفكر والتفكير والتمحيص. فلما جوبه الفكر الإسلامي بالعصر الحديث لم يستطع أن يتعامل معه لأنه يعيش في عالم يعود إلى عشرة قرون خلت. وما مثل علماء المسلمين اليوم إلا كأهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا ثم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، وورقهم لا يصلح للتعامل.

وهكذا ظلت مجالات عديدة شاغرة من الحل الإسلامي ولم يتقدم المفكرون

الإسلاميون إلا بصور ساذجة من الحلول لا تتلاءم مع عمق وتعقيد المشاكل سـواء كـان ذلك في السياسة أو الاجتماع أو الفنون أو الآداب أو الاقتصاد أو العلاقات ما بين العمال وأصحاب الأعمال أو الصحافة أو المرأة.. إلخ.

في هـــذه المجـــالات كلها قد نجد الـــرفض وقد نجد التجاهل وقد نجد الحلـــول الساذجة أو الخاطئة نتيجة لاستلهام آراء وضعها الفقهاء منذ عـدة قـرون وفي ظـروف وملابسات تختلف تمامًا.

وليس هذا ذنب الإسلام.. فالقرآن الكريم قد أرسى الأسس والمبـادئ الـتي يمكن أن تصلح أساسًا لتأصيل الرأي من إعمال الفكر وابتغاء الحكمة أيًا كانت وعدم الاعتـداد بما قرره بالآباء والأجداد. بل إن الاقتباس نفسه مبدأ إسلامي وإذا كان الشيء المقتبس حسـنًا فنحن أولى به وقد قـال النـبي عن موسى **(نحن أولى به منهم) فليس هناك حساسية يمكن أن يستشعرها الإسلام نحو الجديد مادام هـذا الجديد يمكن أن يـدخل في إطـار الأصـول الإسـلامية العامة وفي سـبيل تقبل الأفضل والأحسن أجاز الحديث لمن حلف على يمين فـرأى خـيرًا منها أن يكفر عن يمينه وأن يأتي الذي هو خير (مسلم).**

3- ضعف الهيئات الإسلامية:

كان لابد أن تصاب الهيئـات الإسـلامية بـالوهن نتيجة للعـاملين السـابقين وعنـدما رزقت الدعوة الإسلامية قـادة أكفـاء أو ظروفًا مواتية فإنها لم تـترك إلا قليلاً وضـربت عنـدما حـانت الفرصـة. وقد ضـربت الـدعوة الإسـلامية في أندونسـيا ومصر ونيجيريا وغيرها كما قيدت أو اسـتقطبت في دول أخـرى. وكـان من أبـرز ما رزئت به الهيئـات الإسلامية عدم وجود القادة الأكفاء بحيث أصبحت هذه الهيئات (جيوشًا بدون جنرالات) وظهرت صـور من انفلات العيـار وغلبه الجمـوح والتشـدد على مجموعـات عديـدة من شباب الهيئات الإسلامية.

ويجب ألا نخدع بما نسمع عن انتصارات للدعوة الإسلامية فإنها فلتات وأنها لا تعد شيئًا أمام التقدم المستمر والمنتظم للهيئات الأخرى مدنية أو تبشيرية.

4- مقاومة النظم الحاكمة:

الحقيقة التي تفرض نفسها على كل مفكر أمين ولا مفر من الاعتراف بها هي أن المنطقة الإسلامية تحكم بنظم ليست هي أمثل النظم أو أقربها إلى الإسلام وإنها على اختلاف مواقعها وسواء كانت قبلية أو عسـكرية فإنها أولاً وقبل كل شـيء نظم حاكمة يهمها بالدرجة الأولى الحكم وما يتبعه من ســلطات ولما كــان الإســلام أقــوى منها جميعها. فـإن فكـرة مقاومته أو التنكر له صـراحة مسـتبعدة تمامًا من كل هـذه النظم ولكن هــذا لا ينفي أن لكل منها وســائله الخاصة لكبت المد الإســلامي حــتى لا يضر أوضاعها ومصـالحها فبعض النظم تحـاول احتـواء هـذه الـدعوات واسـتقطابها والإبقـاء عليها في حدود الأمان والبعض الآخر يكثف المعنى العبادي ويركز الاهتمــام عليه يلفت الانتبــاه عن الجــوانب الأخــرى من حريــات أو عدالة والبعض الثــالث يمتص الــوعي والحماسة بمختلف الوسائل أو الادعاءات.

وقد تكون الوعود والاستحسان وسيلة لامتصاص الاهتمام كما هو حـادث بالنسـبة لتطبيق الشريعة الإسلامية [29] فإن المسئولين يبـدون اهتمـامهم الكبـير واستحسـانهم

29 [(?)] كما كان الحال في مصر في الثمانينات.

المطلق ولكن دون أن يعملوا شيئًا أو لعلهم يعملون في وضع المعوقات والأشواك في طريق التطبيق.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة.. ويروغ منك كما يروغ الثعلب...

أما الوسائل البوليسية فإنها آخر المطـاف ولكنها موجـودة دائمًا ويلاذ بها سـرًا أو جهـرًا. وقد أصـبح الاعتقـال والتعـذيب أمـرًا مألوفًا ومقـررًا لمـدى معظم نظم الأمن الإسلامية والعربية.

5- معارضة "المصالح المكتسبة":

على امتـداد قـرن تقريبًا اسـتطاع الاسـتعمار أن يغـرس أصـول الحيـاة الليبرالية الحديثة.. وقامت مؤسسات عديـدة على أساسـها، وأصـبح لها مصـلحة في حماية هـذا الوضع.. فكل دور الملاهي والمراقص والحانات وكل مصانع الخمـور ووسـائل التجميل وحلبات الرقص وكل البنوك والمنشآت المالية التي تقوم على الفائدة وتمارس صـورًا من الاسـتثمار والنشـاط الاقتصـادي المحـرم ونقابـات العمـال المخدوعة والمضـللة والصحافة الـتي تظن أن الفكر الإسـلامي ضد حرية الـرأي والأحـزاب الـتي اسـتمرأت "قضية الحكم" وأجهزة الإعلام وهيئات الرياضة... إلخ كل هـذه الهيئـات والمؤسسـات تعارض – بـدرجات متفاوتة الفكر الإسـلامي، بعضـها لأن نشـاطها بالفعل يخـالف بعض الأصــول الإســلامية ولكن الأكثرية لأنها مضــللة أو لأن الــذين يتحــدثون باسم الفكر الإسلامي يقدمونه في صورة مشوهة.

احتكار المؤسسة الدينية:

يوجد في العالم الإسلامي مؤسسـات دينية تعد كل واحـدة نفسـها المسـئولة عن الإسـلام، ففي السـعودية مثلاً نجد هيئـات الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، وهيئة البحوث والدعوة والإرشاد والإفتاء. وجامعات عديدة تتفق عليها الدول وتـدير شـؤونها. وفي مصر الأزهر وكلياته ووزارة الأوقـــاف. وفي إيـــران نجد "الحـــوزات" العلمية والمراجع و"آيات الله"..

وفي كل حالة من هـذه الحـالات، فـإن المؤسسة الدينية تظفر وحـدها بمـؤازرة الدولة، بينما تُثبط وتحارب أي اتجاه آخـر.: ومن ناحيتها فـإن المؤسسة الدينية تـرى أن الدعوة هي وظيفتها وأن تفسير القرآن وتأويل الأحاديث ومعالجة القضـية كلها يجب أن تكون حكرًا لها. ولا يجوز لآخر أن يتدخل فيها، وحجتها أنها الهيئة المسـئولة الـتي يتـوفر لها مـالا يتـوفر لغيرها من المعرفة الفنية والأحكـام النظريـة. وفي كثـير من الحـالات تتترس الدولة وراءها أو تتمحك فيها أو تزجي لها الثنـاء (كالحـديث المعـاد عن الأزهـر). وقد تدفعها لمناصرة رأيها ومعارضة مخالفيها أو تغريها بمصـادرة كتـاب إلخ.. وعـادة ما تحاول المؤسسة الإسلامية أن تنأى بنفسها عن هـذا ولكنها قد تعجز عن المقاومة وتجد نفسها منساقة مع النظام الحاكم.

ظهور شرازم التطرف:

ظهرت الشرازم المتطرفة أول مرة في السـجن الحـربي بمدينة نصر في الحقبة الناصرية وكـرد فعل لوحشـية سـجانيه وجلاديه وما اقـترفوه من جـرائم منكـرة جعلت

بعض الشباب يرون أن الذين يمارسون هذه الممارسات ليسوا من الإسلام في شيء، وإنهم إلى الكفر أقرب. وكـانت أولاها هي جماعة شـكري مصـطفى الـتي أطلق عليها "التكفير والهجرة".

وقد حـاول الإخـوان أن يقنعـوا هـذه الشـرازم بخطأ تكييفها أو أسـلوبها. ولكنهم عجزوا.. وفشلوا أمام إجرام النظام..

وهذا هو التصوير الحقيقي والواقعي لظهور تلك الشرازم الشاردة، العنيفة، الـتي لجأت إلى الإرهاب، أما العودة بها إلى ما قبل ذلك فإنه تعسف للحقيقة..

وقد ظهر وتفشى أخـيرًا الفسـاد، بينما ظلت قـوى الضـغط على الشـعب وحكمه حكمًا بوليسيًا وبأغلبية مزيفة.. تـزود هـذه المجموعـات بـدافع جديـد، إذ لم يعد أمامها قناة لإعلان رأيها أو الإصلاح بطرق مشروعة.

والتطـرف والشـطط ظـاهرة معروفة في مثل هـذه الملابسـات وقد حـدثت في معظم الدول بصور متفاوتة وحتى الآن فإن سـجل "النهليسـت" في روسـيا القيصـرية يعد أضخم سجل للتطرف السياسي شهده العالم واسـتهدف تحطيم الحكم القيصـري وراح ضحيته مئات من الشـبان والشـابات.. فهو فكر لا يعد أصـيلاً إلا لـدى القلة الـتي هي مهيئة بحكم طبيعتها له.. ولكنه "كظـاهرة اجتماعيـة" يعـود إلى ظـروف اسـتثنائية ويرتبط علاجه أو الحكم عليه.. بهذه الظروف نفسها – لأنه حـتى عنـدما يشط أو يخطأ أو يجاوز الحدود فإنه يعتمد على مبدأ الاستثناء والضرورة الـتي تـبيح المحظـورات ولو لم توجد الضرورة لما أبيحت المحظورات.

ولا علاج لظـاهرة التطـرف والإرهـاب ما ظل الفسـاد فاشـيًا، والحكم بوليسـيًا والحريات مكبلة بالأغلال.

إن الحل الوحيـد هـو الحريـة.. ومـا ظلت النظم الحاكمـة تأباهـا على شعوبها، فعليها أن تدفع الثمن..

خاتمــة

مع أن هذا العرض لعناصر القوة والضعف في الصحوة الإسـلامية قد يعلي عناصر الضعف ومقاومة الصحوة على عناصر القوة فيها، فتظل الحقيقة الأساسـية أن عناصر القوة هي في الثوابت: الله والرسول الذي يمثل النظرية والتطبيق مما يفسح المجـال لإمكان انتصار الصـحوة إذا اسـتطاعت توظيف رأسـمالها توظيفًا حسـنًا، يجعلها تنتصر على عناصر المقاومة التي هي كلها "عارضة".

والأرض لله يورثها عباده "الصالحين".

***

-10-

رأي الإخوان المسلمين في الوحدة العربية

في 18 من سبتمبر سنة 1944 أرسل مكتب المرشد العام مذكرة هامة إلى "رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية" تضمنت رأي الإخوان المسلمين في قضية الوحدة العربية.

ولمناسبة مرور خمسين عامًا على تاريخ هذه المذكرة. وللأهمية الكبرى لموضوعها رأينا أن نثبتها هنا، ونجعلها خاتمة مباحث هذا الكتاب.

وكما سيرى القارئ بأن هذه المذكرة الهامة – والتي تكاد تكون مجهولة – تثبت أن الإخوان المسلمين يناصرون بقوة وحدة الأمة العربية ويؤدون بشدة كل بعناية الاستقلال الفتي كانت لا تزال غير محققة – (قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وقبل قيام جامعة الدولة العربية) – وهي تقضي قضاء مبرمًا على فكرة التعارض ما بين الوحدة العربية والدعوة الإسلامية. فالوحدة العربية هي القلب من وحدة أكبر منها هي الوحدة الإسلامية، التي بدورها يمكن أن تدخل في دائرة أكبر هي العالمية..

ونقطع بأن هذه الوثيقة هي من قلم الإمام الشهيد حسن البنا يوحي بذلك الأسلوب السهل السائغ. والمعاني المؤثرة، والنظرة المتحررة من الرواسب والأفق الواسع وتفادي الموضوعات الشائكة التي تثير الخلاف وقد صدرت الوثيقة بعد من "مكتب المرشد العام".

ولم ترد الإشارة إلى هذه الوثيقة فيما بين يدينا من كتابات عن الإخوان، ولم يرد لها ذكر في كتاب الأستاذ محمد عبد الحليم وهو أشمل ما كتب عن الإخوان، رغم أنه تحدث طويلاً عن ملابسات تكوين الجامعة العربية..

وفيما يلي نص هذه الوثيقة.

حضرات السادة الفضلاء رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد.

ففي هذه الساعات التاريخية الفاصلة في مستقبل الأمم والشعوب عامة والأمة العربية خاصة، قدر لكم أن تعقدوا اجتماعكم هذا وأن تضطلعوا بأجل مهمة في تاريخ أقصى المغرب ومن ورائهم ثلاثمائة مليون مسلم **"والإسلام عروبة بعد العروبة"** والجميع يراقبون بلهفة وشوق وأمل عظيم ما تقررون وينتظرون منكم، وضوح المؤمنين، وعزائم المجاهدين، وصلابة الذين لا يخافون في الحق لومة لائم، ويسعدهم أن يفتدوا حقوقهم بأنفسهم وأولادهم ودمائهم وأموالهم. فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يترككم.

وأني باسم الإخوان المسلمين في أنحاء المملكة المصرية، وفي بلدان العالم العربي والإسلامي المختلفة، أرفع إليكم أطيب التهنئات وأجمل التحيات سائلاً الله تبارك وتعالى أن يبارك عملكم وأن يرفع العقبات من طريقكم، وأن يهيئكم لخير أمتكم وبلادكم أنه نعم المولى ونعم النصير.

أيها السادة الفضلاء:

أنكم لتدافعون عن أعدل وأنجح وأوضح قصة في التاريخ. فمن البديهيات التي لا تقبل الجدل (أن العرب أمة واحدة) وأن هذا التعبير لا يساوي في أحقيته ووضوحه واستقراره في النفوس والأذهان قول القائلين "السماء فوقنا والأرض تحتنا" فقد اصطلحت على تكوين هذه الوحدة العربية وتدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية والجغرافية والتاريخية وأن العرب من خليج فارس إلى المحيط الأطلسي ليتحدون بوحدتهم أية أمة متحدة في القديم والحديث وليست تعوز هذه القضية الأدلة والبراهين. ولكنها يعوزها ثبات المؤمنين وعدالة المنصفين. فإذا حققتم في أنفسكم الأولى، وهو العهد بكم وحقق حلفاؤكم الثانية وهو الظن بهم فقد عاد الحق إلى أهله ووضعت الأمور في نصابها، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

أيها السادة الفضلاء:

إن بين يدي مؤتمركم ولجنتكم أمورًا كثيرة أنتم مطالبون بدراستها وتمحيصها، وأهدافًا كثيرة أنتم مطالبون كذلك بتحقيقها والوصول إليها وأن من الخير للقضية العام أن تصارحوا الشعوب والهيئات بما بين أيديكم، لتكون لكم مددًا وعونًا، وأن تصارحكم الشعوب والهيئات بما ترى، ليكون ذلك مكاشفة ونصحًا، ولهذا أتقدم إليكم باسم الإخوان المسلمين بهذه الخواطر، راجيًا أن نكون بذلك قد أدينا بعض الواجب، وساهمنا في هذا الجهاد المبرور.

ومن تلك الأهداف:

أ- تحقيق مظاهر الوحدة العامة.

فهناك خطوات أولية تعتبر وسائل عملية للوحدة المنشودة وهي في الوقت نفسه من حق الحكومات العربية الخالص التي لا ينازعها فيه منازع ومن تلك الخطوات:

1- رفع الحواجز الجمركية.

إلغاء جوازات السفر ومنح حرية المرور والتنقل في أي قطر من الأقطار العربية لكل عربي بعد التأكد من شخصيته وإباحة الهجرة والاستيطان على نظام واسع ميسر.

التوسع في التعاون الاقتصادي وتأليف الشركات العربية الواسعة النطاق من سكان البلاد العربية جميعًا في أي قطر من هذه الأقطار ودراسة المشروعات العربية العامة دراسة مشتركة وإحياء ما تعطل منها كمشروع سكة الحديد الحجازية التي أنشئت بأموال العرب والمسلمين جميعًا وأوقافهم.

تنمية التعاون الثقافي والتشريعي والعسكري بتوحيد برامج التعليم ومناهجه وتوحيد منابع التشريع وقواعده، وتوحيد نظم التدريب العسكري وأساليبه، ومؤتمر الوحدة العربية مطالب من العرب جميعًا بأن يعمل على تقرير هذه الخطوات ورسم الخطط الموصلة إلى تحقيقها وجميع الحكومات والشعوب العربية عليها.

تحقيق الأماني القومية ومساعدة الأمم الناشئة على نيل استقلالها واستكمال نهوضها.

وتأتي بعد الخطوة السابقة خطوة ثانية، فإن للبلاد العربية مطالب قومية وحقوقًا

سياسـية لم تنلها بعـد. ولا فائـدة من ذكر العوامل التاريخية والحـوادث الـتي أدت إلى انتقـاص هـذه الحقـوق واغتصـابها ولكن الـذي يفيد ويجـدي الآن أن نواجه الأمر الواقع والوضع القائم ونجاهد في سـبيل تحقيق هـذه المطـالب وتخليص تلك الحقـوق، وعلى مؤتمر الوحدة العربية ولجنته التحضـيرية أن يرسم للشـعوب والحكومـات طرائق هـذا الجهاد المشترك وأن يقرر تكاتف الجميع في سبيل كسب هذه القضايا التي منها:

العمل على اسـتكمال اسـتقلال مصر والمحافظة على وحـدة وادي النيـل، فكل محاولة يراد بها انتقـاص اسـتقلال مصر أو تقييد هـذا الاسـتقلال أو تمزيق وحـدة وادي النيل عمل ظالم، يؤثر في كيان الأمة العربية العامة، وعلى كل شعب عــربي وحكومة عربية أن يشد أزر مصر وحكومتها وشـعبها في سـبيل هـذه القضـية حـتى تفـوز فيهـا. ويجب أن يكون مفهومًا للرأي العام العربي العالمي كله أن مصر حين تتمسك بوحــدة وادي النيل لا تعتدي بذلك على شعب من الشعوب ولا تستعبد أمة من الأمم ولا تطمع في توسعة حدودها، أو زيادة مساحة أرضـها أو تنمية ثروتها على حسـاب غيرهـا، فكل هـذه المـزاعم باطلة لا وجـود لهـا، ولكن مصر حين تتمسك بالنيل الأعلى تحقق بـذلك وحدة شعبها. فمصر والسودان أمة واحدة. وتحافظ على صـميم كيانها وتضـحي بكثـير من مواردها وثروتها وجهودها. وأن حاجة هذا الجزء من الأرض إلى مصر لأعظم بكثـير من حاجتها هي إليه.

العمل على استكمال استقلال البلاد الشـامية على اختلاف أقسـامها. وإذا أصـرت لبنان ومثيلاتها على المحافظة على استقلالها فليكن ذلك لها حتى يقنعها الـزمن وتثبت لها الحوادث أن من خيرها بل من ألزم اللوازم لها أن تعـود إلى أحضـان أمها "سـورية الكبرى" وأن ذلك لقـريب فنحن في عصر الوحـدات القوية والكتل الشـعبية الجامعة – ومـادامت سـتتفق مع غيرها من الشـعوب العربية على كل مقومـات الوحـدة العملية فحسبنا ذلك منها الآن ولعل من الخير للمؤتمر وللبلاد الشامية خاصة والعربية عامة ألا تجعل من هذه القضية عقبة تصطدم بها في فورة الشعور وثورة الحماسة حتى يفصل فيها الزمن والزمن جزء من العلاج.

العمل على حل قضــية فلســطين حلاً يتفق مع وجهة النظر العربية ويــؤدي إلى ســلامة هــذا الجــزء من الــوطن العــربي – وهو منه بمثابة القلب من الجسد – وإلى المحافظة كل المحافظة على أن يظل عربيًا خالصًا وإلى دفع العدوان اليهـودي وذبذبة السياسة الدولية عنه بكل الوسـائل، فـإن العـرب جميعًا وفي مقـدمتهم أعضـاء اللجنة يدركون مدى الأخطار العربية التي تهدد كيان الأمة العربية وتحطم أمالها إذا اســتقرت قدم اليهود في فلسـطين. والشـعوب العربية كلها قد وطـدت العـزم على أن تسـتنقذ فلسطين مهما كلفها ذلك من الجهود والتضحيات.

وإننا لنعطف على اليهــود في محنتهم ولكن ليس معــنى هــذا العطف أن يكــون إنصافهم بظلم غيرهم وإيواؤهم بإخراج سواهم من ديارهم أو مضايقتهم في أوطـانهم. وفي ممتلكات الدول الحليفة وأراضيها ما يتسع لإضعافهم وما هو في حاجة ماسة إلى كفايتهم ونشاطهم.

مسـاعدة بقية أقطـار الجزيـرة العربية "العـراق وملحقاتهـا" – والمملكة العربية الســعودية وملحقاتها – واليمن وملحقاتها على اســتكمال اســتقلالها ونهضــتها ودفع الدســائس السياســية المختلفة عنها وبخاصة وهي الآن في مهب عاصــفة قوية من التنافس الدولي الشـديد سياسـيًا واقتصـاديًا واجتماعيًا هي أمامها أحـوج ما تكـون إلى من يشد أزرها ويبصرها بمواقع الخير والشر لحاضرها ومستقبلها وليست هنـاك فرصة للنظر والاختيار أبدع ولا أوسع من هذه الفرصة التي إن أفلتت اليـوم فلن تعـود إلا بعد

حين.

العناية بتحرير الأقطـار العربية في شـمال أفريقية وإدخالها في دائـرة الوحـدة. فلوبيا بقسـميها "برقة وطـرابلس" يجب أن تعـود إليها حريتها واسـتقلالها وأن تظل قطـرًا واحـدًا تحت لـواء حكومة من أهلها بعد أن زال عنها سـلطان الغاصب المعتـدي وأن شأنها في ذلك شأن الحبشة سواء بسواء فإذا كان البريطانيون قد حاربوا وحـدهم الطليان حتى أجلـوهم عن الحبشة ثم سـلموها موحـدة مسـتقلة لإمبراطورها السـابق فـإن من واجبهم وقد طـردوا هـذا العـدو البغيض عن لوبيا بمسـاعدة أهلها ومسـاعدة الشعوب العربية لهم في ذلك أن يعيدوها لأهلها موحدة مستقلة كذلك وليس هنـاك ما يدعو على تمزيق وحـدتها وتقسـيم أرضـها ومعاملتها بغـير الأسـلوب الـذي عـوملت به سابقتها.

وتـونس والجزائر ومـراكش بلاد عربية وقعت تحت الاسـتعمار الفرنسي باسم الحماية تارة والاستعمار تـارة أخـرى وقد جاهـدت في سـبيل حريتها واسـتقلالها جهـاد الأبطال ولم تعترف بهذه الأوضاع التي رسمتها لها السياسة الاسـتعمارية في يـوم من الأيام. ثم ساهمت أخيرًا في المجهود الحربي للحلفـاء مسـاهمة عظيمة أطلقت السن زعمـاء الأمم المتحـدة بالثنـاء عليها وسـجلها المسـتر تشرشل في خطبه بالإعجـاب والإكبـار، وما كـان جيش فرنسا الحـرة الـذي حـارب في صـفوف الحلفـاء في شـمال أفريقية وفي إيطاليا وفرنسا إلا هـؤلاء الجنـود البواسل من أبنـاء هـذه الـديار العربية الصميمة ومن واجب المؤتمر العربي أن يطالب بحقوق هـذه البلاد كاملة وأن ينقذ من براثن الظلم والعدوان عشرين مليونًا من العرب لا زالوا متمسكين بعروبتهم مطـالبين بحرية بلادهم مهما أراد المستعمرون أن يظهروهم بغير هذا اللـون – لقد حـاول هـؤلاء الغاصبون خلال هذه السنوات الطـوال أن ينـالوا من وطنية هـؤلاء العـرب المجاهـدين بـالتجنيس وبالإرهـاب والضـغط الشـديد، وأن ينـالوا من عـروبتهم بالثقافة الأجنبية ومحاربة اللغة العربية والغـزو الاجتمـاعي، وأن ينـالوا من دينهم بالتبشـير ومقاومة الأوضـاع الإسـلامية بمثل الظهـير الـبربري فلم يُجْـدِهم كل ذلك نفعًا ومـازال شـمال أفريقية وسيظل عربيًا مسلمًا.

ونرى أن من واجب اللجنة أن تدعو إلى المؤتمر ممثلين من أبناء هـذه البلاد ومن أبناء فلسطين ليبسطوا أمامه قضاياهم ومطالبهم.

ونحن حين نرى أن يطـالب مـؤتمر الوحـدة بهـذه الحقـوق للبلاد العربية ويلح في المطالبة بها والثبـات عليها وأن يحتفظ لنفسه وللشـعوب العربية والحكومـات العربية بحق التمثيل في مـؤتمر الصـلح القـادم. لا نعتمد في ذلك على قـوة السـلاح وكـثرة الجيـوش والأسـاطيل فحسب العـالم ما قاسى من الاعتمـاد على القـوة ونبذ القـانون والعدالة. ولكنا نعتمد:

وعلى أن ميثـاق الأطلنطي الـذي قيد به الحلفـاء أنفسـهم وأيـدوه بكثـير من التصريحات قد ضمن هذا الحق لكل الشعوب.

وعلى أن الشعوب العربية قد ساهمت في المجهود الحربي مع الحلفاء مسـاهمة جليلة لاشك أنها كـانت من عوامل النصر والظفر لهم. وقد اعـترفت بـذلك حكومـاتهم وشعوبهم وصحافتهم.

ونعتمد أخـيرًا على هـذا التطـور في التفكـير العـالمي وهـذه اليقظة في الضـمير الإنساني، ويا ويح الدنيا إذا كانت ستسودها وتصرفها من جديد الأفكار الرجعية وتتحكم فيها المطامع الاستعمارية.

وإنا لنعلم حق العلم أن الطبيعة البشرية في كثير من الأحيان تنسى أنصـافها الـذي

أعلنته ساعة الشدة لتعود إلى ظلمها الذي ألفته حين الرخاء ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ**﴾ [الـروم: 33] ولكنا نعلم كـذلك أن الـدرس الحاضر كـان من القسـوة والفظاعة وعمق الأثر في النفوس والأرواح والشعوب والحكومات بحيث لا يعرض لهم نسـيانه بمثل هـذه السهولة.

ولاشك أن من الخـير كل الخـير للأمم المتحـدة أن تقـوم في الشـرق أمة عربية قوية لها من خلقها ومجـدها وجلال تقاليـدها في ماضـيها وحاضـرها ما يجعلها أقـوى دعائم السلام في آسيا وأفريقية خاصة وفي مستقبل البشرية عامة.

ج- الكيان السياسي العام للأمم العربية المتحدة:

وتـأتي بعد الخطـوة السـابقة خطـوة ثالثة يكمل بها بنـاء الوحـدة العربية تلك هي لون الكيان السياسي العام لهذه الحكومات العربية المتحـدة – ولا نظن أن الـوقت قد حان أو أن الظروف قد تهيـأت لمثل هـذا البحث كما لا نظن أن من مهمة المـؤتمر أن يختار شكل الحكومات فإن ذلك متروك للشعوب نفسـها يتخـير كل شـعب منها لنفسه النوع الذي يريد ولكن الذي يجب أن يعمل له المؤتمر بهذا الخصوص ويقرره من الآن:

أن يحتفظ بالحكومـات العربية المسـتقرة بحق التمثيل فيما إذا أجـرى اسـتفتاء للشعوب العربية المحررة أو التي لم تستقر حكوماتها الوطنية بعد.

وإن يقــرر من الآن لونًا من ألــوان الارتبــاط السياسي بين الحكومــات العربية كمجلس استشـاري أعلى تسـتطيع بواسـطته أن يتصل بعضـها ببعض بطريقة دائمة منظمة ويكون أساسًا لوحدة أتم وأكمل في المستقبل إن شاء الله.

د- تحديـــد الصـــلة بين البلاد العربيـــة وجاراتهـــا من الممالـــك الإسلامية غير العربية:

وهناك شعوب إسلامية وأقليات وجاليـات عربية في كثـير من البلاد والأقطـار بلاد الحلفــاء وبلاد الأعــداء كالشــعب الأندونوسي والتركســتاني والمســلمين في الهند والمسـلمين في الصـين والفيلـبين والمسـلمين في روسـيا وفي البلقـان وكل هـؤلاء يضـرب عليهم الاسـتعباد باسم الاسـتعمار وتهضم حقـوقهم ويحـال بينهم وبين الـرقي والنهوض فإذا كان هذا الوقت هو الذي يترقبه المظلومون لينالوا حقوقهم وليصلوا إلى حريتهم فإن أولى من ينطق بلسان هؤلاء ويطالب بحقوقهم هو المؤتمر العـربي بحكم الروابط الكثـيرة بين العـرب وبين هـذه الجماعـات فعلى المـؤتمر أن يطـالب باسم الإنسـانية وباسم التطـور الجديد في نظـام العـالم لتحرير الشـعوب المسـتعبدة من هؤلاء.. وإنصـاف المظلـومين من هـذه الأقليـات ودراسة القضـايا المعلقة الـتي طـال عليها الأمد ولم تمتد إليها يد العدالة والإنصاف.

و- لون الحضارة التي يجب أن تصطبغ بها الأمة العربية:

ولعل من أهم واجبـات المـؤتمر أن يعـني بدراسة هـذه الناحية دراسة دقيقة وأن يكـون لنفسه رأيًا يوجه إليه الأمم والحكومــات العربية فــذلك أجــدى عليها من هــذه الذبذبة في التفكير والتنفيذ معًا. ولعل هذه الناحية الاجتماعية لا تقل أهمية عن الناحية

السياسية إن لم تزد عنها.

والرأي العـام العـربي يـذهب في هـذه الناحية مـذهبين مختلفين فمن النـاس من يدعو إلى الحضارة الغربية ويحض على الانغماس فيها وتقليد أساليبها (خيرها وشـــرها، وحلوها ومرها ونفعها وضارها ما يحب منها وما يكـره وما يحمد منها وما يعـاب) ويـرى أنه لا سبيل للنهوض والرقي إلا بهذا (ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع).

ومن النــاس من ينفر من هــذه الحضــارة أشد التنفــير ويــدعو إلى مقاومتها أشد المقاومة ويحملها تبعة هـذا الضـعف والفسـاد الـذي استشـرى في الأخلاق والنفـوس، ولاشك أن كلا الفــريقين قد تطــرف وأن الأمر في حاجة إلى دراسة أعمق وأدق وإلى حكم أعدل وأقرب إلى الإنصاف والصواب.

لقد وصـلت الشـعوب الغربية من حيث العلم والمعرفة واسـتخدام قـوى الطبيعة والرقي بالعقل الإنسـاني إلى درجة سـامية عاليـة، يجب أن تؤخذ عنها وأن يقتـدي بها فيها وهي إلى جانب ذلك قد عـنيت بـالتنظيم والـترتيب وتنسـيق شـئون الحيـاة العامة تنسيقًا بديعًا يجب أن يؤخذ عنها كذلك، وهذه الحقائق لا يكابر فيها إلا جاهل أو معاند.

ولكن هــذه الحيــاة الغربية والحضــارة الغربية الــتي قــامت على العلم والنظــام فأوصلها إلى المصنع والآلة وجبى إليها الأموال والثمــرات وملكها نواصي الأمم الغافلة التي لم تأخذ في ذلك أخذها ولم تصنع صنيعها – هذه الحيــاة المادية الميكانيكية البحتة مع ما صحبها من خصومة حادة بين علماء الدنيا وحراس الدين – قد أغفلت هذه الأمم عن أخص خصــائص الإنســانية في الإنســان – عن الغرائز ومســتلزماتها وللمشــاعر ومطالبها والنفس وعالمها وطرائق تنظيم ذلك كله وضـــبطه ضـــبطًا يضـــمن خـــيره ويجنبهم شره.

ودفعت بها دفعًا عنيفًا إلى التـبرم بالعقائد والأديـان والخـروج عليها خروجًا قاسـيًا شديدًا وإقصائها إقصاء تامًا عن كل نواحي الحياة الاجتماعية العملية.

فأسقطت الحياة الغربية من حسابها جلال الربانية، والتسامي بـالنفس الإنسـانية، والاعتقاد بـالجزاء الأخـروي. واضـطربت بـذلك بين يـديها المقـاييس الخلقية وانطلقت غرائز الشر من عقالها تحت ستار الحرية الشخصـية أو الاجتماعيـة، ونجم عن ذلك أن تحطمت الفضائل في نفوس الأفراد وتهدمت الروابط بين الأسر وفسدت الصلات بين الأمم وصارت القوة لا العدالة شريعة الحياة واندلعت نـيران هـذه الحـرب فـذاق حرها المحاربون والآمنون على السواء.

وقد أدرك هذه الحقيقة أخيرًا ساسة الأمم الغربية أنفسـهم فهبـوا ينـادون بوجـوب العناية بالشـئون الروحية ويتغنـون بالمثل الخلقية العليا ويهيبـون بالحكومـات أن تصـبغ المـدارس ومنـاهج التعليم والتربية بعد الحـرب بهـذه الصـبغة وأن تعـود بالشـعوب إلى الأديــان والعقائد الموروثة وفي الكتــاب الأبيض الــذي أصــدرته الحكومة الإنجليزية عن التعليم بعد الحــرب وفي تقــارير الأحــزاب الــتي وضـعت في ذلك وفي مناقشة مجلس العموم واللوردات لهذا الكتاب من هذا الشيء الكثير.

ونحن العرب قد ورثنا مفاخر هذه الحيـاة الروحية ومظاهرها فأقطـاب الرسـالات العظمى وأنبياؤهم المطهرون في أوطاننا نشأوا وعلى أرضـنا درجـوا ورمـوز الـديانات المقدسة لا زالت شامخة باذخة في ديارنا تهوى إليها قلوب المؤمنين بــالكتب والرسل في أنحاء الأرض – وهذا القرآن الكريم الـذي ورثنـاه نحن العـرب فخلد لغتنا ورفع الله

به ذكرنا وخـاطب به نبينا فقـال:﴿**وَإِنَّهُ لَـذِكْرٌ لَّـكَ وَلِقَوْمِـكَ وَسَـوْفَ تُسْـأَلُونَ**﴾ [الزخـرف: 44] كما خاطبنا فقـال ﴿**لَقَـدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيـهِ ذِكْـرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ **[الأنبياء: 10]** هذا القـرآن قد حـدد أهـداف الحيـاة الروحية تحديـدًا دقيقًا مبسطًا بعيدًا عن الأوهام الخيالية والفروض الفلسفية ووفق بينها وبين مطالب الحيـاة العملية توفيقًا عجيبًا لم يسـتقم لغـيره من الكتب ولم يتح لسـواه من منـاهج الحيـاة ونظمها.

فإذا كنا نحن العرب نملك هذه الثروة الروحية الجليلة التي تصل القلب الإنسـاني بجلال الربانية فتملؤه بذلك إشراقًا وريا وتكرم في الإنسان معنى الإنسانية فـترفع في عينه قيم الفضـائل العليا وتـذكر النـاس بجـزاء الآخـرة فتسـمو بهم عن الوقـوف عند أغراض الحياة الدنيا وتوثق بين بني الإنسـان رابطة من الإخـوة لا تمتد إليها يد التفريق والبلى وتقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات على أسـاس من التعـاون والرضى وتضع لأصـول المشـاكل حلـولاً ترتكز على الحق لا على الهـوى إذا كنا نملك ذلك كله فإن من العقوق لمجدنا وكتابنا وللإنسانية كذلك إلا نتقـدم للـدنيا بهـذا الـدواء والعلاج الشافي.

ولهـذا نعتقد أن من واجب المـؤتمر أن يقـرر وجـوب استمسـاك البلاد العربية بقواعد حضـارتها الـتي تقـوم على ما ورثت من فضـائل نفسـية وأوضـاع أدبية ودوافع روحية على أن نقتبس من الحيـاة الغربية كل ما هو نـافع مفيد من العلـوم والمعـارف والصناعات والأساليب وعلى أن ندعو أمم الغرب إلى الانتفـاع بهـذا المـيراث الـروحي الجليل ونبصرها بما فيه من خير ونذكرها بما يحتويه من نفع وضر وبذلك تقـوم الصـلة بيننا وبينها على أسـاس من التعـاون المشـترك يتـآزر فيه العقل والقلب على إنقـاذ الإنسانية واستقرار الأمن والسلام.

ولقد يقـال إن هـذا المعـنى ينحـدر بالعـاملين له والـداعين إليه إلى معـنى من التعصب الديني أو التحزب المذهبي يمزق وحدة الوطن المجتمع ويفـرق بين المسـلم وغير المسلم وهذا وهم خـاطئ فنحن إنما نـدعو إلى الفضـائل الروحية والمثل الدينية العليا التي يدعو إليها أهل الأديان جميعًا كما نـدعو إلى الانتفـاع في حياتنا العملية بهـذا التراث القرآني المجيد الذي هو للمسلم دين ونظام ولكل عـربي قومية ومجد وللـدنيا بأسرها طمأنينة وسلام.

أيها السادة الفضلاء:

حين نريد لأوطاننا وشعوبنا على أيديكم الوصول إلى هذه الأهداف والحصـول كل كامل الحرية والاسـتقلال لا ننكر ولا نغفل أن بيننا وبين دول العـالم وأممه وشـعوبه صلات يجب أن تبقى ومصالح يجب أن تنظم حتى يقوم التعامل على أساس من الحب والتعاون والإنصاف وأن من واجب مؤتمركم الموقر أن ينظم ذلك كله بحيث لا تسـوى مصالح الدول والشعوب على حسـاب العـرب كما لا يحـال بين دولة وبين مصـلحة من مصالحها الحقيقية التي لا تنتقص من استقلالنا ولا تقف عقبة دون رقينا ونهوضنا.

أيها السادة الفضلاء:

إن يومكم هذا له ما بعده وإنكم لتضعون بقراراتكم التي تقررون لبنـات الأسـاس في نهضة العرب الحديثة بل في نهضة العـالم الإسـلامي كله وإنكم مـتى سـموتم عن الاعتبارات الشخصية ونصـحتم بتقـديم المصـلحة العامة على المصـالح الفردية فـإنكم بأذن الله موفقون فاقدروا تبعتكم وحققوا الأمل في وطنيتكم وثقوا بمقـدرة شـعوبكم وتأييد الله إياكم والله معكم.

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛

حسن البنا
المرشد العام للإخوان المسلمين